دعوة الحق

كيف بدأ الخلق

الأستاذ/ عيسى العرباوي

السنة السابعة - العدد ٨١ - ذو الحجة ١٤٠٨هـ - أغسطس ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله الذى خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ثم نفخ فيه من روحه فتبارك الله أحسن الخالقين. والصلاة والسلام على خير خلق الله وأفضلهم باطلاق سيدنا محمد بن عبدالله الذى جاءنا بالقرآن الكريم شاملاً لجميع عوالم الكون، وجامعاً لكل الأدلة، وتبياناً لكل شيء.

وبعد،

فإن الله سبحانه وتعالى أراد رحمة منه بعباده أن يوضح لهم طريق الايمان ليسلكوه، فأنزل على نبيه محمد ﷺ القرآن الكريم ليهتدوا بهديه، ويسترشدوا بآياته ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ (١).

ولأن الله سبحانه وتعالى هو صاحب هذا الكتاب، واضافته إلى الله تعالى تعنى أن الله عزّ وجلّ هو منزله وهو واضعه ومحدد من جاء به. فقد سلم من تدخل البشر ومن تحريف البشر له، لأن منزله وواضعه سبحانه هو الذى تولى بنفسه حفظ كتابه ودستوره، وأعلن على نبيه ﷺ، وعلينا جميعاً حيث قال سبحانه ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ (٢) وكان وعد الله سبحانه وتعالى حقاً وصدقاً وعدلاً. فالقرآن الكريم بقى وسيظل محفوظاً بعناية الله تعالى كما أنزله الله، وكما تلاه رسول الله ﷺ، وكما نقله عنه أصحابه، وكما تلقاه عنهم من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) النحل ٨٩.

(٢) الحجر ٩.

والحمد لله وبفضل الله لم تزل الأجيال تلو الأجيال تتوارثه وتتعبد بتلاوته وحفظه وكتابته ، وهو هو كما هو ، سواء مكتوباً فى المصاحف أو فى الصدور كما نقل إلينا حرفياً ، وبنفس طريقة كتابته منذ عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبطريقة تلاوته ونطقه منذ عهد سيدنا رسول الله ﷺ .

وما ذلك إلّا لكمال قدرة صاحب هذا المنهاج العظيم ومصدره الذى تكفل بحفظه وحراسته ، فظل وسيظل كما أنزله الله سبحانه وتعالى .

وحينما نتصفح آياته سبحانه وتعالى فى كتابه الجليل ، لنتدبر ونتأمل قدرته سبحانه وتعالى فى الخلق والابداع ، لأننا لا يمكن أن نصل إلى الحقيقة إلّا عن طريق مصدرها ، وهل يعلم سر المخلوقات إلّا خالقها ومبدعها ؟

لقد علم سبحانه الأشياء قبل وجودها ، فأوجدها بعلمه وقدرته . فخلق أعداداً لا تحصى من شتى الأنواع ، وأنواعاً لا تحصى من مختلف الأصناف ، وألواناً لا تحصى من نفس الأنواع ونفس الأصناف ، بل إننا نجد فى النوع الواحد أو الصنف الواحد إختلاف أفراده .

وما ذلك إلّا دليل وبرهان على طلاقة القدرة وعظمة الخالق وقدرة الصانع ومع وجود الاختلاف في النوع والصنف والأفراد فإننا نجد الكائنات الحية لها عينان ومخ ، وأذنان وفم ، ورقبة وصدر وأطراف ، وكل منهم يكسوه الجلد ، ويتحرك ويتنفس ويأكل ويشرب ويتناسل وهذا دليل وبرهان على وحدة الخالق ، فكل مخلوق يتشابه في الخلق مع غيره في كثير من الصفات والله سبحانه

﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1] وانطلاقاً من قوله سبحانه **﴿أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير﴾**[2] .

وقوله سبحانه **﴿وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾**[3]

فقد استعنت بالله تعالى وبحوله وقوته وإلهامه فى إعداد هذا البحث الذى إخترت له عنوانه واسمه من خلال الأمر الإلهى **﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾** لأننى فى اعتقادى بأنه مادام هذا الأمر تنفيذاً لأمر الله تعالى ، فإن الهامه وتوفيقه وعونه وفيضه سيحالفنى بإذن الله فى إعداده وتبويبه ، لأنه لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً إلّا إذا أراد الله سبحانه وتعالى ولا يستطيع أحد أن يكتب شيئاً بدون إلهام الله سبحانه وتعالى ، ولا يستطيع أحد أن يكتشف أى من أسرار خلق الله بدون توجيه الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فاللهم أنت الواهب والمانح والملهم ، وأنت سبحانك المنعم والموجه والمعلم ، أسألك أن تمدنى بفيضك ومددك وإلهامك وعونك فى إعداده ، حتى أبلغ به الغاية التى أرجوها منك وحدك .

نفعنا الله بالإسلام ، وهدانا إلى صراطه المستقيم ، ووفقنا إلى اتباع هداه وكتابه الكريم حتى لا نضل ولا نشقى .

عيسى العرباوى عبده

---

(١) الشورى ١١ .
(٢) العنكبوت ١٩ ـ ٢٠ .
(٣) الذاريات ٢٠ ـ ٢١ .

الفصل الأول

ماذا قبل أن يخلق الله الإنسان

إننا لو نظرنا إلى رسالة سيدنا محمد ﷺ لوجدناها خاتمة الرسالات ، فلم يرسل الله بعده نبي أو رسول ، ولم ينزل بعد القرآن الكريم كتاب .

وإذا كنت أحاول أن أكتب فى هذا البحث عن ماذا كان قبل أن يخلق الله الإنسان ، فإننى لم أكن موجوداً كما لم يكن أى إنسان موجوداً قبل أن يُخلق أبوالبشرية آدم عليه السلام ، ولن أسير فى كتابتى وراء الخيال ومتاهاته أو وراء الأساطير والأوهام التى كتبت عنها الكتاب والمتحدثون .

ولكننا حينما نريد أن ندرس شيئاً مثل هذا فلنرجع إلى الذى خلق فسوى والذى قدّر فهدى ، لأنه لم يشاهد ولم يعاين خلق كل الموجودات إلّا الذى خلقها فأبدعها .

ومن أسماء الله الحسنى «القيوم» ومعنى القيوم أى القائم بنفسه والذى يقوم به كل موجود ، حتى أنه لا يكون للأشياء وجود ولا دوام إلّا به . فما لا شك فيه أنه سبحانه هو الذى خلق وقدر ، ووضع النواميس وقعد القواعد . ومع هذا فإن تدبيره سبحانه قائم ، وعلمه شامل بكل مخلوقاته .

وقد وردت أحاديث صحيحة توضح جملة من القضايا ، منها ما رواه الإمام البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنهما ، وهى إجابة الرسول ﷺ عن سؤال وفد اليمن .

والقضية الأولى من ذلك : كان الله ولم يكن شىء غيره .

والقضية الثانية : كان عرشه على الماء .

والقضية الثالثة : أنه سبحانه كتب فى الذكر كل شىء (أى اللوح المحفوظ) .

والقضية الرابعة : أنه تعالى خلق السماوات والأرض .

فالقضية الأولى توضح بأنه سبحانه لم يكن فى الأزل شىء غيره ، لم يكن الماء ، ولم يكن العرش ، ولم يكن شىء سواه سبحانه .

أما الثانية فتدل على أنه سبحانه خلق الماء أولاً ، ثم خلق العرش على الماء .

والثالثة يوضحها قول رسول الله ﷺ (ثم خلق القلم فقال له اكتب ما هو كائن) وكان خلق السماوات والأرض وما فيهن بعد ذلك فأول ما خلق الله عزّ وجلّ الماء والعرش . ولكن متى خلق الله الملائكة ؟

أكان خلقهم قبل الماء والعرش أم بعد ذلك ؟

إن المرجح أن الملائكة قد خلقت قبل أن يخلق العرش ، بدليل قوله تعالى **﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً﴾** (١)

ومادام العرش تحمله الملائكة فمن الثابت إذن أن تكون الملائكة قد خلقت قبل خلق العرش لتحمله فور خلقه .

وبعد أن خلق الله سبحانه وتعالى الماء والملائكة والعرش والقلم الذى كتب فى اللوح المحفوظ كل ما هو كائن ، خلق السماوات

---

(١) غافر ٧ .

والأرض . قال تعالى : ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ (١)

فما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذه الأشياء قبل أن يخلق الإنسان .

وكيف كان الإنسان قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى ؟

قلنا بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق أول ما خلق الماء ، فالملائكة ، فالعرش ، فالقلم ، فاللوح المحفوظ ، فالأرض ، فالسماوات وما فيهن . فقد خلق الملائكة قبل أن يخلق الإنسان ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون**﴾ (٢) وخلق الجان قبل أن يخلق الإنسان ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم**﴾ (٣)

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى من بين سور القرآن الكريم سورة سميت بسورة الإنسان ، وقد استهلها سبحانه بقوله : ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا . إن خلقنا الإنسان**

---

(١) فصلت ٩ : ١٢ .

(٢) الحجر ٢٨ .

(٣) الحجر ٢٦ ، ٢٧ .

من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ (1)

أى لقد مرّ زمن طويل لم يكن فيه إنسان يذكر ، ولقد خلق آدم من العدم وإذا أمعنا النظر فى قوله تعالى **﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** نجدها تحتمل عدة معان :

١ - أن الله سبحانه وتعالى أول ما خلق ، فقد خلق سبحانه : الماء ، الملائكة ، العرش ، القلم الذى دون اللوح المحفوظ به ، فالأرض والسماوات وما فيهن ، والجن . والإنسان حينئذ لم يكن شيئاً مذكوراً ، حيث لم يخلق ولم يعرف وقتئذ .

٢ - أنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام من العدم ، فلم يكن شيئاً مذكوراً قبل أن يعلن رب العزّة فى قوله سبحانه **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾** (2) **﴿إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾** (3) لأنه كان قبل أن يصوره الله وينفخ فيه من روحه عبارة عن تراب ، فلم يكن شيئاً مذكوراً **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾** (4) .

٣ - أن آدم عليه السلام حين صوره الله سبحانه وتعالى ، فقد ظل حيناً من الدهر (قيل أربعون سنة) لم يكن فيها شيئاً مذكورا حيث كان فى هذه المدة مصوراً من طين لا يذكر

---

(١) الإنسان ١ ، ٢ .
(٢) البقرة ٣٠
(٣) الحجر ٢٨ .
(٤) آل عمران ٥٩ .

حتى نفخت فيه الروح .

٤ ـ بالنسبة لنا نحن بنو آدم فإنه تتجلى لنا قدرة الله سبحانه وتعالى ، وعظمة الخالق وقدرة الصانع ، التى تتم بلا مسببات وتأتى بلا حدود حينما يشاء الله سبحانه وتعالى أن يهب إنساناً ذرية ، وتكون قد انقطعت عنه أسبابها ، فتتدخل قدرة الخالق فيرزقه الذرية كما حدث لسيدنا زكريا عليه السلام حينما قال : ﴿**رب أنى يكون لى غلام وكانت إمرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو علىّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا**﴾[1] وهذه آراء أرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت فيها ، ولكن الأرجح فيها القول الأول ، لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق الماء والملائكة والعرش والقلم والسماوات والأرض والجن والنبات والبحور قبل أن يخلق آدم بزمن طويل ، فلم يكن الإنسان مذكوراً فى هذا الوقت .

يقول عبدالله بن عمر رضى الله عنهما (كانت الجن قبل آدم بألفى عام ، فسفكوا الدماء ، فبعث الله جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور) وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما خلق السماوات والأرض ، وخلق الملائكة والجن ، فأسكن الملائكة السماء ، وأسكن الجن الأرض ، فعبدوا دهراً طويلاً ، ثم ظهر فيهم الحقد والحسد والبغى فأفسدوا وقتلوا ، فبعث الله لهم جنداً من الملائكة ، فطردوا الجن إلى جزائر وشعوب الجبال .

أما ما يقوله بعض المفسرين بأن بنى آدم كلهم كانوا مجتمعين فى

(١) مريم ٨ ـ ٩ .

شيء ضئيل جداً ، لا يكاد أن يكون شيئاً مطلقاً ، أطلق عليه إسم الحيوان المنوى . وقد قالوا عنه إنه شيء لا يذكر بسبب ضآلة حجمه .

ولهؤلاء أقول إنه لو لم يكن هذا الحيوان المنوى رغم ضآلة حجمه شيئاً مذكوراً ، ذكره الله سبحانه وتعالى فى عدد من آيات القرآن الكريم ، حيث يقول سبحانه :

﴿أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾(١)

﴿فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾(٢)

﴿اقرأ بإسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق﴾(٣)

وإذا لم يكن الحيوان المنوى شيئاً مذكوراً ، فكيف أخذه الله من ظهر أبينا آدم عليه السلام ، وصوَّر له خلاله ذريته ، وعرضهم عليه ، ثم كلمهم الله سبحانه وتعالى وكلموه ، حينما أخذ عليهم العهد والميثاق ؟ **﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾**(٤) فجميع ذرية آدم كانوا مجموعين فى نطفة أبيهم آدم التى دفعها الله عزّ وجلّ بقدرته فى صلبه ، وجعله يقذفها فى رحم حواء فحملت .

وقد تم الحمل بواسطة إختراق حيوان منوى واحد من ملايين الحيوانات التى قذفت ، فأخصب البويضة الأنثوية لحواء . يقول الله تعالى :

---

(١) الواقعة ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) الطارق ٥ : ٧ .

(٣) العلق ١ ، ٢ .

(٤) الأعراف ١٧٢ .

﴿يا أيها الناس إتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾[1] .

فكان أساس البشرية جمعاء هو هذا الحيوان المنوى الذى كان يقذف من آدم فى رحم حواء ، فتحمل فى كل مرة ذكراً وأنثى ، فيتزوج ذكر البطن الأولى أنثى البطن التالية ، ويتزوج ذكر البطن الآخر أنثى البطن السابقة .

وهكذا فقد كانت حواء تنجب بطوناً كثيرة توائم (ذكر وأنثى) ومن هنا كثر التناسل وعمرت الأرض **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير﴾**[2] فالانسان الأول أبوالبشر لم يكن شيئاً مذكوراً قبل إنعقاد مؤتمر استخلافه فى الملأ الأعلى ، وقبل أن يخلقه الله وينفخ فيه من روحه . ونحن لم نكن على علم بخلق الله لأبينا آدم ، ولا كيف خُلق ، سوى ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى ، لأننا لم نكن شيئاً مذكوراً ساعة خلق أبينا آدم عليه السلام ، حيث أننا لم نكن قد خلقنا الله .

وإليك أخى القارىء طرفاً من هذا المؤتمر الذى عقد فى الملأ الأعلى ، ولكى نستوضح بدء هذا الحوار ، فلابد وأن نرجع فى جلال وخشوع إلى قوله تعالى : **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾**[1]

---

(١) النساء ١ .

(٢) الحجرات ١٣ .

إن هذا المؤتمر وهذا الحوار له مغزى . فطرفى الحوار هما : الله الخالق البارىء المصور ، والملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

أما مكان الحوار : ففى الرحاب الأقدس فى الملأ الأعلى .

وموضوع الحوار : هو ذلك الإنسان وتقرير مركزه وأمر استخلافه وقضية تكريمه إنه إحتفال مهيب فى الملأ الأعلى لإبراز مكانة هذا الإنسان ، وإبرام عقد استخلافه فى الأرض . مما يعطينا مؤشراً يتبين لنا من خلاله بأن هذا الإنسان هو كائن عظيم ، له من الكرامة والأهمية والمنزلة مما يجعل موضوع خلقه واستخلافه موضع نقاش وحوار فى الملأ الأعلى ويتحدد من خلاله وعلى أساسه مكانة هذا الإنسان ومنزلته على ظهر هذه الأرض .

ونحن نقر ونشهد بأن هذا الحوار قد شهدته السماوات العلا والملائكة الأطهار ، وبأنه حق وصدق ، لأنه قد بلغنا عن الله عزّ وجلّ .

إنى جاعل فى الأرض خليفة

لقد بدأ الحوار فى المؤتمر الذى عقد فى الملأ الأعلى بلغة تفيد التأكيد والحسم حيث قال سبحانه ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾[1] ﴿**إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون**﴾[2] وقد قلنا من قبل أن خلق الماء والملائكة والعرش والسماء والأرض والجن والبحور والنبات . كل ذلك كان قبل خلق آدم .

وحينما كان فى تقدير الله عزّ وجلّ أن خلق آدم على وشك التحقيق ، فقد خاطب الملائكة فى هذا المؤتمر بهذا القرار الموثق من الخالق جل وعلا ، بأنه سبحانه قد قضت مشيئته بأن يخلق آدم وذريته ليكونوا خلفاء الأرض . ولم يكن الملائكة يتوقعون ذلك ، ولم يكونوا ينتظرون ذلك .

فقالوا على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة فى خلق هذا الخليفة من البشر ، لا على وجه الاعتراض على ذلك .

﴿**قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ لقد قالوا ذلك لأنهم قد إنتبهوا لما حدث من قبل حينما أسكنت الجن الأرض ، وعبدوا الله فيها دهراً طويلاً ، ثم ظهر فيهم الحقد والحسد والبغى ، فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله جنداً من الملائكة فطردوا الجن إلى جزائر البحور وشعاب الجبال . ولهذا قالوا : ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ ! !

---

(١) البقرة ٣٠ (٢) الحجر ٢٨ .

وربما نبههم إعلان الله سبحانه وتعالى عليهم فى بدء الحوار ، حينما قال سبحانه : ﴿**إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون**﴾

إلى أن هذا المخلوق ليس مخلوق من نور مثلهم ، وإنما هو مخلوق من صلصال أى طين يابس ، ومن حمأ مسنون أى الطين المتغير الرائحة . فإنه سوف تكون طبيعته متغيرة . ولهذا قالوا : ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟**﴾ .

وما هذا إلّا إعلان من الملائكة لمن كرههم وتقززهم من هذا العمل (الفساد فى الأرض وسفك الدماء) وقد رأوا أن الجن قد أفسدوا وسفكوا الدماء من قبل ، ولا يريدون أن يتكرر ذلك مرة أخرى . وكأنهم يقولون : أتجعل فى الأرض من يفسد فيها بالمعاصى ، ويسفك الدماء بغير حق كما فعلت الجن من قبل ، وبخاصة أنهم سوف يخلقون من طين متغير التكوين ؟

ولأن الملائكة قد خلقت من نور ، فإن طبيعتهم وفطرتهم وتكوينهم نوراً بحتاً ، لذا فهم يسبحون لله ويعبدونه لا يفترون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وأن طبيعة هذا الخليفة وفطرته وتكوينه من اخلاط متغيرة ليست نوراً بحتاً كطبيعتهم وفطرتهم ، وأن هذه الطبيعة الطينية ستغلب عليه ، وتنزل به إلى مستوى يجعله يفسد ويسفك الدماء .

لذا فهم يريدون أن يكون الخليفة فى الأرض ملتزم بالقداسة والطهارة مثلهم . لهذا قالوا : ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ أى أننا فى تسبيح وحمد وشكر دائم لك يا رب ، منزهين لك عن نقص ، واصفين ذاتك العلية بكل ما يليق بها من الجلال والعظمة

والرفعة والقدرة ، حتى نكون جديرين بطاعتك وعبادتك ، وحتى ننال رضاءك عنا .

فإذا كان المراد يا رب بخلق هؤلاء ليعبدوك ، فنحن لا نفتر ليلاً أو نهاراً عن عبادتك سبحانك ، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله سبحانه ﴿**إنى أعلم ما لا تعلمون**﴾ أى أننى أعلم الحكمة فى خلق لآدم وذريته ، ولا تعلمون أنتم الحكمة فى ذلك . فسيوجد منهم من يعبدنى ويطيعنى ولا يعصانى ، وأعلم بأنهم سوف يذنبون ثم يستغفرون فاغفر لهم واعفو عنهم .

لماذا سمي آدم خليفة ؟

الحقيقة أن الذى سماه بهذا الاسم هو الخالق عزّ وجلّ حينما قال سبحانه ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ ولقد سماه الله سبحانه وتعالى خليفة لعدة أسباب الله سبحانه وتعالى أعلم بها ، ولكننّا على ما نراه فى خواطرنا قد استحق هذه الخلافة لعدة أسباب ، ارجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى فى اقتباسها :

١ ـ أن الجن حينما سكنوا الأرض من قبل آدم ، وعبدوا الله دهراً طويلاً فيها ، ثم ظهر فيهم الحقد والحسد والبغى ، فافسدوا وسفكوا الدماء ، فأرسل الله ملائكته فطردوهم إلى جزائر البحور وشعاب الجبال ، حينئذ جمع الله سبحانه وتعالى ملائكته وقال لهم : ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ أى خالق خليفة بدلاً منهم فى الأرض .

٢ ـ والخلافة فى الأرض لها جانبان :

(أ) فالخليفة معناه صاحب السلطان . أى أن هذا الإنسان استحق هذه الخلافة فى الأرض ليقوم على تسيير كل ما خلق الله على الأرض ، واستغلال كل ما خلق الله فى باطن الأرض ، ولهذا سخر الله سبحانه وتعالى له كل ما على الأرض وما فى باطنها حتى يحسن هذه الخلافة .

(ب) وهو أيضاً خليفة الله فى الأرض ، لأن الخليفة يستمد سلطانه دائماً ممن أعطاه هذه الخلافة ، كما يسير دائماً على تعاليمه ، ولا يستطيع أن يشذ عنها .

ولذا فالإنسان قد جعله الله خليفة له فى الأرض ليقيم كل ما شرع الله سبحانه وتعالى ، وما قضى به سبحانه على أرضه . وإذا ما نظرنا بتدبير وامعان إلى الحكمة فى تسخيرُ الله سبحانه وتعالى المخلوقات الأخرى لهذا الخليفة ، فإننا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد سخر له جميع هذه المخلوقات ، ولو لم يذللها الله سبحانه وتعالى له ما استطاع هذا الإنسان أن يذللها لنفسه إطلاقاً ، وهذه الأشياء التى لم يستطع أن يذللها ، هى الأشياء الغير نافعة له ، أو الأشياء التى لو ذللها الله له وتحكم هو فيها أضر بالآخرين من بنى جنسه وقد سخّر الله سبحانه وتعالى للإنسان ، الأشياء التى فيها مصلحته وسعادته وبقاؤه ، لأنه خليفة الله فى أرضه .

ومادامت كل المخلوقات تنصاع لأمر خالقها وبارئها ، وهو سبحانه الذى أمرها أن تنصاع لأمر هذا الخليفة ، فلا بد وأن تخضع الأرض وما فيها وما عليها لهذا الخليفة ، لأن الذى قضى بذلك هو الله الخالق البارىء المصور ، ولأنه سبحانه هو المهيمن على كل مخلوقاته .

فلم يكن إذن إنصياع الكائنات للإنسان نتيجة مهارته وقدرته ، ولكنها مشيئة الله سبحانه وتعالى وقدرته التى خلقت وهدت وسخرت كل المخلوقات لهذا الخليفة . قال الله تعالى : **﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو إجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنفذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب﴾**[1]

---

(١) الحج ٧٣ .

وكأن الله سبحانه وتعالى يقول للإنسان : لقد خلقت لك الأشياء وسخرتها لك بمشيئتى ، لأنى خالق الأسباب والمسببات ، واستطيع أن أخرق لك الأسباب والمسببات فما سخرت لك الأشياء إلّا بأمرى وارادتى ، وأنا مطلع عليك وعلى أعمالك ، ولن تخرج عن قبضة يدى ، وسوف أصدر لك أوامرى فتأتمر بها ، وأنهاك عن أشياء فلا تفعلها ، ثم أوضح لك نتيجة كل منها ، وأترك لك الخيار فيما تفعل ، وأحاسبك على جميع أعمالك ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فعليك أيها الخليفة أن تتأمل كيف سخر الله لك مخلوقاته ، وأمرها بخدمتك والانصياع لأوامرك . فاعمل على تسخير نفسك وتذليلها لتنصاع لأمر خالقها عزّ وجلّ .

ممَّ خلق الله آدم عليه السلام

إن قصة النشأة الآدمية هى قصة الإنسان الأول أبونا آدم عليه السلام ، وهذه النشأة قد استوفاها القرآن الكريم وأوضحها لنا رب العزّة الذى اكرمه فخلقه بيديه ونفخ فيه من روحه . فقال سبحانه :

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[1]

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾[2]

﴿الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾[3]

﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا ، إنا خلقناهم من طين لازب﴾[4]

﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين﴾[5]

﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾[6]

﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً﴾[7]

---

(١) آل عمران ٥٩ .
(٢) الحجر ٢٦ : ٢٨ .
(٣) السجدة ٧ .
(٤) الصافات ١١ .
(٥) ص ٧١ .
(٦) الرحمن ١٤ .
(٧) نوح ١٣ ـ ١٤ .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحي ومحمد بن جعفر ، حدثنا عوف ، حدثنى قسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : **(إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك)** .

وقد ذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : **(فبعث الله عزّ وجلّ جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال رب إنها عاذت بك فأعذتها . فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه ، فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ تربة بيضاء وحمراء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به ، فَبَلَّ التراب حتى عاد طيناً لازباً ثم قال للملائكة ﴿إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾[١] فخلقه** الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم فزعاً إبليس فكان يمر به فيضرب فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول **﴿من صلصال كالفخار﴾**[٢] .

---

(١) ص ٧١ ، ٧٢ . (٢) الرحمن ١٤ .

ويقول لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره ، وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف ، لئن سلطت عليه لأهلكته ، فلما بلغ الحين الذى يريد الله عزّ وجلّ أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس ، فقالت الملائكة قل الحمد لله ، فقال له الله : يرحمك ربك ، فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخلت الروح فى جوفه إشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، وذلك حين يقول الله تعالى : **﴿خلق الإنسان من عجل﴾** (٢)

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعين إلّا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ (٣)

وقال الحافظ أبويعلى حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا عمرو بن محمد عن اسماعيل بن رافع عن المقبرى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : **(إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طيناً ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار قال : فكان إبليس يمر به فيقول لقد خلقت لأمر عظيم . ثم نفخ الله فيه من روحه ، فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس ، فلقاه الله رحمة ربه ، فقال الله : يرحمك ربك ثم قال الله يا آدم إذهب إلى هؤلاء النفر (السلام عليكم) فانظر ماذا يقولون ، فجاء فسلم عليهم فقالوا وعليك السلام ورحمة**

---

(٢) الأنبياء ٣٨ .   (٣) الحجر ٣٠ .

الله وبركاته . فقال يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك ، قال يا رب وما ذريتي ؟ . قال إختر يدى يا آدم قال أختار يمين ربى وكلا يدى ربى يمين ، وبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته فى كف الرحمن ، فإذا رجال منهم أفواههم النور ، فإذا رجل يعجب آدم نوره ، قال يا رب من هذا ؟ قال إبنك داود ، قال يا رب فكم جعلت له من العمر قال جعلت له ستين ، قال يا رب فأتم له من عمرى حتى يكون له من العمر مائة سنة ففعل الله ذلك وأشهد على ذلك . فلما نفذ عمر آدم بعث الله ملك الموت فقال آدم أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال له الملك أو لم تعطها إبنك داود ، فجحد ذلك فجحد ذريته ونسى فنسيت ذريته)

وقال الترمذى حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا أبونعيم ، حدثنا هشام ابن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين كل إنسان منهم وبيصاً من نور) ثم عرضهم على آدم ، فقال أى رب من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال رب من هذا ؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، قال رب وكم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة ، قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما إنقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، قال أولم يبق من عمرى أربعين سنة ؟ قال أو لم تعطها إبنك داود ، قال فجحد فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم وخططئت ذريته) .

يتضح مما تقدم أن الله سبحانه وتعالى حينما قضت مشيئته أن

يخلق أبونا آدم عليه السلام . أرسل الملك فجاءه بتربة قد قبضها من جميع الأرض . ثم خلط هذا التراب بالماء فصار طيناً فالتراب أو الطين كما صرحت الآيات القرآنية هو الأصل الذى نشأ منه الإنسان . وأن الطين قد تقلب فى أطوار عديدة حتى ظهر منه هذا الإنسان .

والحمأ المسنون هو الطين بعد أن يترك فترة فيتخمر ويتعفن وتظهر له رائحة . والصلصال هو الطين الذى يكون له صلصلة أى صوت إذا نقر .

فالله سبحانه وتعالى قد خلق آدم من تراب . ثم جعله طيناً . ثم إذا كان حمأ مسنوناً خلقه وصوره . ثم تركه حتى كان صلصالاً كالفخار . ثم نفخ فيه من روحه . ثم أمر الملائكة بالسجود له .

ومن هنا نجد أن آدم عليه السلام قد حظى بعدة تشريفات منها :

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى قد أعلن عن خلقه وجعله خليفة فى الأرض فى المؤتمر الملائكى فى الرحاب الأقدس .

٢ ـ أنه سبحانه قد خلقه بيده الشريفة .

٣ ـ أنه سبحانه قد نفخ فيه من روحه .

٤ ـ أنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود له .

٥ ـ أنه سبحانه هو الذى علمه الأسماء كلها .

وممَّ خلقت حـــواء

إننا كى نجيب على هذا السؤال ، فلا بد وأن نستعرض ما أخبرنا به الخالق عزّ وجلّ ، لنجد الإجابة ، لأنه لا يستطيع أحد أن يخبرنا عن خلق آدم وحواء إلّا الذى خلقها ، لأنهما كما ذكرت بداية النشأة البشرية . فالخالق البارىء المصور جلّ جلاله يقول :

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ (١) .

﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به﴾ (٢) .

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (٣) .

﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ (٤) .

ولقد حكى السدى عن أبى صالح وأبى ماللك عن ابن عباس وعن مرة وعن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا :

(أخرج إبليس من الجنة ، واسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه إمرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها من أنت ؟ قالت : إمرأة . قال ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلىَّ ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء . قالوا :

---

(١) النساء ١ .
(٢) الأعراف ١٨٩ .
(٣) الروم ٢١ .
(٤) الزمر ٦ .

ولم كانت حواء؟ قال : لأنها خلقت من شيء حي) .

(وذكر محمد بن اسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(إنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ، ولأم مكانه لحماً .

ومصداق هذا قوله تعالى : ﴿**خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها**﴾ ﴿**خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها**﴾ .

والحقيقة التي لا مراء فيها أننا حينما نتحدث عن الخلق للإنسان فإنما نأخذ من قول الخالق عزّ وجلّ . يقول الخالق عزّ وجلّ : ﴿**ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا**﴾ [1] أي أنه ساعة أن بدأ الله النشأة الآدمية لم يطلب العون أو المشورة من أحد ، ومادامو لم يشهدوا الخلق فإن ما يقوله الخالق عزّ وجلّ هو الحق .

ومادام أن أمر الخلق هو أمر غيبي بالنسبة لنا ، فيجب أن نأخذه عمن خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ، لأنه سبحانه هو أعلم بخلقه .

فإذا قال لنا لقد خلقت الإنسان من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ، ثم من صلصال كالفخار ، ثم نفخت فيه من روحي ، فلا بد وأن يكون هذا حقيقة ليس فيها تناقضات مطلقاً ، وليس للإنسان أن يقول غير ذلك (أأنتم أعلم أم الله) وإذا قال الله سبحانه وتعالى بأنه خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها أو جعل منها زوجها .

فالنفس الواحدة أو الإنسان الأول هو آدم عليه السلام ، ومن آدم خلقت حواء .

---

(١) الكهف ٥١ .

وإذا تأملنا قوله تعالى : ﴿**خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها**﴾ ﴿**خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها**﴾ ﴿**خلق لكم من أنفسكم أزواجاً**﴾ ﴿**خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها**﴾ .

فإننا نجد أن لفظ خلق وجعل بمعنى واحد ، لأن خلق الشىء هو إحداثه وإبرازه من العدم إلى الوجود ، وجعل أى صير . كما أن حرف العطف الذى جاء بين خلق هذه النفس وخلق الزوج يقتضى تأخر ما بعده عما قبله .

أى حينما يقول الله عزّ وجلّ : ﴿**خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها**﴾ و﴿**خلق لكم من أنفسكم أزواجاً**﴾ فإن معنى ذلك أن الله عزّ وجلّ يخبرنا بأنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام فلم يكن حينئذ فى الوجود إلّا نفس واحدة من البشر .

وبعد ذلك خلق الله من نفس آدم عليه السلام زوجه حواء .

وعلى هذا الأساس فإن ما يقوله البعض [١] بأن آدم لم يأت من تراب مباشرة ، وإنما جاء من حواء بالنفخ كما جاء عيسى ابن مريم . ويقول من قال بهذا الرأى معلقاً على رأيه بأنه ليس لديه من العلم بالأسرار ما يؤهله للفصل فى هذه القضية ، بل ولا يظن أن أحداً يملك القول الفصل فيه ومع أن هذا الرأى قد استنبط بطريق الخطأ النتائج التى توصل إليها من القرآن الكريم فيقول بأن النفس الواحدة التى وردت فى قوله تعالى : ﴿**هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً**

(١) نشر هذا الموضوع بمجلة صباح الخير بتاريخ ٧٦/٩/٩ بعنوان هل كانت حواء أمّاً لآدم ؟

خفيفاً﴾[1] هى حواء ، وأن الزوج هو آدم ، قياساً على قوله تعالى : **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾**[2]

ولكى نعلم بأن كلمة الزوج فى (زوجها) ليس المقصود به آدم ، ولكن المقصود بهذه الكلمة هى حواء .

فإن كلمة زوج تطلق على كل إثنين من أى شىء . كما تطلق على الرجل أو المرأة المتزوجين .

وكلمة زوَّج الشىء بالشىء أى خلطه به وقرنه به . فالزواج عملية ربط وضم ومزج ووصل بين رجل وامرأة ، فيصير كل منهما زوج .

وقلنا بأن كلمة زوج تطلق على الرجل أو المرأة المتزوجين ، أى تطلق على الفرد الذى له قرين ، ولولا هذا القرين ما أطلق على أحدهما هذا اللفظ ، وما استحق أحدهما أن يطلق عليه هذا الاسم .

ولو لا أن مسئوليتهما واحدة ومتضامنين فيها ، ما أطلق على كل منهما هذا الاسم ، باعتباره مكملاً لصاحبه فلم يعد فرداً واحداً .

وليكن معلوماً أن كلمة زوجة فى لغة العرب ركيكة وجمعها زوجات ، أما كلمة زوج فصحيحة وجمعها أزواج . أليس الله سبحانه وتعالى هو القائل : **﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾**[3] **﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾**[4] **﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾**[5]

---

(١) الأعراف ١٨٩ . (٣) البقرة ٣٥ . (٥) طه ١١٧

(٢) آل عمران ٥٩ . (٤) الأعراف ١٩ .

هذا علاوة على الآيات السابق ذكرها لعدم التكرار (النساء ١ ، الأعراف ١٨٩ ، الروم ٢١ ، الزمر ٦) .

فإذا كان الزوج هو آدم وليست حواء ، فكيف يخاطب الله سبحانه وتعالى آدم ويناديه بقوله : **﴿يا آدم أسكن أنت وزوجك﴾** ؟

ولكي أؤكد لك أخي القارىء بطلان ما قاله الأستاذ الكاتب في مقاله : فإن جمع زوجة كما ذكرت زوجات ومثناها زوجتان ولكننا نجد أن المثنى قد جاء بغير ذلك في القرآن الكريم كما في قوله تعالى : **﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾** (٤) بمعنى كل ما له زوج .

كما جاء الجمع في قوله تعالى : **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾** (٥) فلم يقل الحق سبحانه زوجاته .

وقال سبحانه عن الزوجات من الحور العين **﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾** (٦) .

وبالنسبة للذين يتوفون ويتركون زوجاتهم من بعدهم ، يقول الله تعالى : **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن﴾** (٧) .

وقد سمى الله سبحانه وتعالى الرجل زوجاً . في قوله سبحانه وتعالى :

---

(٤) الذاريات ٤٩ .
(٥) الأحزاب ٦ .
(٦) البقرة ٢٥ .
(٧) البقرة ٢٣٤ .

﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ [1]

بعد هذا العرض يتضح لنا أن لفظ زوج يطلق على كل من له قرين سواء ذكر أو أنثى . وعلى هذا الأساس تكون النفس الواحدة هى نفس آدم وليست حواء ، والزوج هى حواء وليس آدم .

وأن تفسير من قال بغير ذلك فيه تحميل للنص فوق ما يحتمل ، ولما كان لا إجتهاد مع وجود نص قرآنى أو فى السنة النبوية ، والنص القرآنى والحديث النبوى قد أوضحا بجلاء لا غموض فيه هذه القضية ، فليس لأحد أن يخرج عن مفهوم النص .

إذ أن الحقيقة واضحة بلا لبس ولا إبهام ، النفس الواحدة هى نفس آدم عليه السلام حيث أنه أول ما خلق الله عزّ وجلّ لأننا إذا عدنا إلى قصة الخلق من واقع القرآن الكريم ، نجد أن الخالق عزّ وجلّ قد بدأ عرض الموضوع على الملائكة بأنه سبحانه : سوف يخلق من الطين بشراً ليكون خليفة فى الأرض ، فإذا سواه ونفخ فيه من روحه ، فما عليهم إلّا أن يقعوا له ساجدين . فهل جاء الأخبار للملائكة عند بدء خلق الإنسان الأول بصيغة المذكر أم بصيغة المؤنث ؟ طبعاً بصيغة المذكر ، فيكون أول ما خلق الله عزّ وجلّ هو آدم عليه السلام وليست حواء .

كما أن هنالك ملحوظة فى غاية من الأهمية وهى : أننا حينما نتلو سور القرآن الكريم وبخاصة السور التى ذكر فيها خلق آدم عليه السلام ، فإننا نجد أن آيات القرآن الكريم قد ذكرت إسم آدم فقط دون أن يذكر بها إسم حواء ولكنها حينما تتعرض لذكر حواء ، فإننا

---

(١) البقرة ٢٣٠ .

نجدها تذكرها بلفظ زوجك ، وبعد أن يتقدم عليها اسم آدم يضاف إليه لفظ وزوجك . أى أن اسم آدم يأتى دائماً متقدماً على لفظ زوجك .

فتكون آدم مضاف وزوجه أو وزوجك مضاف إليه وهذا مؤشر آخر على أن آدم قد خلق أولاً ، وأضيف إليه بعد ذلك زوجه التى خلقت منه .

أما آية الأعراف التى يستندون إليها فى قولهم هذا فليس فيها غموض بل إنها واضحة كل الوضوح ، إن الله عزّ وجلّ يقول فيها ﴿**هو الذى خلقكم من نفس واحدة** (أى آدم) **وجعل منها زوجها** (أى خلق من آدم حواء) **ليسكن إليها** ، **فلما تغشاها** (أى جامعها آدم) **حملت حملاً خفيفاً** (أى النطفة فى بداية الحمل) **فمرت به** (أى لم تستشعر ثقلاً) فلما أثقلت (أى كبر الجنين فى بطنها)﴾ . **فهل** فى هذا النص ما يشير إلى أن حواء هى النفس وأن آدم هو الزوج ؟ إرجعوا إلى قول الخالق ولا تتبعوا قول المخلوق .

الفصل الثانى

وماذا بعد أن خلق الله آدم ؟

قلنا بأنه قبل أنّ يخلق الله عزّ وجلّ آدم أبوالبشرية فقد تم عقد مؤتمر ملائكى فى الملأ الأعلى فى إحتفال مهيب لإبراز مكانة هذا الإنسان ، وإبرام عقد إستخلافه فى الأرض .

وإذا ما نظرنا إلى هذا الحوار القصصي الشيق بين الله عزّ وجلّ وبين ملائكته الأطهار ، فإننا نجده حواراً له مغزى عميقاً ، ينبغى لكل إنسان فطن أن يستشف ما وراءه من حكم وأسرار . وقد أوضحنا جانباً من هذا الحوار الذى شهدته السماوات العلا والملائكة الأبرار ، وصغت إليه السماوات والأرض وما فيهن ، ونحن نقر ونشهد بأن هذا حق وصدق ، لأنه قد بلغنا عن الله عزّ وجلّ ، الذى أخبرنا فى كتابه الكريم بأنه سبحانه قد بدأ هذا الحوار بقوله سبحانه : **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ ﴿إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾** .

ولما كان القرار الإلهى قد بدأ بقوله سبحانه (إنى) وفى هذا دلالة تأكيدية ، فحرف أن هو حرف توكيد ، والياء ضمير المتكلم الدال على الذات العلية ، ومادام المتكلم هو الله عزّ وجلّ ، فإن كلامه سبحانه لا يحتاج إلى تأكيد ، لأنه هو القول الحق الذى لا مرية فيه .

ولكنه سبحانه أراد أن يوثق خلقه لهذا الإنسان وجعله خليفة فى الأرض بكل وسائل التوكيد . لئلا يتكبر عليه أحد فيما بعد . وبهذا الأسلوب الموثق والمؤكد من الله سبحانه وتعالى ، وبخلق الله سبحانه

وتعالى له بيديه الكريمتين ، وبهذه الخلافة التى كرمه الله تعالى بها ، تتضح مكانة هذا الإنسان فى مواجهة الملائكة ، وهم العنصر المنافس للإنسان فى هذا المركز . فهو خليفة الله فى الأرض ، فلا يخضع إلّا لسلطان من أعطاه هذه الخلافة ، ولا يذل إلّا لعظمته ، ولا يخرج عن تعاليمه ، وفيما عدا ذلك فهو سيد على كل ما عداه من مخلوقات ، تخضع له ولا يخضع لها ويسيطر عليها ولا تسيطر عليه **﴿وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** (١) والذى يسخر الله سبحانه وتعالى له ما فى السماوات وما فى الأرض من مخلوقات ، لا بد وأن يكون أغلى وأثمن وأرقى من كل هذه المخلوقات .

وجدير بك أخى القارىء أن تتذكر دائماً هذه القضية وما يدور حولها ، وأن تسائل نفسك : ممن صدر هذا القرار ، وأين صدر ، وأمام من ؟ وهل يملك أحد أن يقرر ذلك الأمر الخطير إلّا من يملك على إتخاذ القرار فى الخلق والإيجاد ؟

إنه سبحانه هو الذى خلق الماء ، وخلق الملائكة ، وخلق العرش ، وخلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما ، وخلق الجن . وهو وحده الذى يعلم خصائص مخلوقاته ، وما يصلح من خلقه لحمل الأمانة وما لم يصلح .

وقد خلق الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض .

حينئذ لا بد وأن تعلم بأن الله عزّ وجلّ قد وضعك فى منصب خطير وعظيم ، ووضع فى يدك زمام الخلافة ثم ناط بك تكاليفها وأعباءها ، وأمرك أن تتلقى أوامره ونواهيه بكل خضوع وتسليم ،

---

(١) الجاثية ١٣ .

وذلك هو مضمون الاسلام . أى إسلام القلب لخالقه ، واسلام النفس لبارئها ، وبهذا المضمون بعث الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله . وقلت بأن الملائكة هم العنصر المنافس للإنسان فى هذه الخلافة لأنهم كانوا فى حرص على إنتزاع هذه الخلافة لأنفسهم . عندما أصدر الله سبحانه وتعالى قراره فى حضورهم بقوله سبحانه ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ ﴿**إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون**﴾وتتضح تلك المنافسة فى قولهم ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ فقد أوضحوا المساوىء والآثام التى سوف يقترفها آدم وذريته ، ظناً منهم أن هذا يناقض إبرام عقد الاستخلاف فى الأرض ، لهذا نجدهم يقولون بعد ذلك ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ أى أنهم تمنوا أن تكون لهم هذه الخلافة فى الأرض ، حيث أنهم فى طاعة دائمة لله سبحانه وتعالى .

وإذا ما تأملنا خلق الإنسان ، وخلق الملائكة ، وخلق الجان ، لوجدنا أن الإنسان فيه إزدواجية التركيب ، أى قد خلقه الله عزّ وجلّ من مادة وطاقة أى من جسم وروح . يقول الله تعالى : ﴿**ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون**﴾[١]

ولماذا خلقنا الله عزّ وجلّ من إزدواجية فى التركيب ، وللرد على هذا السؤال فإننا نجد هذا الرد الحاسم من الخالق عزّ وجلّ فى قوله :

---

(١) السجدة ٦ : ٩ .

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾(٢)

أما الملائكة : فقد خلقهم الله عزّ وجلّ من نور ، وقال الله عزّ وجلّ عنهم : **﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾**(٣) **﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**(٤) .

أما الجان : فقد خلقهم الله عزّ وجلّ من النار .

وعلى هذا فيكون الإنسان قد خلقه الله عزّ وجلّ من جسم وروح . وهذا التكوين الإلهى للإنسان قائم على القصد والغاية ، ألا وهى الخلافة فى الأرض .

فأعطاه الله سبحانه وتعالى المقومات والمميزات والمؤهلات التى يتمكن بها من تحقيق تلك الخلافة والاضطلاع بمسئولياته ، ويتضح ذلك فى قوله تعالى : **﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾** وقوله سبحانه **﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾**(٥) .

ولما كان الله عزّ وجلّ قد خلق الإنسان من تراب الأرض ، فقد أعاد الجزء إلى الكل . قال رسول الله ﷺ **(إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ...)** الحديث وجعله يتفاعل معها بالمصابرة والمثابرة والمجاهدة ، وتتصارع قواه فى تعميرها ، مما يجعله كائناً مكافحاً .

كما تتصارع قواه فى تعميرها ، مما يجعله كائناً مكافحاً .

---

(٢) الإنسان ٢ .
(٣) الأنبياء ١٩ ـ ٢٠ .
(٤) التحريم ٦ .
(٥) البلد ٤ .

كما تتصارع روحه مع الخير ومع الشر ، فالملائكة تتنزل بالخير له ، والشيطان يحاول أن يغويه ويضله عن الحق ، ولهذا كان فى صراع دائم جسداً وروحاً .

أما الملائكة فلأن طبيعتهم نورانية ، وهم مخلوقون من عنصر الطاقة فقط ، فهم لا يتحملون هذا الصراع ، ولا يتحملون أعباء الجهاد ، لذا فهم فى طاعة دائمة لله عزّ وجلّ .

وقلنا بأن خالق الإنسان وخالق الملائكة هو وحده الذى يعلم خصائص كل منهما ، وهو وحده الذى هدى كل مخلوق إلى ما خلقه له .

فقد خلق الملائكة وجعلهم للملأ الأعلى ، فلا ينازعهم فى ذلك بنو آدم . ولما كان علم الله أنفذ ، فقد جاء الرد على الملائكة بقوله سبحانه : ﴿**إنى أعلم ما لا تعلمون**﴾ .

وقلنا بأن الملائكة قد علمت بما سيكون عليه بنو آدم من الافساد وسفك الدماء ، بسبب إفساد الجن وسفكهم الدماء بعد أن أسكنوا الأرض ، وعبدوا ربهم دهراً طويلاً فيها فأرسل الله جنداً من هؤلاء الملائكة فطردوهم إلى البحور والجبال . وربما يكون ذلك إلهام من الله تعالى لهم لتكون القضية واضحة ، وحتى يتسنى لهم أن يكون الحوار فى المؤتمر على أساس من المعرفة . وعندئذ أراد الله سبحانه وتعالى أن يصور لهم قدرة آدم على الأشياء ، وطلب منهم الإخبار بها ، فعجزوا عما يقدر عليه الإنسان ، فعلموا أنهم لا يستطيعون الخلافة فى الأرض ، التى أختيرلها هذا النوع القدير على معرفة هذه الخصائص والانتفاع بها . وفى هذا يقول الله عزّ وجلّ :

﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء**

هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [1] .

فلقد زود الله سبحانه وتعالى آدم بالمعرفة بكل ما يحتاجه لإنجاز مهمته . وعلمه كيف يتفاهم مع أبنائه ، وكيف يتعامل مع الأشياء من حوله . لأنه سبحانه لما خلقه كانت الأرض حافلة بأصناف النبات والطير والدواب ، فعلمه سبحانه أسماءها وخواصها وسر تذليلها والانتفاع بها ، ليكون على علم بكل شيء عندما يصدر له الأمر الإلهى بالهبوط إلى الأرض .

ولكن قد يقول قائل : كيف علم الله عزّ وجلّ آدم ؟

أقول لقد علم الله سبحانه وتعالى آدم ، وعلمنا نحن بنو آدم حيث قال سبحانه : **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** [2] كما قال سبحانه عن تعليمه لكل إنسان : **﴿الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان﴾** [3] .

﴿إقرأ بإسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [4] .

كما علم رسولنا ﷺ ما لم يكن يعلم . فقال سبحانه : **﴿وأنزل**

---

(١) البقرة ٣١ : ٣٣ .
(٢) البقرة ٣١ .
(٣) الرحمن ١ : ٤ .
(٤) العلق ١ : ٥ .

عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ [1] .

فالكلمات التى جاءت بتلك الآيات : علَّم ، علَّمه ، يعلم ، علَّمك ، تعلم . تقتضى وجود عالم ومتعلم .

فالعالم هو الله جلّ جلاله ، والمتعلم هو الإنسان المتلقى عن الله عزّ وجلّ . وأصل العلم هو إلهام من الله سبحانه وتعالى ، وبطريقة لا يعلمها إلّا هو جلّ جلاله : **﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلّا أولوا الألباب﴾** [2] .

ولهذا قالت الملائكة : **﴿سبحانك لا علم لنا إلّا ما علمتنا﴾** ولتأكيد أحقية آدم فى الخلافة ، وليحقق الله سبحانه وتعالى للملائكة قوله جلّ جلاله **﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾** فقد حدث ما يكون بأشبه مسابقة علمية بين الإنسان الذى قرر الحق سبحانه وتعالى له الخلافة فى الأرض ، وبين الملائكة الذين تمنوا أن تكون لهم هذه الخلافة .

فعندما عُرضت على آدم المسميات ، فقد عرفها بإلهام من العليم الخبير ، وعندما عرضت على الملائكة فلم يعرفونها ، ليخرج الإنسان منتصراً فى النهاية وتثبت له الأحقية بالخلافة وقد سبق أن أوضحنا بأن خالق الإنسان وخالق الملائكة هو الله سبحانه وتعالى ، وقد زود كل منهما بالخصائص التى تعينه على المهمة التى خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها .

فآدم عليه السلام لو لم يزوده الله سبحانه وتعالى بهذه المعرفة ،

---

(١) النساء ١١٣ .　　(٢) البقرة ٢٦٩ .

لكانت حياته على الأرض مستحيلة ، ولهذا مكنه الله سبحانه وتعالى من العلم دون الملائكة ، وليس هذا إنقاصاً من قدر الملائكة . ولكن سبحانه أدار معهم هذا الحوار وتلك المسابقة ، حتى إذا ما علموا بأن آدم عليه السلام قد علم ما لا يعلمونه ، إعترفوا إعترافاً مطلقاً بعلم الله المطلق ، حيث سبق أن قال لهم الله عزّ وجلّ : **﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾** .

عندئذ قالوا مذعنين مستسلمين لعلم الله سبحانه وتعالى **﴿سبحانك لا علم لنا إلّا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم﴾** (١) .

وبعد هذا الاستسلام والإذعان لعلم الله سبحانه وتعالى ، وإيمانهم بحكمته جلّ جلاله ، واخبار آدم لهم بالأسماء التى عجزوا عن معرفتها ، يقول الله سبحانه وتعالى لهم : **﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وماكنتم تكتمون﴾** (٢) .

ومن هنا عرفوا حقيقة هذا المخلوق الجديد ، واطمأنوا إلى صنع الله ، وأن المسألة أبعد من أن تقاس بمادة الخلق أو بالعبادات . وأن لآدم صلاحيات أهلته ليكون خليفة فى الأرض .

وقلنا بأن الله عزّ وجلّ قد أخبرهم عندما قضت مشيئته سبحانه بأن يخلق بشراً من طين ، أن يسجدوا له إذا سواه ونفخ فيه من روحه **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾** (٣) .

---

(١) البقرة ٣٢ . (٢) البقرة ٣٣ . (٣) الحجر ٢٨ ، ٢٩ .

ولهذا بعد أن خلقه الله عزّ وجلّ وسواه ونفخ فيه من روحه صدر لهم الأمر الإلهى ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾ (١) فلا بد وأن ينقادوا لما أمر الله عزّ وجلّ ، ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلّا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**﴾ (٢) فسجود الملائكة لآدم هو سجود تكريم وتفضيل وليس سجود عبادة ، لأن السجود لا يكون إلّا لله وحده والعبادة لا تكون إلّا لله وحده .

ولكن الذى أمر بالسجود له هو الله ، فيكون سجودهم له هو الله عزّ وجلّ ، لأنه تنفيذ لأمر الله تعالى . كما أن السجود لآدم معناه الاعتراف العملى لأحقيته بالخلافة ، ودليل على اقتناعهم بإبرام عقد الخلافة له : وعلمهم بأن هذا المخلوق يملك من حقيقة الله ، ومن روح الله ، ومن علم الله ، ما لا يملكه خلق آخر من خلق الله تعالى .

وقد ذكرت بأن المسابقة العلمية أو الحوار العلمى بين آدم والملائكة ، إنما تم ليخرج الإنسان منتصراً فى النهاية وتثبت له الأحقية فى الخلافة . وكان هذا القول فى إطار القاعدة والمبدأ العام الذى قرره الله سبحانه وتعالى عندما قال سبحانه : ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم**﴾ (٣)

فلقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان بأن منحه الاستعداد العقلى والنفسى والروحانى للتلقى والتعلم والتطور والتقدم .

ولذا فقد أعطاه الله حرية الاختيار ، فإذا التزم بمنهج الله تعالى

---

(١) البقرة ٣٤ .

(٢) الحجر ٣٠ ، ٣١ .

(٣) الإسراء ٧٠ .

وسار على هديه ، ولا يميل عنه يمنة ولا يسرة ، كان أفضل من الملائكة ، ولكنه عندما يضل أو ينحرف عن منهج الله تعالى ويسير فى ركب هواه وشيطانه فإنه يكون أحط من الحيوان . فإذا ما وعى الإنسان حقيقة أمره ، واستشعر قدسية خلقه وتكريمه ، كان أهلاً لتحمل المسئولية التى خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها .

أما إبليس فقد أبى السجود واستكبر أن يسجد لآدم . أن الملائكة وما يملكون من قوة ومن شأن ومن رضوان الله تعالى كانوا من الساجدين لآدم ، استجابة لأمر الله لهم .

أما إبليس فقد أعلن استنكاره بلا خجل أو حياء من الله سبحانه وتعالى ، فحينما أبى السجود ، قال له الله عزّ وجلّ : ﴿**ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**﴾ [1] .

﴿**قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون**﴾ [2] .

حينئذ طرده الله من الجنة ، فطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم الدين ، وتوعد آدم الذى طرد بسببه من الجنة بأن يغوى ذريته ، ويفسدهم فى طاعتهم لله عزّ وجلّ ، وأن يسعى فى أن يجعل أكثرهم غير شاكرين لله تعالى .

﴿**قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم**

---

(١) الأعراف ١٢ .

(٢) الحجر ٣٢ ، ٣٣ .

الوقت المعلوم. قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلّا عبادك منهم المخلصين﴾[٣].

(٣) الحجر ٣٤ : ٤٠.

كيف ومتى بدأ الصراع بين إبليس وآدم

إن الله عزّ وجلّ قد خلق الإنسان ليكون محل إبتلاء . لذا يقول الخالق جلّ وعلا : ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه**﴾ [(١)] ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى كبد**﴾ [(٢)] لأنه بالإبتلاء : يميز الله الخبيث من الطيب ، وبالابتلاء ينصقل الإنسان فتتقدم الحياة ، وينتقل الإنسان من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر للإيمان ، ومن الضعف إلى القوة .

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلق آدم ، ويخلق من ضلعه زوجاً لتكون سكناً وأنيساً له فى الجنة ، ثم مكنهما من المتعة المادية بعد متعة المودة .

ولحكمة بالغة أسكنهما الجنة وأمرهما أن يأكلا من خيراتها رغداً ، ثم شاءت الإرادة الإلهية لهما أن يتدربا على تلقى الأوامر والنواه فقال سبحانه : ﴿**يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾ [(٣)] .

ومن هذا السياق يتضح أن الله سبحانه وتعالى أصدر لهما ثلاث أوامر :

١ - أن يسكنا الجنة ﴿**يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة**﴾ .

٢ - أن يأكلا من الجنة حيث أرادا ﴿**وكلا منها حيث شئتما**﴾ .

(١) الإنسان ٢ .

(٢) البلد ٤ .

(٣) البقرة ٣٥ .

٣ـ ألا يقربا شجرة معينة ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة**﴾ .

ثم ترك لهما حرية الاختيار فى تنفيذ الأمر الثانى والثالث ، ولكنه سبحانه جعل لهذه الحرية حدود ، فأوضح لهما نتيجة تجاوز هذه الحدود ، ومخالفة أمره سبحانه فقال : ﴿**فتكونا من الظالمين**﴾ أى أن فعلتما ما نهاكما الله سبحانه وتعالى عنه فسوف تكونا من الظالمين لأنفسكما ، لخروجكما عن أمر الله سبحانه وتعالى وإذا ما تدبرنا دقة الأداء التكليفى لهما من رب العزة ، لوجدنا أنه سبحانه يقول لهما : ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة**﴾ ولم يقل لهما ولا تأكلا من هذه الشجرة .

وهذا هو مسلك القرآن الكريم معنا نحن بني آدم ، فنجد عندما يأتى لنا الأمر بعدم فعل أى معصية ، فإنه سبحانه يصدر لنا الأمر بقوله تعالى : إعتزلوا أو لا تتبعوا أو تقربوا . كما فى قوله تعالى : ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدوٌ مبين**﴾[(١)] وقوله سبحانه : ﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾[(٢)] .

وما ذلك إلّا لأن المرب العظيم يريد أن يجنبنا حتى مجال الاقتراب من وقوع المعاصى ، لأن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه . فالإنسان بمجرد أن يقترب ممن يقومون بفعل المعاصى ، أو حتى بمجرد تواجده فى المكان الذى ترتكب فيه المعاصى ، فإنه يوجد فى مجال يمكن للنفس والشيطان أن يتسلط عليه ، فيوقعانه فى المعصية . ولذا نجد أن رب العزة جلّ فى علاه يريد أن يحمى النفس

---

(١) البقرة ١٦٨ .

(٢) البقرة ٢٢٢ .

البشرية من الوقوع فى المعصية ، فيأمرهم بعدم الاقتراب من فاعليها أو من مكان تواجدها . فيقول سبحانه :

﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾ [1] أى تلك هى حدود الله التى شرعها لكم فلا تقربوها وحافظوا عليها .

وقد سماها الله سبحانه وتعالى حدود ، لأنها تعتبر الحدود الفاصلة التى يجب عدم تجاوزها خشية إنتهاك ما حرم الله سبحانه وتعالى . ويقول رسول الله ﷺ : (**ألا وان لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .**

كما أوضح لنا الله سبحانه وتعالى فى معرض الحديث عن آدم عليه السلام لفتة كريمة كى نعيها ونحذر منها ، فأوضح سبحانه العوامل المؤدية إلى المعصية ، وبيّن لنا أنها تتمثل فى أمرين :

١ ـ اغراء الشيطان : وذلك حين قال سبحانه : ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ .

٢ ـ شهوة النفس : وذلك حين قال سبحانه : ﴿**فلما ذاقا الشجرة**﴾ .

وكأنه سبحانه يوضح لنا بأن سبب وقوع آدم وحواء فى المخالفة هما هذان الأمران : إغراء الشيطان وهوى النفس . لكى نتنبه لهما جيداً ، ونحذر منهما ، حتى لا نقع فى معصيته سبحانه ومخالفة أمره كما وقع آدم وحواء .

ومن فضل الله تعالى على آدم وذريته أن خلقهم فى هذه الدنيا وجعلها دار إبتلاء ، ثم جعل هناك قاعدة هامة تنبع من قاعدة الابتلاء ، وهى العفو والصفح بعد التوبة والرجوع إلى الله وأثناء

(١) البقرة ١٨٧ .

عملية التدريب قد يخطىء البعض ، فيتم تصويب هذا الخطأ لأن المخطىء إنما يحتاج إلى توجيه ونصح وإرشاد ، حتى يصحح الخطأ الذى وقع فيه .

فعندما أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لآدم سجدوا ، أما إبليس فقد أبى واستكبر أن يسجد كما أمره الله . فجاء النصح والارشاد والتوجيه لآدم من رب العزة بأن يحذر من هذا الشيطان الرجيم : ﴿**يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**﴾[1] ثم ضمن له إن سار على المنهج والعهد الذى أعطاه الله إياه ، بالا يجوع فى الجنة ولا يعرى ، ولا يعطش فيها ، ولا يتأثر بحر شمس الضحى ، لعدم وجود شمس فى الجنة . فقال سبحانه : ﴿**إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى**﴾[2] ولكن إبليس أراد أن يثأر لهزيمته الأولى ، عندما أمره الله سبحانه وتعالى بالسجود لآدم فأبى ، فكان مصيره الطرد من رحمة الله ، واللعنة إلى يوم الدين . ﴿**قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين**﴾[3] .

ومن هنا بدأ الصراع بين صريح الأمر الإلهى بالنهى عن الأكل من الشجرة ، وبين إغراء الشيطان لهما بضرورة مخالفة أمر الله والأكل من الشجرة . فوسوس لهما الشيطان ، وحاول إغراءهما بشتى الوسائل ، ليخرجهما عن براءة الطهر ونقاء العصمة .

ومن طبيعة إبليس أنه حينما يريد أن يوقع ابن آدم فى المعصية ،

---

(١) طه ١١٨ .

(٢) طه ١١٩ .

(٣) الحجر ٣٤ ، ٣٥ .

فإنه يأتيه عالماً بنقط الضعف فيه ، وذلك حتي يتمكن من وقوعه فى المحظور ، ولذا فقد جاء إلى آدم متسائلاً ومستفسراً بقوله لهما **﴿مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما من الناصحين﴾** [1]

لقد بدأ إبليس صراعه مع آدم وحواء ليخرجهما من الجنة كما خرج هو قبل ذلك ، فزعم لهما أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يحرمهما من الأكل من الشجرة لكى لا يظفرا بمكانة الملائكة والحياة الأبدية ، ولما لم يستجيبا لوسوسته أقسم لهما بالله بأنه صادق ولا يريد إلّا نصحهما وارشادهما إلى الخير.

ومن الطبيعى أن آدم وحواء كانا على سجيتهما ، فلم يعتقدان أن هناك من يجروء أن يقسم بذات الله كذباً ، فصدقاه . فوقعا فى الشرك ونسيا تحذير الله لهما ، عندما رفض إبليس السجود لآدم **﴿يا آدم إن هذا عدوٌ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾** ولهذا يقول الله سبحانه **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً﴾** [2] .

نسى آدم هذا التحذير من الله سبحانه وتعالى عندما قال له ألّا يأكل من الشجرة وأن يحترس من إغواء إبليس له وخداعه . ولكن أمام صراع إبليس معهما ، ومحاولته إقناعهما ، عن طريق النصح والارشاد ، وأقسامه لهما على إخلاصه وصدقه ، ولأنهما إعتقدا ذلك ، فصدقاه **﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾** [3] .

---

(١) الأعراف ٢٠ ـ ٢١ .　(٢) طه ١١٥ .　(٣) الأعراف ٢٢ .

وكان هذا أول صراع بين إبليس وآدم عليه السلام ، وسقط آدم فى الاختبار ، ونجح إبليس فى صراعه معه .

ولكن نجاح إبليس وفرحه بانتصاره على آدم لم يدم .

فلقد سببت معصية آدم وحواء لأمر الله عزّ وجلّ ، بقيامهما بالأكل من الشجرة التى نهاهما الله سبحانه وتعالى عن الاقتراب منها ، أن إنكشفت سوآتهما جزاء وعقاباً لهما .

فحين أمرهما الله سبحانه وتعالى بأن يسكنا ـ الجنة ويأكلا من ثمارها حيث أرادا ، فقد حذرهما من الاقتراب من هذه الشجرة ، وأوضح لهما نتيجة مخالفتهما لأمره سبحانه ، بأنهما سيكونان ظالمين لأنفسهما ، بفعلهما ما يعاقبان عليه .

ولذا مجرد أن ذاقا ثمار الشجرة التى نهاهما الله سبحانه وتعالى عنها ، ظهرت لكل منهما سوأته وسوأة صاحبه ، فى حين أنها كانت مواراة عنهما . وهناك أقوال عن اللباس الذى كان يسترهما ، فمن قائل أنه كان لباس من الظفر ، أو أنه حجاب من نور ، أو أن الشعر كان كاسياً لهما . ولكن الأقرب إلى العقل كما أوضح لنا القرآن الكريم بأن سبب ظهور عوراتهما لهما ، كان سببه الأكل من الشجرة التى نهيا عن الأكل منها . قال تعالى : ﴿**فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما**﴾[1] ﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما**﴾[2]

إذن كان تحذير الله سبحانه وتعالى لهما بعدم الاقتراب من هذه الشجرة لحكمة ، وقد أشار الله لهما على هذه الشجرة ليعرفاها جيداً ويبتعدا عنها ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾[3] .

---

(١) الأعراف ٢٢ . (٢) الحجر ١٢١ . (٣) البقرة ٣٥ .

والذى يعلم حقيقة ما خلق هو الله جل جلاله ، فحينما كانا يأكلان مما أمرهما الله أن يأكلا منه ، فقد كانا يأكلان بأمر الله وبمواصفات الله ، ولهذا كانا يأخذان ما يأكلانه بقدر حاجتهما ، دون أن تكون هناك فضلات ولكنهما حينما أزلها الشيطان وأوقعهما فى المخالفة ، فقد أكلا بمواصفات الشيطان ، وبالقدر الذى أعطياه لأنفسهما ، فكان أكثر من احتياجات الجسم فلا بد إذن أن تكون هناك فضلات ، وهذه الفضلات يحدث لها فى الأمعاء عملية تخمير ، وينتج عن هذا التخمير وجود الريح الذى يخرج من الإنسان ولا بد للفضلات الزائدة عن حاجة الجسم من مخرج لتخرج منه خارج الجسم ، فللماء الذى يتم شربه مخرج وهو القبل ، وللريح والفضلات من الطعام الذى يؤكل مخرج وهو الدبر . فالسوآتان هما المخرجان (القبل والدبر) ويسميان أيضاً عورتان بسبب ما يخرج منهما من مستقذرات ومن الطبيعى عندما يريد الإنسان أن يتبول أو يتبرز فإن سوأته من الأمام تنكشف له ، وسوأته من الخلف تنكشف لغيره إن لم يكن هناك ساتراً عليها . فحينما أكلا من الشجرة وأرادا أن يخرجا الفضلات من مخارجها ، إسترعى ذلك إنتباههم إليها فرآها . وربما كان تأثير الأكل من الشجرة أن دبت فيهما شهوة التناسل فنبهتهما إلى ما كان قد خفى عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها ، وشعرا بالحاجة إلى ستراها ، فشرعا يضعان عليهما من ورق الجنة ما يسترها .

نعم لقد حل بآدم وزوجه الشقاء بسبب الأكل من الشجرة ، وأخذا يجريان فى الجنة ، فيقول الله سبحانه ﴿**افراراً منى يا آدم ؟**﴾

فيقول فى خجل وحزن ﴿**بل حياء منك يا رب**﴾

عندئذ يسمع النداء الإلهى يتردد فى جنبات الجنة ﴿**ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌ مبين ؟**﴾ [١] إنها تربية مقصودة من الله سبحانه وتعالى ، فحينما وقع آدم فى الخطأ ، صحح الله لهما هذا الخطأ . لأن الوقوع فى المخالفة يقتضى بيانها للمخالف حتى يعرف هذه المخالفة التى وقع فيها ، ثم توضيح السبب الذى أوقعهما فى هذه المخالفة .

فبيان المخالفة اتضح لهما من خلال قوله سبحانه ﴿**ألم أنهكما عن تلكما الشجرة**﴾ وبيان السبب الذى أوقعهما فى المخالفة يتضح فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿**وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين**﴾ .

ولم يتركهما على هذا الحال ، بل جعل لهما توبة وعودة إلى رحابه سبحانه ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات**﴾ [٢] عندئذ ﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾ [٣] فكانت نتيجة هذه التوبة والانابة ﴿**فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم**﴾

فلم يدم فرح إبليس بانتصاره فى صراعه مع آدم وحواء ، ولكن كانت نتيجة عودتهما إلى رحاب ربهما وتوبتهما إلى الله سبحانه وتعالى ، ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿**ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾

ونأخذ من هذا التدريب العملى لأبينا آدم عليه السلام العبرة والعظة ، فلقد تم التدريب لهما على كيفية تلقى الأوامر عن الله عزّ

---

(١) الأعراف ٢٢ .

(٢) البقرة ٣٧ .

(٣) الأعراف ٢٣

وجلّ ، وعندما وقعا فى المخالفة فقد أوضح لهما الله سبحانه وتعالى سبب الوقوع فيها ، وبين لهم ما هى مخالفتهما ، وكيف يتم التصحيح عند الوقوع فى المخالفة . وما ذلك إلّا لكى يستقبلا الخلافة فى الأرض إستقبالاً مدرباً ومهيئاً وما علينا نحن بنو آدم إلّا أن نحذو حذو أبانا آدم ، عندما نقبل على منهج الله ثم نقصر فى شىء ، فقد شرع الله لنا التوبة لنعود إلى رحابه ، وليتوب الله علينا ، مثلنا فى هذا مثل آدم عليه السلام .

فالمقصود من إسكان آدم وحواء الجنة ، وهى جنة التدريب كما قلت ليستقبلا الخلافة فى الأرض استقبالاً مدرباً ، ولأنهما الزوجان اللذان سيتكاثر منهما الوجود البشرى كله ، فيعلم آدم وزوجه ومن يأتى من نسلهما أن من ينحرف ويقع فى مخالفة منهج الله تعالى ، فإنه يكون ظالم لنفسه ، وما عليه إلّا أن يصوب ما وقع فيه . ولما كان أولاد آدم وذريته من صلبه ، فيكون تكوينهم من تكوينه ، واستعدادهم من استعداده ، وما حدث له سوف يحدث لهم .

لذا فقد أراد سبحانه أن يوضح لبنى آدم فى آيات القرآن الكريم ما حدث لأبيهم ، لينبههم أن ما حدث من إبليس لأبيهم سوف يحدث ويتكرر معهم ، وما عاد به أبوهم آدم إلى رحاب ربه عزّ وجلّ ، سوف يكون كذلك وسيلة لهم للعودة إلى رحاب ربهم إن تابوا ورجعوا إليه بعد وقوعهم فى أى مخالفة . وبعد أن يقص المرب الكريم والرءوف الرحيم بعباده على بنى آدم ما وقع لأبيهم ، يعقب ذلك بنداءات كريمة ، فيها توجيه ، وفيها تحذير لهم ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿**يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم**

وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ (١) .

فالله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان من جسم وروح ، ومن حكمته أن جعل لكل منهما لباساً يسترهما ، فأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ، وجعلها تنبت أصنافاً شتى من النباتات كالقطن والكتان ، وغير ذلك مما يتغذى عليه الحيوان الذى نأخذ منه الصوف والوبر ، وغير ذلك مما يكون منه لباسا يستر به سوأته الظاهرة فى الدنيا ، وهذا اللباس يستر الجسد . ثم تفضل علينا بلباس آخر يستر ويحمل فى يوم يكون فيه الإنسان أحوج إلى الستر من أيام الدنيا ، ألا وهو يوم القيامة . يوم إنكشاف كل مستور من أعمالنا .

وهذا لباس يقينا من وساوس الشيطان وهوى النفس . ثم يأتى النداء الذى يليه بالتحذير من فتنة الشيطان واغوائه . لأنه يحاول بشتى الطرق كما فعل مع آدم ، تعرية المؤمن من هذا اللباس ، وهو الإيمان بالله تعالى وتقواه ، ويتعرض له فى كل طريق يسلكه ليبعده عن صراط الله المستقيم .

فما عليكم إلّا أن لا تأبهوا باغوائه ، ولا تنتبهوا إلى وساوسه . وما علينا نحن بنو آدم إذا ما أحسسنا وعلمنا بأننا قد قصرنا أو أخطأنا فى أمر من الأمور ، فإن ذلك يكون إستجابة لنداء الشيطان

---

(١) الأعراف ٢٦ ، ٢٧ .

وهوى النفس ، وعندئذ نستشعر أن هذا الشيطان يحاول تعريتنا من لباس التقوى ، فنسارع إلى ربنا تائبين مستغفرين ، لنظل مستترين بهذا اللباس الإلهى الذى اكرمنا به الله سبحانه وتعالى .

ومن عظمة الله سبحانه وتعاى أنه جل جلاله عندما يرى من عبده إيماناً صادقاً ، يضفى عليه بإرادته الملكوتية والربانية فى كل لحظة قبساً من عطر الجنة ، يجده هذا المؤمن فى قلبه وصدره وجميع جوارحه ، وعندما تنجلى له هذه الحقيقة يناجى ربه بالهامات وكلمات ربما لم تخطر له على بال ، ويبقى على إتصال دائم بربه عزّ وجلّ **﴿إن الذين إتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** (١) .

فتلك هى رعاية الله تعالى لعباده المؤمنين ، وهذه هى عنايته ورعايته سبحانه وتعالى لهم **﴿إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾** (٢) .

---

(١) الأعراف ٢٠١ . (٢) الأعراف ١٩٦ .

وهل كنا نحن فى الجنة مع أبينا آدم؟

إنه لما خلق الله سبحانه وتعالى أبانا آدم عليه السلام وسواه ونفخ فيه من روحه . ثم خلق له حواء من ضلعه . ثم أسكنهما الجنة . وأمرهما أن يتمتعا بخيراتها ما عدا شجرة معينة فى الجنة . ولكن إبليس لعنة الله قد أغراهما بالأكل منها فأكلا . عندئذ عاتبهما ربهما فى ذلك . فتابا إلى الله سبحانه وتعالى . وعفا الله عنهما . ولكن ما حدث هذا قلنا إنه عن قصد وغاية إلهية . ولم يكن هذا هو السبب فى أن آدم وحواء أهبطا إلى الأرض . ولكنها عملية تدريبية لكيفية تلقى الأوامر والنواه . عندما يأتى التكليف من الله سبحانه وتعالى لهما . وكذلك عملية تدريبية لكيفية توقى الشيطان والبعد عن خداعه ووساوسه بدليل أنه قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى آدم . فقد أعلن فى المؤتمر الملائكى قوله سبحانه : ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ وبهذا الإعلان الإلهى تحددت الجهة أو المكان الذى سوف يعيش فيه هذا المخلوق الجديد ، ثم تأتى آية أخرى توضح مهمته ووظيفته التى خلقه الله من أجلها ، فيقول الله جلّ جلاله : ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون**﴾ (١)

وبعد إنتهاء الفترة التدريبية لآدم وحواء ، صدر الأمر الإلهى ﴿**وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين**﴾ (٢) ﴿**قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى**

---

(١) الذاريات ٥٦ .

(٢) البقرة ٣٦ .

الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾[٢] .

لقد صدر الأمر الإلهى بصيغة الجمع ، فلو كان آدم وحواء وحدهما لجاء الأمر بصيغة المثنى ، ولكن هذه الصيغة توضح لنا أن من أمره الله سبحانه وتعالى بالهبوط إلى الأرض عدداً أكبر أو أكثر من إثنين . ولذا يقول بعض المفسرون بأن المقصود بهذا الأمر هم : آدم وحواء وثالثهما إبليس .

ولكن الرأى الراجح عندى والله سبحانه وتعالى أعلم بما قاله ، بأن الأمر كان لآدم وحواء ، وما اشتمل عليه صلب أبينا آدم من ذريته إلى يوم القيامة . بدليل قوله تعالى : **﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾** أى فيها مستقركم ومتاعكم لحين إنتهاء آجالكم ، وفيها تولدون وتعيشون ، وفيها تموتون وتدفنون ، ومنها عند البعث تخرجون للعرض والحساب . وعندما تكلمنا عن خلق آدم عليه السلام قلنا فى الحديث الذى رواه أبوهريرة رضى الله عنه بأن رسول الله ﷺ قال : (**لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال أى رب من هؤلاء ؟**

قال هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال يا رب من هذا ؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، إلى آخر الحديث ...) .

---

(٢) الأعراف ٢٤ ، ٢٥ .

من هذا يتضح أن الله عزّ وجلّ قد أودع فى صلب آدم عليه السلام ماءه المحتوى ذريته . قبل أن يهبط إلى الأرض ، ومسح على ظهره ، فاستخرج من صلبه كل الذرية التى ستخرج من ظهره جيلاً بعد جيل ، ونسلاً بعد نسل ، إلى يوم القيامة . وبعد ذلك تم لنا نحن بنو آدم تدريباً آخراً على كيفية الاعتراف والتصديق بوحدانية الله سبحانه وتعالى وربوبيته ، كى نستقبل نحن كذلك حياتنا على الأرض إستقبالاً مهيئاً ومدرباً . وكما أوضح لنا الله سبحانه وتعالى كيف تم التدريب لآدم وحواء ، فقد أوضح لنا أيضاً نحن ذريتهما ما هو الأقرار والميثاق الذى واثقنا به سبحانه وقتئذ . فقال تعالى :

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾(١)

ويقول أبوجعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى : **﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم .... الآية﴾** قال : **﴿فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة ، فخلقهم وصورهم ثم إستنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم ﴿ألست بربكم قالوا بلى .... الآية﴾** قال فإنى أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم اباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا . إعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب

---

(١) الأعراف ١٧٢ . ١٧٣ .

غيرى ولا تشركوا بى شيئاً ، وإنى سأرسل إليكم رسلى ينذرونكم عهدى وميثاقى ، وأنزل عليكم كتابى .

قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك ، فأقرأوا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك . فقال يا رب لو سويت بين عبادك ، فقال إنى أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذى يقول الله تعالى : **﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾** [١] وهو الذى يقول **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله﴾** [٢] .

ومن الواضح من هذه النصوص أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ من ظهور بنى آدم جميعاً والمتمثلة فى صلب أبينا آدم عليه السلام ذريتهم ، فخلقهم وصورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم **﴿ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا﴾** ولقد أكد سبحانه ذلك حينما سماهم ذرية ، فذرية آدم هم بنوه ، ومادامو قد نطقوا وشهدوا وأقروا فلا بد وأن يكونوا أحياء ولو كانوا كما يفسر البعض بأنهم كالذر ما سماهم الله سبحانه وتعالى ذرية . وإن صح تعبيرهم عن تسميتها ذرات ، فإنها قد حملت أصل الصورة التى سوف يكون عليها كل إنسان ، وقد عرفهم أبوهم آدم من هياكل وصورهم ، مما يدل على أنهم كانوا

---

(١) الأحزاب ٧ . (٢) الروم ٣٠ .

أحياء و إذا كان من المعروف قبل أن يؤخذ أى إقرار أو تعهد على أى إنسان . فلا بد وأن يعلم الشىء المأخوذ عليه هذا الإقرار . و إذا كان لفظ شهدنا يوحى بأن هناك مشاهدة لتلك الحقائق التى سوف يشهدوا ويقروا ويعترفوا بها . فالشهادة من المشاهدة فلابد إذن أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أظهر لهم دلائل ربوبية ، وأوجد لهم عقولاً وبصائر لكى يمكنهم من معرفة هذه الدلائل ، والاستدلال بها على وحدانيته سبحانه وربوبيته .

وبعد أن مكنهم الله سبحانه وتعالى من العلم بالأدلة أخذ عليهم العهد والميثاق . وإنه لقانون إسلامى مقرر قد وضعه الله سبحانه وتعالى لمحاسبة عباده . فقال سبحانه : ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[1] .

أى أنه سبحانه من عدله مع عباده فلن يحاسبهم على أعمالهم التى إرتكبوها فى دنياهم ، ما لم يكن قد أوضح لهم عاقبة هذا العمل ، سواء عن طريق رسله وأنبيائه ، أو كتبه المنزلة عليهم .

وبالقياس على ذلك لا يمكن أن يأخذ الله سبحانه وتعالى العهد والميثاق على بنى آدم ، إلّا بعد أن يكون قد أوضح لهم بالأدلة القاطعة والبرهان على أنه سبحانه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، وبعد أن يوضح لهم ذلك ، فإن من حقه سبحانه أن يأخذ عليهم العهد والميثاق ، ويسألهم : ألست بربكم ؟ فيقولون : نعم يا رب إننا نشهد ونقر ونعترف بأنك سبحانك ربنا و إلهنا ولا رب ولا إله لنا غيرك . ولا يمكن أن يتم ذلك إلّا مع عاقل

---

(١) الإسراء ١٥ .

مدرك لأهمية ما يؤخذ عليه من عهد .

فسبحان الذى خلق ، وجلت قدرة من أخذ علينا الميثاق ، وتبارك من أقررنا وشهدنا له بالربوبية والألوهية والوحدانية . إن من يتصور يوم أن أخذ الله سبحانه وتعالى علينا العهد والميثاق وكيف عرض الله هذه الذرية وما هو كائن منها إلى يوم القيامة على أبيهم آدم ، بهيئتهم وأسمائهم ، وكيف كلمهم الله سبحانه وتعالى ونظر إليهم ، وكيف تم الاعتراف وأخذ الاقرار ، وشهد الجميع بعبوديتهم لله رب العالمين ؟ فى هذا اليوم تكلم الله سبحانه وتعالى فسمعوا له ، وأمرهم فأطاعوا أمره . فلم يكن وقتئذ فى ذرية آدم كافر أو مشرك مطلقاً ، بل قال الجميع : بلى شهدنا .

إن هذا اليوم أشبه بيوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم يكون الناس حفاة عراه . وان تعثرت الألسنة فى النطق نطقت وشهدت الجلود والسمع والأبصار والأفئدة . يوم ينادى المنادى : لمن الملك اليوم ؟ فتكون الإجابة بوحدانية الله سبحانه وتعالى ولهذا كانت بعثة جميع الأنبياء والرسل للتذكير بهذا العهد والميثاق . فقد كان جوهر رسالتهم جميعاً يكمن فى قوله تعالى : **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحى إليه أنه لا إله إلّا أنا فاعبدون﴾**(١)

ولذا كان قول كل رسول : **(يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)**(٢)

---

(١) الأنبياء ٢٥ .

(٢) الأعراف ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ .

فما جاء أحد من هؤلاء الرسل من أولهم إلى آخرهم ليقول لنا بأن لنا إلّهاً ، ولكنهم جاءوا جميعاً ليقولوا لنا : لا إله إلّا الله وحده لا شريك له .

لأن الله سبحانه وتعالى قد فطر جميع عباده من أولهم إلى آخرهم على الاعتراف بألوهيته وربوبيته ، وأخذ عليهم جميعاً العهد والميثاق بذلك ، فقالوا بلى شهدنا .

ولهذا حينما جاء سيدنا محمد ﷺ فقد أمره الله سبحانه وتعالى أن يأخذ الحجة على المشركين ، ليصحح لهم مفهوم توحيد الله وعبادته ، فقال له الله سبحانه وتعالى : ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله**﴾[(٣)] ﴿**ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله**﴾[(٤)]

﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**﴾[(٥)]

لذا نجد أن القرآن الكريم لم ينزل به ولو آية واحدة تثبت وجود الله سبحانه وتعالى ، ولكن آياته جاءت لتهذب الفكرة تجاه الحق سبحانه وتعالى ، لأن الله سبحانه وتعالى كما أوضحت الآيات المذكورة موجود ولا شك فى هذا إطلاقاً : ﴿**ولئن سألتهم .... ليقولن الله**﴾ ولكن المعركة الأساسية التى أرسل الله سبحانه وتعالى رسولنا ﷺ ومن سبقوه هى إزالة الشرك ، والتوجيه إلى عبادة الله الواحد الأحد .

---

(٣) العنكبوت ٦١ .

(٤) العنكبوت ٦٣ .

(٥) الزخرف ٨٧ .

ولذا نجد أن رسول الله ﷺ فى اسلوب دعوته محاولة إثبات وجود الله ، ولم يسأله أحد من صحابته عن وجود الله سبحانه وتعالى . ولم يثبت إطلاقاً أنه ﷺ تحدث مرة عن وجود الله تعالى لا بطريق التبليغ ولا بطريق الإجابة ، لأن الإيمان بالله تعالى موجود منذ الأزل ولكن عبادة آلهة أخرى معه هى التى تحتاج إلى إلغاء .

وإذا ما تأملنا ما جاء بالقرآن الكريم لوجدنا أن آياته قد جاءت لتثبت صفات الله سبحانه وتعالى ، وتضفى على العقل هيمنة الله ، وأنه سبحانه هو الخالق البارىء المصور لكل هذه المخلوقات وإذا ما وعينا أول آيات بدىء بها انزال القرآن الكريم على صفوة الرسل وخاتم الأنبياء ، وبدئت بها الرسالة المحمدية هل جاء بها ما نستدل به على وجود الله سبحانه وتعالى ؟

فإذا كانت مسألة الاستدلال على وجود الله تعالى واردة فى أى آية من القرآن الكريم ، فالأول أنها كان يجب أن تكون فى مبدأ الوحى . فإذا ما قرأنا قوله سبحانه : ﴿**إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1]

فإننا نجدها بعيدة كل البعد عن جو الاستدلال على وجود الله . ولكنها جاءت لتوضح عظمة الله وجلال قدرته ووحدانيته وأن ما يتلى هو قرآن . فلم يضع لنا القرآن الكريم وجود الله تعالى موضع الشك إطلاقاً حتى نحتاج إلى الاستدلال على وجوده سبحانه . لأن الفطرة قد أقرت واعترفت أزلاً بوجوده سبحانه .

---

(١) العلق : ٥ .

وإذا ما وعينا دقة العطاء القرآنى لفظاً ومعنى ، فإننا نجده سبحانه يقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى﴾[٢] ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت .... الآية﴾[٣] ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[٤] .

وكأنه سبحانه يقول : يا من وجدت عندكم الركيزة العقدية ، واعتقدتم وصدقتم وأقررتم وشهدتم بوجودى وقدرتى ها أنذا أشرع لكم . فلو لم يكونوا قد آمنوا مسبقاً ، فلم تصدر التشريعات لهم .

ولذا بعد أن جاء النداء بيا أيها الذين آمنوا ، جاء عقبها مباشرة قوله سبحانه ﴿كتب عليكم﴾ فلو لم يكونوا قد آمنوا واعترفوا بألوهيته وربوبيته سبحانه لما جاء فعل الأمر مبنياً للمجهول بلفظ «كُتِبَ» ولقال الله سبحانه كتب الله عليكم ، أو كتبت أنا الله عليكم . لكى يعرفوا مصدر هذا التشريع ، ولكنهم قد أقروا سلفاً وشهدوا بأن لا إله إلّا الله ، ولذا فهم على علم بمصدر هذا التشريع وعلى ثقة ويقين بأن التقنينات والأوامر الصادرة لهم ، إنما هى تقنين ربانى صادر عن الإرادة الإلهية .

إذن فقد أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض مع ما اشتمل عليه صلبه من ذريته إلى يوم القيامة ، ومعهم الفطرة السليمة .

---

(٢) البقرة ١٧٨ .
(٣) البقرة ١٨٠ .
(٤) البقرة ١٨٣ .

ولماذا إنحرفت العقيدة ؟

أوضحنا فيما سبق أن رسالة الرسل والأنبياء إنما جاءت لتدعو إلى توحيد الله وعبادته ، فلم تنحرف العقيدة إلى إنكار الله سبحانه وتعالى ، ولكنها إنحرفت إلى التعدد ، وكما إنحرفت العقيدة إلى التعدد ، جاء التطهير لهؤلاء الذين انحرفوا بعبادتهم إلى تعدد الآلهة من عند الله سبحانه وتعالى . فتأمل قوله سبحانه : ﴿**ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا هذه القرية . إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها . لننجينه وأهله إلّا امرأته كانت من الغابرين . ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن . إنا منجوك وأهلك إلّا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون . والى مدين اخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت ، إتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت . لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء . وهو العزيز الحكيم . وتلك**

الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون﴾[1]

لقد قلنا بأن جماع الدعوة التى حمل لواءها رسل الله وأنبياءه هى رد البشرية جمعاء إلى عبادة إله واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، ويخضع لشريعته ومنهاجه كل إنسان .

ولم تنحرف أى دعوة عن هذا الخط مطلقاً ، منذ أبينا آدم عليه السلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وكلما إنحرفت الإنسانية عن هذه الفطرة ، وادعت بأن هناك آلهة تعبد من دون الله ، أبادها الله سبحانه وتعالى بقدرته وعظيم سلطانه .

فمنهم من أرسل عليهم ريحاً تحمل الحصباء وتدمرهم كقوم لوط . ومنهم من أهلكهم الله بالزلزلة والصيحة كقوم صالح وقوم شعيب . ومنهم من خسف الله به وبداره الأرض كقارون . ومنهم من أغرقه الله كقوم نوح .

ولذا جاءت الآيات القرآنية توضح لنا النتيجة الحتمية التى وصل إليها من كذبوا الرسل ، ولم يؤمنوا بوحدانية الله عزّ وجلّ ، لنعلم أن الذى أخذ أسلافنا بالسنين ونقص فى الأموال والأولاد والثمرات وخسف بهم الأرض ، ودمرهم بالصيحة والزلازل ، قادر على أن يفعل ذلك معنا إن لم نؤمن بوحدانيته سبحانه .

وإذا ما نظرنا إلى النفس البشرية ، وجدناها تنزع دائماً إلى الميثاق الأكبر الذى أخذه الله سبحانه وتعالى على جميع ذرية آدم . يوم أن سألهم الله سبحانه وتعالى وقال لهم : ﴿**ألست بربكم ؟ قالوا**

---

(١) العنكبوت ٣١ : ٤٣ .

بلى شهدنا﴾ ولأننا على يقين بأن هذه هى ﴿**فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[1]

فإننا نرى أن تعديل هذه الفطرة وتزييفها يحتاج إلى مجهود .

وهذا المجهود لا شك أنه مجهود شيطانى ، لأنه يحوِّل الفطرة التى فطر الله الناس عليها من طريق الرحمن إلى طريق الشيطان ، من طريق النور إلى طريق الظلمات ، من طريق الحق إلى طريق الشك والحيرة والضلال . فالفطرة السليمة هى طريق الله عزّ وجلّ ، أما الشياطين فهم الذين يزينون للناس ما يخرجهم من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر والضلال . ﴿**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾[2] .

ولو تأملنا سياق هذه الآية الكريمة لوجدنا أن الذين آمنوا الذى يتولاهم هو الله جل جلاله ولهذا جاء التعبير بصيغة المفرد ﴿**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم**﴾ مما يدلنا على كمال الوحدانية لله جل جلاله ، فهو سبحانه وحده الذى يتولى أمور عباده المؤمنين ، فيخرجهم بلطفه وتأييده وتوفيقه من ظلمات المعاصى إلى نور الطاعة ، بينما الكفار فإن لهم أولياء عدة فالطاغوت يطلق على المفرد والجمع ، ولفظ الطاغوت من الطغيان وهو مجاوزة الحد فى الشيء . كما يطلق على الشياطين والأصنام وكل ما يخرج الإنسان عن فطرة الله سبحانه

---

(١) الروم ٣٠ .

(٢) البقرة ٢٥٧ .

وتعالى التى فطر الناس عليها . ولذا جاءت بصيغة الجمع ﴿**أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم**﴾ أى أن الشياطين والأصنام وسائر المضللين يخرجون الذين كفروا من النور الفطرى الذى فطرهم الله سبحانه وتعالى عليه ، إلى ظلمات الكفر والتمرد عن الحق . ويوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ (**كل مولود إلّا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه**) فكل مولود يولد وقد فطره الله سبحانه وتعالى على توحيده والاعتراف بألوهيته وربوبيته .

ولكن تزييف وتحريف هذه الفطرة إنما يتم بمعرفة أبوى هذا المولود ، فهما اللذان يحولان تلك الفطرة النقية الطاهرة ، فيهوداه أو يمجساه أو ينصراه ، ولعلم هؤلاء بأن الفطرة التى فطر الله الناس عليها هى توحيد الله وعبادته فإنهم يعملون على تزييف وتحريف هذه الفطرة ، ويجعلون لهم يوماً فى كل عام ، يعمدون فيه إلى أبنائهم الذين يولدون قبل هذا اليوم ، فيهودونهم أو يمجسانهم أو ينصرانهم ، ويجعلون من هذا اليوم عيدا لهم . وهذا دليل واقعى وملموس بأنهم على ثقة بأن المولود من نسلهم بالرغم من أن أبواه يهوديان أو مجوسيان أو نصرانيان ، إلّا أن الفطرة التى فطر الله عليها كل مولود يولد من بنى آدم هى توحيد الله سبحانه وتعالى ، والاعتراف بألوهيته ببيته .

إذن فهم يعلمون حقيقة بأنهم منحرفون ، ويعلمون بأن الله عزّ وجلّ قد أخذ الميثاق على جميع بنى آدم أزلاً بتوحيده والاعتراف بألوهيته وربوبيته .

ولذا فهم يعلمون على نقض هذا العهد وتحريف وتزييف تلك الفطرة . وإننا نرى الكثير من هذه الفرق والحمد لله من يهديه الله ،

فيخرجه من الظلمات إلى النور فيعلن عن إسلامه . تاركاً ما كان عليه آباءه وأجداده .

لأنه قد عاد إلى فطرته الأصيلة التى فطره الله سبحانه وتعالى عليها . وإلى تنفيذ العهد والميثاق الذى أخذه الله عليه . منذ أن كان فى صلب أبيه آدم عليه السلام . وقد عاب الله سبحانه وتعالى على اليهود والنصارى إنحرافهم عن هذه الفطرة فقال سبحانه وتعالى : ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل بل ملة إبراهيم حنيفا . وما كان من المشركين**﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يوضح لنا بأن اليهود والنصارى أرادوا أن يفتنوا المؤمنين الذين إهتدوا إلى دين الحق . فقالت اليهود : كونوا هوداً . وقالت النصارى : كونوا نصارى . فرد الله سبحانه وتعالى على زعمهم هذا آمراً رسوله ﷺ أن يقول لهم : لا نكون كما قلتم . بل نكون على ملة إبراهيم الصحيحة التى لم يلحقها أى تغيير أو تبديل أو تحريف . وما كان من المشركين . وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لليهود والنصارى : إنكم قد أشركتم بالله غيره . ولم يكن إبراهيم مثلكم . ثم يأتى الأمر من الله سبحانه وتعالى لنا نحن أمة محمد ﷺ بقوله سبحانه : ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾[1]

ونجده سبحانه وتعالى يوضح لنا أيضاً بأن اليهود والنصارى لما قالوا أن إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً

---

(١) البقرة ١٣٦ .

أو نصارى ، فإنه سبحانه يوحى إلى نبيه محمد ﷺ ليقول لهم أأنتم أعلم أم الله ؟ **﴿أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون﴾**(٢)

وفى آية أخرى ينفى الله سبحانه وتعالى اليهودية والنصرانية عن إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه : **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾**(٣)

كما يخاطب الله سبحانه وتعالى اليهود والنصارى بقوله سبحانه :

﴿يا أهل الكتاب لما تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلّا من بعده ، أفلا تعقلون . ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾(٤)

وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لهم : كيف تتخذون إبراهيم حجة لكم مع أن اليهودية والنصرانية ، إنما هى من وقت موسى وعيسى عليهما السلام والتوراة والانجيل قد أنزلتا عليهما من بعده .

فكيف تقولون بأن إبراهيم والأنبياء الذين سبقوا موسى وعيسى كانوا هوداً أو نصارى ، أفلا تعقلون .

ثم يأتى التقريع بعد ذلك لهم من الحق جل جلاله :

وإذا كنتم قد حاججتم فى أمر موسى وعيسى وهم قد أرسلوا لكم وتعرفونهم ، فكيف تدعون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ،

(٢) البقرة ١٤٠ .

(٣) آل عمران ٦٧ .

(٤) آل عمران ٦٥ ، ٦٦ .

مع أن هذا الأمر غير وارد فى كتبكم ولا علم لكم به ؟ والذى يعلم الحقيقة هو الله ، لأنه سبحانه هو الذى أرسل رسله جميعاً ، أما أنتم فلا تعلمون عن ذلك . ثم يوضح الحق سبحانه وتعالى لهم الحقيقة ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾[1] أى أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان مائلاً عن تلك العقائد الزائفة إلى دين الحق ، منقاداً لله تعالى مخلصاً فى طاعته ، ولم يكن من المشركين .

بعد هذا يتضح أن الله سبحانه وتعالى قد نفى اليهودية والنصرانية ولم يرتضيهما كدين ، ولكنه سبحانه يقول فى ختام التشريعات التى شرعها على أمة محمد ﷺ : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾[2]

ولما كان دين الله واحد ، وهو ما شرعه لجميع أنبيائه ورسله من أول نوح عليه السلام حتى خاتمهم محمد ﷺ لذا نجده سبحانه يقول ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾[3] ويقول سبحانه :

﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾[4] .

﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾[5] وهؤلاء قد انحرفوا عن هذه الوحدانية فاشركوا مع الله غيره ، فغيروا وحرفوا العقيدة .

---

(١) آل عمران ٦٧ .
(٢) المائدة ٣ .
(٣) الشورى ١٣ .
(٤) الأنبياء ٩٢ .
(٥) المؤمنون ٥٢ .

وإذا عدنا إلى إنجيل متى الاصحاح الخامس لوجدنا أن المسيح عليه السلام يقول : (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل ، فإنى الحق أقول لكم إلى أن نزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل) .

وكأن سيدنا عيسى عليه السلام يقول لأتباعه :

لا تظنوا أنى جئت لأنقض ما دعا إليه الأنبياء من قبلى ، فإن دعوتنا واحدة ، وهدفنا واحد ، وأنى ما جئت لكى أنقض شيئاً فى دعوتهم ، ولكنى جئت مكملاً لها . ولن تزول السماء والأرض حتى تكتمل هذه الدعوة برسالة رسول يأتى من بعدى تكتمل برسالته كل الرسالات .

ولما كان الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسل جميع الرسل ، فإننا نجد فى القرآن الكريم شهادة طيبة من الله تعالى لما أرسل به سيدنا محمد ﷺ **﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى دين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً﴾**[1] .

كما جد أيضاً فى القرآن الكريم شهادة طيبة من الله عزّ وجلّ لما أنزل الله على سيدنا محمد ﷺ **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾**[2] فسيدنا عيسى وسيدنا موسى عليهما السلام كانا داعيتين إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى عبادته وإلى توحيده سبحانه . غير أن أقوامهم هم الذين ضلوا

---

(١) الفتح ٢٨ .

(٢) المائدة ٤٨ .

الطريق ، فحرفوا العقيدة ، وانحرفوا بها عن طريق الحق والصواب لأغراض لم يشرعها الله سبحانه وتعالى .

ومادام الإله المعبود جلّ جلاله واحداً ، وهو سبحانه المرسل لجميع الرسل والأنبياء من أول نوح عليه السلام إلى خاتم الرسل والأنبياء محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه ، فلا بد وأن تكون رسالتهم واحدة ، لوحدة مصدرها الإلهى . ولما كانت الكتب السماوية كلها منزلة من عند الله سبحانه وتعالى ولهذا فإننا نؤمن بما جاء بها ، ولكن قبل أن تمتد إليها يد البشر التى عبثت وحرفت وغيرت ما جاء بها .

إلّا أنه سبحانه جعل هذه الكتب السابق نزولها ، لما أصابها من تغيير وتحريف ، فى حكم المنسوخة ، وجعل سبحانه الاحتكام فى تصحيح ما أصابها من تحريف إلى القرآن الكريم . بدليل قوله تعالى :

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾[1] وإذا ما تأملنا قوله سبحانه **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾**[2] لوجدنا أن الأمر الإلهى الذى استهل الله سبحانه وتعالى به هذه الآية الكريمة **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ....﴾** فهذا الأمر الإلهى يختص الله سبحانه وتعالى به جميع المكلفين من أمة محمد ﷺ . وفى تقديم قوله تعالى **﴿وما**

---

(١) المائدة ٤٨ . (٢) البقرة ١٣٦ .

أنزل إلينا﴾ أى أن القرآن الكريم وإن كان نزوله متأخراً عما أنزل الله سبحانه وتعالى إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وجميع الأنبياء من ربهم ، إلّا أنه قد جاء سبباً ودليلاً لأن نؤمن بهؤلاء الرسل والأنبياء جميعاً ، وبما أنزل الله سبحانه وتعالى إليهم . دون أن نفرق بين أحد منهم .

ومادام القرآن الكريم هو الدليل والمهيمن ، والناسخ لما سبقه من كتب سماوية وأن الحافظ له هو الله سبحانه وتعالى ، ولذا لم يبق على الأرض كتاب بكلماته وحروفه كما أنزل من عند الله إلّا القرآن الكريم . ولن يحاسب الله الناس يوم القيامة إلّا على ما ورد فى القرآن الكريم من أحكام . ومادام الذى أرسل جميع الرسل والأنبياء . والذى أنزل جميع الكتب السماوية هو الله جل جلاله ، فإن الرسالات والكتب السماوية جميعها إنما صدرت عن إرادة إلهية واحدة . وبالتالى يكون الهدف المقصود بها واحداً .

فليس من المنطق أن يغير الله سبحانه وتعالى الدين الذى يرتضيه لعباده بين فترة وأخرى .

وليس لنا نحن عباد الله أن نختار لأنفسنا ديناً غير الدين الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى وشرعه لعباده . وليس هناك أدل على ظلم من إنحرف عما شرعه الله من قوله تعالى : **﴿أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾** (١)

---

(١) البقرة ١٤٠ .

فنى هذه الآية الكريمة توبيخ لليهود والنصارى لافترائهم على الأنبياء ولذا ينكر الله سبحانه وتعالى عليهم زعمهمْ وادعائهم ، لأنه ليس أعلم بالدين الذى يدين به هؤلاء إلّا الله فيقول لهم **﴿أأنتم أعلم أم الله ؟﴾** فليس هناك أظلم من الذى يكتم الشهادة التى عنده من الله وهى أن إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً ، وبرىء من اليهودية والنصرانية **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾** فليس هناك أظلم من اليهود والنصارى حين يكتمون الشهادة ويثبتون أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً ، وليس هناك أظلم من اليهود والنصارى الذين كتموا ما جاء فى كتبهم المقدسة عن توحيد الله تعالى ، وعن نعوت سيدنا محمد ﷺ التى جاءت فى هذه الكتب ، والافتراء على الأنبياء والرسل بأنهم كانوا يهوداً أو نصارى : **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** .

ليس المراد بهذا التعبير **﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾** أن هناك تخيير بين اليهودية أو النصرانية ، ولكن المراد أن اليهودية قالوا **﴿كونوا هوداً تهتدوا﴾** والنصارى قالوا **﴿كونوا نصارى تهتدوا﴾** لأنهم وإن إتفقوا فى معاداتهم للإسلام ولرسول الاسلام ولكتاب الإسلام ، إلّا أنهم اختلفوا **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** (١)

---

(٢) البقرة ١١٣ .

فاليهود يقولون بالتشبيه ، والنصارى يقولون بالتثليث ، وقد إتفق اليهود والنصارى على صحة دين إبراهيم عليه السلام ، ودين إبراهيم عليه السلام يقول بالتوحيد ، ومائلاً ومخالفاً للتشبيه أو التثليث .

واليهود قالوا عزير بن الله ، والنصارى قالوا عيسى بن الله ، والله تعالى يقول : **﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾**[2] .

﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم﴾[3] .

(٢) مريم ٣٥ .

(٣) المائدة ٧٤ .

الفصل الثالث

كن فيكـــون

إننا حينما نجول بفكرنا وخواطرنا فى كل ما خلق الله عزّ وجلّ ، فإننا نجد على كل ذرة ، وعلى كل خلية ، وعلى كل متحرك وساكن ، سواء فى السموات أو فى الأرض ، فى النبات أو الجماد ، فى الحيوانات أو الطيور ، فى الماء أو الهواء ، فى كل زمان وفى كل مكان ، مكتوب بأحرف من نور : لا إله إلّا الله ، ولا خالق إلّا الله ، ولا موجد إلّا الله .

وأن كل خلية وكل ذرة فى هذه المخلوقات تنطق وتهتف وتنادى بلسان حالها قائلة : لا إله إلّا الله . وحينما يأتيها الأمر من الله تعالى ، فإنها تكون مذعنة وملبية وقائلة : سمعاً وطاعة يا رب . وما ذلك إلّا لأنها تستمد حولها وقوتها ونظامها ممن أمره بين الكاف والنون . وإذا ما نظرنا إلى كل ما خلق الله عزّ وجلّ ، لوجدنا أنه سبحانه لا يحتاج فى إيجاده إلى زمن أو مكان أو خامات أو مساعدات من أحد . حيث أظهر جميع مخلوقاته من العدم ، وما وجدت هذه المخلوقات إلّا نتيجة للأمر الإلهى «كن» فكانت كما أراد الله سبحانه وتعالى .

ولما كان الخلق والتكوين مما يعلو عقول البشر ، لذا فقد عبر الخالق عزّ وجلّ عنه بقوله سبحانه : ﴿**كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾[1] . فبمجرد أن يقول الله جل جلاله لأى شىء «كن» فسوف يكون فى أقل من لمح البصر ، سواءً أكان هذا الشىء كبيراً أو عظيماً كخلق السماوات والأرض

(١) آل عمران ٤٧ .

والجبال ، أو صغيراً كالذرة والمثقال ﴿**إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾[1] وقد أوضحنا فيما سبق أن الله عزّ وجلّ حينما شاءت إرادته سبحانه أن يخلق آدم عليه السلام ، فقد أمر الملك (عزرائيل) أن يأتيه بقبضة من تراب الأرض ، وأن هذه القبضة قد أستلت من جميع تراب الأرض ، ولذا جاء بنو آدم على قدر الأرض ، ومنهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ومنهم الخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك إذن من الثابت والمحقق أن آدم عليه السلام أبوالبشرية جمعاء ، وكذلك بنوه قد خلقهم الله سبحانه وتعالى من سلالة من طين . لأن الخالق عزّ وجلّ قال ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين**﴾[2]

كما يخاطب الله سبحانه وتعالى البشرية جمعاء بقوله سبحانه :

﴿**يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علمٍ شيئاً**﴾[3]

فمن الثابت والمحقق أن الله عزّ وجلّ قد خلق آدم عليه السلام وهو أصل البشرية جمعاء من تراب الأرض ، ثم جعله طيناً . ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه وصوره ، ثم تركه حتى كان

(١) النحل ٤٠ .
(٢) المؤمنون ١٢ ـ ١٣ .
(٣) الحج ٥ .

صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه من روحه ، وخلق له حواء من ضلعه . ولقد تعرض القرآن الكريم لبدء الحياة على هذه الأرض ، فقال سبحانه : ﴿**والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير**﴾ (١) ﴿**وجعلنا من الماء كل شىء حى**﴾ (٢)

ولقد قلنا فيما سبق أن أول ما خلق الله عزّ وجلّ الماء ، ومن حكمته سبحانه أن أوجد فى الماء سر الحياة القابلة للنمو والتكاثر والتطور ، فتطورت الأحياء ، وصارت أنواعاً وأجناساً وفصائلاً ، وظلت تعيش فى الماء إلى ما شاء الله لها أن تعيش فيه ، ثم بدأ بعضها يخرج إلى سطح الأرض ، ويعيش عليها ، وتأقلم وتكاثر وتطور .

فتكون الأرض قد عاش عليها كثيراً من أنواع الأحياء المائية والبرية ، قبل أن يعيش عليها هذا الإنسان الذى يسكنها الآن ، بما لا يحصيه إلّا الله من الدهور ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾ (٣) .

فلما خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام كانت الأرض حافلة بأصناف الدواب والطير والنبات ، ولم يأمره الله سبحانه وتعالى بالهبوط إلى الأرض إلّا بعد أن علمه أسماءها وخواصها ، وسر تذليلها والانتفاع بها .

ومما يؤكد أن هذا الإنسان قد خلقه الله سبحانه وتعالى من

---

(١) النور ٤٥ . (٢) الأنبياء ٣٠ . (٣) الإنسان ١ .

تراب ، فقد أثبتت التحاليل الطبية والكيميائية أن تربة الأرض تتركب من ستة عشر عنصراً ، ولو أخذنا قطعة من جسم الإنسان ، وأجرينا عليها عمليات هذا التحليل لوجدناها كذلك تتركب من ستة عشر عنصراً .

أى أن جسم الإنسان يتركب من نفس العناصر التى تتركب منها تربة الأرض . وهذه هى العناصر بحسب نسبة وجودها :

الأكسجين ٦٣,٣٪ ، الكربون ٢٠,٢٪ ، الأيدروجين ٩,٩٪ ، النيتروجين ٩,٥٪ ، الكالسيوم ٢,٤٥٪ ، الفسفور ١,٠١٪ ، الكلور ٠,٦٪ الفلور ٠,١٤٪ ، الكبريت ٠,١٤٪ ، البوتاسيوم ٠,١١٪ ، الصوديوم ٠,١١٪ ، المغنسيوم ٠,٠٧٪ ، وآثار ضئيلة من كل من اليود والسليكون والمنجنيز .

وتنتقل هذه العناصر من تربة الأرض إلى جسم الإنسان من خلال ما يتم تناوله من الأطعمة النباتية أو الحيوانية . فالأطعمة النباتية تتكون كذلك من هذه العناصر التى ذكرناها إذ النبات يستل غذاءه من تربة الأرض ، أى من هذه العناصر .

والأطعمة الحيوانية تتكون أيضاً من هذه العناصر إذ الحيوان يعتمد فى غذائه على النباتات التى تخرج من الأرض .

وعندما يموت الإنسان والحيوان ويبلى النبات ، وتتحلل محتويات كل منهم إلى هذه العناصر التى تعود مرة أخرى إلى الأرض . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾[1]

---

(١) الأعراف ٢٥ .

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [٢] .

وعلى هذا الأساس نستخلص من قوله تعالى : **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾** ليس المقصود فى هذه الآية الكريمة هو آدم وحده بل كل إنسان قد خلقه الله سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا ، من أول أبينا آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا ما علمنا أن لفظ سلالة الذى ورد فى سياق هذه الآية الكريمة : **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾** قد جاء من لفظ سلل ، وسل الشىء من الشىء أى استخرجه منه .

فآدم عليه السلام سلالة من طين أى أخذت كمية التراب التى عجنت بالماء فصارت طيناً ثم حمأ مسنون . ثم صور الله منها آدم عليه السلام . وتركه حتى صار صلصالاً كالفخار . وقلنا إن النبات يستل غذاءه من الطين الموجود فى الأرض ويتكون هذا الغذاء من أهم العناصر التى يتكون منها الطين . والحيوان يتغذى على هذا النبات . والإنسان يتغذى عليهما **﴿النبات والحيوان﴾** ومن هذا الغذاء يستل الجسم العناصر اللازمة لبنائه والتى يتكون منها الدم . ومن الدم تتكون النطف . أى أن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية النباتية أو الحيوانية التى تستل غذاءها من الطين والسليل معناه الولد . والسليلة هى البنت . لأن النطف التى تكون منها هذا الولد أو هذه البنت قد استلت من الأبوين . فتكون هى سلالة الإنسان .

والشىء المسلسل هو المتصل بعضه ببعض . وما سميت

---

(٢) طه ٥٥ .

السلسلة بهذا الإسم إلّا لكونها حلقات متصلة بعضها ببعض .

وما خلق الله عزّ وجلّ الإنسان إلّا سلسلة من الأطوار :

﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً﴾ (١) .

﴿والله انبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا﴾ (٢) .

فتبدأ السلسلة بخلق أبينا آدم عليه السلام ، ثم دفع الله سبحانه وتعالى بقدرته فى صلبه ماءه المحتوى على ذريته الذين سيخلقهم الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة ، وجعل سبحانه هذا الماء ينتقل من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ويبرز الله من هذه الذرية من يشاء وفى الوقت الذى يريد ، وبالكيفية التى يراها سبحانه وتعالى إلى أن تقوم الساعة .

ولما كانت هذه السلسلة التى ينظم حلقاتها ويجعلها مترابطة ومتجانسة ، هو الذى خلقها وأتم نظامها ، وقدر لها أقواتها وحياتها ، وهدى كل ذرة فيها إلى ما خلقت له ، فيجعل كل حلقة تلتئم وترتبط مع سابقتها بحكمته وقدرته .

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون﴾ (٣) .

وأعود مرة أخرى إلى ما قاله الأستاذ الكاتب الإسلامى المشهور فى مجلة صباح الخير السابق التنويه عنه .

فيقول فى تفسيره لقوله تعالى : **﴿أو لم يروا كيف يبدىء الله**

---

(١) نوح ١٣ ، ١٤ .

(٢) نوح ١٧ ، ١٨ .

(٣) يس ٨٢ ، ٨٣ .

الخلق ثم يعيده . إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . إن الله على كل شىء قدير﴾[1]

إن المعنى المقصود أن الإنسان لم يأت من طين مباشرة ، بل مرّ بمراحل وأزمنة مديدة . وخطوات وتفاصيل كثيرة محجوبة ، ولو أن الإنسان جاء من طين لما بقى هناك شىء يعرف فى مسألة الخلق ، ومن هنا يكون الأمر لمعرفة كيفية بدء الخليقة ما يبرره .

ولو أردنا بمفهوم عقلانى أن نستوضح معنى الآيتين لعلمنا أن طبيعة كل المخلوقات تبدأ من العدم ، ثم تحيا ، ثم تفنى ، وهكذا الإنسان .

وأن الله الذى خلق فى البداية هو القادر على الإعادة . هذا هو المفهوم الذى نستطيع أن نقول به ، وليس فى الآيتين ما يشير من قريب أو بعيد إلى وجود مراحل زمنية أو خطوات بين مرحلة الطين ومرحلة التخلق .

والقرآن الكريم قد أغنانا عن التكلف فى أى حديث عن بدء خلق الإنسان ، وأكد لنا الخالق عزّ وجلّ فى أكثر من آية من أن الإنسان قد خلقه الله من طين ، ومن تراب ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار ، وقد أوضحناها . فليست هناك إذن كما يقول الأستاذ الكاتب مراحل زمنية أو خطوات وتفاصيل كثيرة محجوبة ، وإنما هو أمر الله الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

---

(١) العنكبوت ١٩ . ٢٠ .

إن الإجتهاد مطلوب ، ولكن فيما لم يرد به نص فى القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة .

إن كل ما يجب علينا أن نذعن ونؤمن ونصدق بأن الله تعالى قد خلق الإنسان من الطين ، ثم نفخ فيه من روحه ، أما من يقول غير ذلك فهو معترض على ما جاء بلاغاً عن الله عزّ وجلّ .

ومهما كانت نية الباحث أو الكاتب فليس له أن يخرج عما قال الله عزّ وجلّ .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الخالق وكل ما سواه مخلوقاً له ، فما هى الصلة بين الخالق والمخلوق ؟

لقد أغنانا الله سبحانه وتعالى عن التكلف فى الإجابة عن هذا السؤال فقرر سبحانه أن المخلوقات جميعاً مكلفة وغير مكلفة خاضعة للخالق عزّ وجلّ ومنقادة له ، سواء رضيت أم كرهت .

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ (١)

﴿ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ (٢)

﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ (٣) .

﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض

---

(١) آل عمران ٨٣ .
(٢) الرعد ١٥ .
(٣) النحل ٤٨ ـ ٤٩ .

والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس﴾ [1] .

وخضوع كل ما خلق الله عزّ وجلّ لله سبحانه وتعالى ، وانقياد كل شيء له سبحانه ، إنما هو تعبير صادق عن احتياجها الدائم إلى من يمسك عليها حياتها ويمدها بالأسباب والذى يملك ذلك هو خالقها وحده جلّ جلاله .

وكل ما خلق الله عزّ وجلّ أشفق أن يتحمل الأمانة أى خاف أن يتحملها ، ولكن حملها الإنسان . قال تعالى :

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [2]

فكل ما خلق الله عزّ وجلّ يسجد لله طوعاً ، ويؤدى رسالته التى خلقه الله من أجلها دون إنحراف أو توقف ، وإلى الأجل الذى قدره الله سبحانه وتعالى له .

تأمل هذا السياق الممتع والتعبير البلاغى الجميل فى قوله تعالى :

﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون﴾ [3]

---

(١) الحج ١٨ .
(٢) الأحزاب ٧٢ .
(٣) يس ٣٧ : ٤٠ .

﴿خلق السماوات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار﴾[1] .

﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا أتينا طائعين﴾[2]

فجميع المخلوقات التى خلقها الله سبحانه وتعالى تؤدى رسالتها المنوطة بها ، وتستجيب لمشيئة الله عزّ وجلّ وارادته فى خلقها ونظامها وكذلك الإنسان المؤمن يستجيب لمشيئة الله جلّ جلاله ، ويسجد لله طواعية واختيارا ، يسجد حقيقة لله ، فيضع جبهته على الأرض وفى مصاف الأقدام خضوعاً وخشوعاً لعظمة خالقه جلّ وعلا ، واعترافاً بفضله سبحانه ، وطلباً لمرضاته ورحماته . وإذا ما تأملنا قوله تعالى : **﴿ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾**[3] . لعلمنا أن الله سبحانه يخبرنا أن كل البشر يسجدون له سبحانه ، سواء طواعية واختيارا ، أو قهراً وجبراً . وبمعنى آخر أن كل بنى آدم يسجدون لله سواءً مؤمنين أو كافرين فالمؤمن يعلم أن السجود لله عزّ وجلّ هو حق واجب لله تعالى ، ولهذا فإنه يسجد بالفعل طواعية واختياراً لله تعالى ، أما الكافر وإن لم يسجد لله تعالى بالفعل ، إلّا أنه منقاد لأمر الله فيه ، وحكمه سبحانه عليه ، صحة ومرضاً ، وفقراً وغنى ، حياة وموتى .

وهناك فارق كبير بين سجود هؤلاء وهؤلاء .

---

(١) الزمر ٥ .

(٢) فصلت ١١ .

(٣) الرعد ١٥ .

فسجود المؤمنين طوعاً ، وسجود الكافرين كرهاً . وليس أدل على ذلك من هذا التعبير الجميل (طوعاً وكرهاً) ولو كان الله عزّ وجلّ هو الخالق فحسب لحق على المخلوق أن ينقاد لأوامره ، وأن يخضع لتعاليمه ، وأن يذعن لما أوحى به إلى رسله ، ولكنه سبحانه فوق ذلك (رب العالمين) والعالمين جمع عالم ، فالإنسان عالم ، والجن عالم ، والملائكة عالم ، والنبات عالم ، والحيوان عالم ، والطيور عالم ، والحشرات عالم ، والجماد عالم ، وكل هذه عوالم ، لأنها معلم على عظمة وقدرة الخالق جل جلاله . ودلائل ربوبيته سبحانه لكل هذه العوالم ، واضحة لكل ذى لب ، وظاهرة لكل ذى عينين ، وجلية لكل ذى فكر .

إنه الله ﴿**الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين**﴾ [1]

إنه الله الذى ضمن لكل مخلوق رزقه ﴿**وما من دابة فى الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين**﴾ [2] .

﴿**وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم**﴾ [3]

﴿**الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شيء عليم**﴾ [4] .

---

(١) السجدة ٧ ـ ٨ .
(٢) هود ٦ .
(٣) العنكبوت ٦٠ .
(٤) العنكبوت ٦٢ .

وتأمل أخى القارىء الكريم رحمة ربك بعباده أجمعين ، فقد دعا أبوالأنبياء إبراهيم عليه السلام ربه عزّ وجلّ أن يرزق المؤمنين من عباده ، لأنهم فى نظره وتبعاً لمقاييس البشر هم الذين يستحقون أن يشملهم الله سبحانه وتعالى بفضله ، ولكن الرءوف الرحيم بعباده يجيبه على دعوته ، ويقول له بأننى لم أحرم الكافر من عطائى ورزقى .

دليل ذلك قوله تعالى :

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾(٣) .

ولى أن أتساءل : هل هناك من الإنس من حضر خلق آدم عليه السلام حتى يقول بغير ما قال الله عزّ وجلّ ؟

وهل هناك من الإنس والجن من يمكنه أن يدعى أن كل من فى السماوات ومن فى الأرض يخضع وينقاد لأوامره طوعاً أو كرهاً ؟

وهل هناك من الإنس والجن من يمكن أن يدعى أنه يستطيع أن يسخر الشمس أو القمر ، أو يسخر الليل أو النهار ؟

هل هناك من الإنس والجن من يجرؤ أن يدعى أنه يضمن الرزق لنفسه ؟

هل هناك من الإنس والجن من يفيض بخيراته ونعمه وفضله على من لا يخضع لتعاليمه ولا ينفذ أوامره ؟

هل هناك من الإنس والجن من يجرؤ أن يقول على الله عزّ وجلّ ما لم يقله الله تعالى ؟

---

(٣) البقرة ١٢٦ .

وهل هناك من الإنس والجن من يجرؤ أن يفتى بشيء لم يخبر به الله سبحانه وتعالى ، وبخاصة الغيبيات التى إختص الله سبحانه وتعالى نفسه بها .

لقد إتفق المسلمون على أن الأدلة الشرعية هى :

الكتاب ، السنة ، الإجماع ، القياس . فإذا أردنا أن نبحث عن شيء فلنلجأ إلى كتاب الله أولاً ، فإن عثرنا عليه أخذنا به ، فإن لم نجد إتجهنا إلى السنة النبوية فإن بينت اكتفينا بها ، فإن لم نجد أحصينا ما أجمع عليه العلماء المجتهدون ، فإن لم نجد قسنا على ما ورد فى الكتاب والسنة دون أن نخرج بهذا القياس كما جاء بهما مطلقاً . ولا اجتهاد مع وجود نص فيهما .

أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟

إننا عندما ننظر بتأمل وتدبر وامعان إلى مخلوقات الله عزّ وجلّ ، وما احتوى عليه ديننا الحنيف من قواعد وأحكام ، وما رمى إليه من أهداف وغايات ، لأدركنا أن من أهم عناصر هذا الدين رعايته الشاملة والكاملة لهذا الإنسان . فقد رعاه جسداً : فأمده بمتطلباته واحتياجاته .

ورعاه عقلاً : فأعطاه قدراته وأفكاره .

ورعاه روحاً : فأوضح له ما يسمو به على غرائزه وهواه . ولقد أعطى كل جانب من هذه الجوانب حقه الواجب أداؤه ، لتسير الحياة سيرها المتوازى والمتوازن ، حتى تصل الإنسانية إلى غايتها المرجوة .

وإذا ما وعينا ذلك جيداً وعلمنا أن الذى خلق الإنسان هو الله ، والذى أخبرنا عن كيفية خلق آدم وذريته هو الله والذى يعلم حقيقة النفس الإنسانية ودخائلها هو الله ، والذى يعلم ما يقربها وما يبعدها هو الله .

والذى يعلم دوافعها وما يصلحها وما يفسدها هو الله .

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (١)

ولما كانت قدرته سبحانه واحاطته بالأمور كلها ليست لها حدود ، فقدرته وعلمه بكل مخلوقاته مطلقة ، وعلم الإنسان مهما وصل إلى ذروته من العلم والمعرفة فإنه قليل ومحدود .

---

(١) الملك ١٤ .

ولذا نجد أن كل فرد من البشر ينظر إلى الأمور نظرة ناقصة وقاصرة . غير محيطة أو مستوعبة .

لأنه ينظر إلى الأمور من زاوية خاصة ، أو من جانب معين ، دون إلمام تام بجميع الجوانب .

ولذا نجد أن اللغة تختلف من علم لآخر ، بحيث أن كل عالم لا يعرف شيئاً عن اكتشافات الآخرين ، كما أن مفهوم أى فرد يختلف عن مفهوم الآخرين .

كالذى يذهب إلى دولة أجنبية ، لا يفهم شيئاً عن أهلها لأنهم يتكلمون لغة لم يدرسها ولم يفهمها هو .

ولذا نجد أن علماء الرياضة يعبرون عن نظرياتهم بالمعادلات والرموز . وعلماء الطب يعبرون عن نظرياتهم ببيان تشريح أجزاء الجسم ووظائفها وعلماء الهندسة يعبرون عن نظرياتهم بالخطوط المستقيمة والعرضية . وهكذا فإن جميع العلماء يعبرون عن الحقائق التى يرونها بلغتهم الخاصة التى يرونها ويفهمونها .

وإذا تأملنا بحق أول آيات بدىء بها انزال القرآن الكريم وحياً يوحى إلى صفوة الرسل وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ والتى يقول الحق تبارك وتعالى فيها : ﴿**إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1]

لوجدناها قد ربطت خلق الإنسان بأمرين إثنين هما :

العقيدة الصحيحة والعلم . ويدلنا هذا الربط على أنه لا إنسانية لأى إنسان إلّا بهذين الأمرين .

---

(١) العلق ١ : ٥ .

كما تنبه هذا الإنسان إلى أن القادر جل جلاله الذى خلق هذه المخلوقات ، وخلق كلانسان من علق هو سبحانه الذى علمه ما لم يعلم ، فيكون ما يصير إليه هذا الإنسان من تقدم علمى وحضارى إنما يكون بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ولهذا أمرنا الله سبحانه وتعالى أن تكون قراءتنا للأشياء باسم الله ربنا ، لأنه لولاه سبحانه ما استطعنا أن نقوم بأى عمل ولو لم يسخر لنا الأسباب ما استطعنا أن نفعل شيئاً وإنما نلجأ إليه سبحانه طمعاً فى أن يعيننا ويوفقنا إلى حسن قراءتنا للقرآن الكريم ، ولكل أمر من الأمور .

وإذا ما أمعنا النظر فى حياة الإنسان ، لوجدنا أن المبادىء التى يقوم عليها الجسد البشرى هى نفس المبادىء التى نلاحظها قائمة فى حياته .

فما العقول الالكترونية ، وما الأجهزة الأوتوماتيكية إلّا مخلوقات الله عزّ وجلّ ، وعلى النمط الذى تقوم به أعضاء الجسم البشرى . وكما سبق أن قلنا بأن ما يصير إليه الإنسان من تقدم علمى وتطور حضارى إنما هو بقدرة الله عزّ وجلّ .

ولم يكن هذا التطور والتقدم مدعاة لمعرفة قدرة الإنسان ومهارته ، ولكنه فى الحقيقة تمجيد وتعظيم لله عزّ وجلّ الذى خلق هذا الإنسان . وإذا ما استعرضنا قوله سبحانه : ﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد**﴾

لعلمنا أن كلمة «سنريهم» تفيد استمرار العطاء الربانى فى جميع

النواحى ، وفى الأنفس ، حتى يتبين لجميع الناس أنه سبحانه هو الحق ، وما يخبر به هو الحق ، وما يقض به هو الحق . فهو سبحانه المدبر لكل أمر وإذا ما أمعن الإنسان النظر والتأمل فى عالمه الداخلى ، أى فى أعضاء جسمه الداخلية ، فإنه يضع يده على الطريق العلمى الصحيح .

فما التوجيه الإلهى العظيم ، والبيان الربانى الشافى ، بأنه سبحانه سوف يرينا آياته فى الآفاق والأنفس ، إلّا توجيه وبيان صادر عن حكمة إلهية لها مغزى ومقصد .

فالإنسان قد ذهب بعيداً ليكتشف العلوم بشتى أنواعها المختلفة ، ولا غرابة فى ذلك ، فالإسلام يدعوه لهذا .

ولكن عليه أن يتأكد أن كل ما يتم إختراعه أو اكتشافه ، إنما تم بفضل الله تعالى وتوجيهه أولاً وأخيراً .

فالذى خلقه هو الله ، والذى منحه العقل هو الله ، والذى ألهمه الفكر هو الله ، والذى وجهه ليخترع هو الله ، والذى أوجد الخامات التى استغلها فى اختراعه هو الله . والذى يستطيع أن يسلب منه كل هذا هو الله .

إن الله عزّ وجلّ قد علم الإنسان ما لم يعلم ، ليظهر للناس قدرته سبحانه لا قدرة هذا المخلوق ، فالإنسان من مخلوقات الله ، وما يتم إختراعه أو اكتشافه من مخلوقات الله وما يتم إختراعه أو اكتشافه من مخلوقات الله كذلك ، أليس الله سبحانه وتعالى هو القائل :
﴿وإن من شىء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾[1]

---

(١) الحجر ٢١ .

فكلمة (وإن من شيء) تفيد أن كل ما يتم اكتشافه أو اختراعه بين الحين والآخر ، إنما هو مأخوذ من المخازن الإلهية التي لا تنفذ ، وإنما يتم صرفه من هذه المخازن لاستعماله بقدر معلوم ، على حسب ومشيئة الله سبحانه وتعالى .

لقد ذهب الإنسان إلى آفاق شتى من العلوم والمعارف . فقد تم اكتشاف علم الفلك من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بحوالى ٦٦٠ سنة ، على يد العلماء : ثاليس لمظى ، فيثاغورث ، وافلاطون .

وتم اكتشاف علوم الجبر والحساب من قبل من ميلاد المسيح بحوالى ١٤٠ سنة ، وعلى يد العالم أبرخس .

وتم إكتشاف علم الميكانيكا والآلات على يد العالم أرشميدس بحوالى ٢٥٠ سنة قبل الميلاد .

وعلم الطب على يد العالم ابقراط حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد .

أما علم النفس وإن شئت قلت علم الإنسان ، فللأسف كان هو أحدث هذه العلوم .

ذهب الإنسان بعيداً عن حقيقة هي أقرب إليه مما يتصور ، إن هذه الحقيقة كامنة فى داخله ، وهل هناك ما هو أقرب إلى الإنسان من نفسه ؟

ألم يدرك هذا الإنسان كيف تعمل خلاياه وأعضاءه ومخه الذى جعله يكتشف هذه العلوم وغيرها ، حتى يحيد عن الحقيقة ؟

إن العلوم التى يتم اختراعها واكتشافها يجب أن توصلنا إلى مفهوم أعمق ، فنتذكر بأن هناك خالق ومبدع ومكون لكل هذه العلوم . ﴿**والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**﴾[1] .

---

(١) آل عمران ٧ .

إن أرسطو وهو من فلاسفة الأغريق القدماء ، ومن بعده داروں فى القرن التاسع عشر ، جاء بنظرية سماها نظرية النشوء والارتقاء ، وإن شئت فقل نظرية اكتشاف الإنسان للإنسان وكيف خلق . وقد قال داروں فى نظريته هذه : إن الإنسان لم تخلقه قدرة القادر ، وإنما تم خلقه وتطوره بطريقة ميكانيكية ، وأن الخلية أو الأميبا هى أصل الحيوانات ومنشؤها ، وأخذت تتدرج حتى وصلت إلى أرقى سلالة حيوانية وهى القردة السيمانية ثم من قردة إلى أن صارت إنساناً .

ومن الغريب حقاً أن يقول كاتب إسلامى أو أى باحث بأن الإنسان لم يأت من طين مباشرة ، بل مر بمراحل وأزمنة مديدة ، وخطوات وتفاصيل كثيرة محجوبة ، كما يقول أيضاً : تفسيراً لقوله تعالى : **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾** [1]

بأن عيسى عليه السلام لم يأت من طين مباشرة ، وإنما جاء من مريم بطريق النفخ ، وان كان الأصل طيناً وصولاً إلى أن آدم هو الآخر جاء من سلالة سابقة ، وأنه عن طريق النفخ ، وأن الروح المنفوخ فى حواء ، وهى الطينة المسواة عبر ألوف السنين ، والتى أدت إلى نقلة التطور الهائلة من المرتبة الحيوانية إلى المرتبة الإنسانية ، وإلى مجىء آدم الابن الذى لا أب له .

ما أشبه القول بين هذا وبين ما قاله داروں .

إن هذا التفسير فيه تحميل للألفاظ فوق ما تحتمل ، فضلاً عما فيه من نقص واضح فى معرفة أسباب النزول .

(١) آل عمران ٥٩ .

ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على نصارى نجران الذين ادعوا ألوهية المسيح بهذا المعنى : إن خلق آدم كان أكثر إعجازاً من خلق المسيح الذى جاء من امرأة بغير أب بنفخ الروح بقدرة الله ، أما آدم فقد خلقه الله عزّ وجلّ من تراب بغير أم ولا أب ، فهو أمر أعجز وأغرب . وتشبيه الغريب بالأغرب أقطع وأوقع فى النفس .

وكما خلق الله سبحانه وتعالى آدم من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، فكذلك عيسى قد خلقه الله من غير أب ، ثم قال له كن فيكون فكان كما أراد الله سبحانه وتعالى .

قلنا قبل ذلك أن الله عزّ وجلّ أول ما خلق الماء ، ثم أودع فى الماء سر الحياة القابلة للنمو والتكاثر والتطور ، فتطورت الأحياء وصارت أجناساً وأنواعاً وفصائلاً وظلت تعيش فى الماء إلى ما شاء الله لها ثم خرج بعضها إلى سطح الأرض ، وعاش عليها وتأقلم وتكاثر .

ولكن هذه الأحياء كانت قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى آدم ، فلما خلق الله تعالى آدم ، وأهبط إلى الأرض التى خلقه الله ، ليستخلفه فيها ، كانت الأرض حافلة بأصناف الدواب والطير والنبات ، ولم يؤمر آدم بالهبوط إلّا بعد أن علمه الله أسماءها وخواصها وسر تذليلها ، لينتفع بها .

وإذا كان العلم يقول بأن الأميبا أول من سكنت الأرض ، وأن الخلية هى أصل الحيوانات ومنشؤها ، فأقول ليس فى هذا تعارض مطلقاً ، فإن الخلية هى أصل كل كائن حى ، وهذه الخلية إنما تنشأ من إندماج حيوان منوى مذكر مع بويضة أنثوية ، ومنها ينشأ الجنين ثم الكائن الذى يريده الله سبحانه وتعالى . ولكن حينما يقول بأنها قد

تدرجت حتى وصلت إلى أرقى سلالة حيوانية وهى القردة السيمانية ثم صارت إنساناً بعد ذلك . فأقول لمن يقول بهذا لقد كذبت وافتريت على الله .

إن الخالق عزّ وجلّ قال : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين**﴾ ولم يقل من سلالة القرود . ولقد بين الله سبحانه وتعالى هذه السلسلة من الأطوار بأفضل تحليل علمى ، وأعظم بلاغ شاف ، وهذا هو ما نلمسه ونراه فى حياتنا .

﴿**ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ .

إن ناتج الشىء دائماً وأبداً لا يكون مغايراً لأصله . وبدء تكوين أى كائن حى على هذه الأرض واحد .

خلية ذكرية + خلية أنثوية (بالإندماج) جنين .

فلم نشاهد يوماً من الأيام ولن نشاهد ذلك مطلقاً ، بأن إنساناً قد ولد له قرد أو العكس ، أو إنساناً قد ولد له حيوان وبالعكس ، أو حيوان قد ولد له طائر وبالعكس .

إن من حكمة الخلاق العظيم أن الخلية تنشأ من إندماج الخلية الذكرية والأنثوية ، فتتكاثر بداخلها الإنقسامات ثم تحمل هذه الانقسامات (الكروموزومات أو الجينات) (مما سنوضحه فيما بعد بإذن الله) صفات الأبوين نوعاً وشكلاً وصفة .

إننا لو عدنا قليلاً إلى ما سبق دراسته فى مادة الكيمياء ، وتذكرنا قانون (النسبة الجوهرية) أو (الكم الذرى) الذى نستعمله عند تحضير أى مادة كيميائياً ، فإننا نقول خذ من المادة الفلانية

نسبة كذا ، وضعها على المادة الفلانية بنسبة كذا . فإذا التزمنا بهذه النسب سوف يكون الناتج المطلوب وهو كذا . وإذا إختلت المعايير فإن التجربة سوف تفشل ولا تؤدى النتيجة المطلوبة .

لأن كل عنصر لا يأتلف مع غيره إلّا بنسب مقدرة ، ومقادير محدودة . وهذه القوانين مأخوذة من القانون الإلهى لا من قانون البشر . فالله عزّ وجلّ يقول : ﴿**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار**﴾ (١) .

﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون**﴾ (٢)

﴿**وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم**﴾ (٣)

فى هذه الآيات ما يقرب المفهوم العلمى إلى حقائق الوجود الخفية ، التى تظهر وتتضح بمقدار ما يفتح الله به من الفتوح العلمية . فالحقائق التى توصل إليها أنصار المادية والآلية ، ما هى إلّا بوسائل ومقاييس فوق متناول البشر .

والإنسان نفسه عندما يخترع أو يكتشف شيئاً ، فإنه لا يعلم مداه ، ولا يعرف غايته إلّا احتمالاً ، وبعد أن يتم يصير حقيقة علمية .

إن مصائر الكائنات بما فيها من طاقة وقوة وقوانين ومادة ، إنما تم بحسب إرادة عليا خفية مسيطرة ومهيمنة قد سخرت كل مخترع ومكتشف إلى ما يقوم به من عمل ، وسخرت له الأشياء حتى يظهر

(١) الرعد ٨ .

(٢) الحجر ١٩ .

(٣) الحجر ٢١ .

لنفسه وللناس بأن الحقائق والعوامل الخفية الإلهية تبدو مدركة وواضحة فى الكائنات بتقدير معين.

فالقدرة والخبرة التى يستطيع الإنسان أن يسخر بها الأشياء، لا بد وئن يساندها الخالق الذى خلق الإنسان علمه البيان، وهو سبحانه الذى يرتب وينسق ويسيطر ثم يُظهر الحوادث الكونية فى ظروف خاصة أو عامة بحسب إرادته، وفى أحوال ملائمة يضع نسقها وترتيبها بحسب مشيئته فكل ما يظهر من مكتشفات ومخترعات مع كثرة عددها وتطور أنواعها، إنما هو دلالة صريحة وواضحة أن أصلها ومبدعها هو خالق الأسباب والمسببات، والذى صدرت عنه كل هذه الكائنات.

إنه سبحانه هو العالم بكل مخلوقاته لأنه هو الذى خلقها، ومن الطبيعى أنه لا يعلم سر الصنعة إلّا الذى صنعها فأبدعها. وكل ما خلق الله عزّ وجلّ إنما تم خلقه عن قصد وغاية، لأنه سبحانه يدرك ما يفعل قبل أن يفعل وبعد أن يفعل ﴿**إن الله يفعل ما يريد**﴾[1] ﴿**ويفعل الله ما يشاء**﴾[2].

وإذا ما تدبرنا قوله تعالى ﴿**أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون**﴾[3] لوجدنا أن كلمة «عملت» قد سبقتها كلمة «مما» مما يفيد أن خلق الأنعام التى يراها الناس ما هو إلّا جزء يسير مما عملته أيدى الله تبارك وتعالى.

---

(١) الحج ١٤.

(٢) إبراهيم ٢٧.

(٣) يس ٧١.

وكأن الله سبحانه وتعالى يقول فى عزة لا تنالها ذلة ، وفى صلابة لا يعتريها وهن : أنا وحدى القادر على خلق كل هذه المخلوقات ، لأنى على كل شىء قدير ، ولن يقدر على ذلك غيرى ، فكل ما ترونه من الأنعام ما هو إلّا جزء مما خلقته بيدى ، وذللتها لكم فأصبحتم لها مالكون .

ومن بين هذه المخلوقات آدم عليه السلام وذريته ، فقد خلق الله آدم من تراب ولم يخلقه وليداً من أبوين ، حتى نقول أنهما الأصل فى وجوده . وإنما وجد آدم نفسه حينما نفخ الله فيه من وحه رجلاً فيه كل مقومات الرجولة ، رجلاً له عقل وله فكر ، رجلاً يخاطب من السماء بافعل ولا تفعل ، رجلاً تسجد له الملائكة ، رجلاً حينما أسكنه الله فى الجنة وجاءه الشيطان فأوقعه فى الخطيئة لقاه ربه بكلمات ، فلما قالها تاب الله عليه وهداه إلى الطريق المستقيم .

وأوجد الله بنو آدم من العدم حيث خلقهم من نطفة مختلطة من ماء الرجل وماء الأنثى . ولكى يكونوا محل إبتلاء واختبار فى دنياهم ، فقد أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وجعل كل منهم ذا سمع ليسمع آيات ربه وذا بصر ليدرك أن كل ما خلق الله من مخلوقات قد خلقها من العدم ، كما خلق آدم وبنوه من العدم . ولم يترك الرحيم بعباده الناس على هذا الحال وكفى ، بل أعطاهم نعمة العقل ، وأوضح لهم الطريق ، ليتبينوا طريقى الخير والشر ، ثم ترك لهم حرية الاختيار .

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1] .

---

(١) الكهف ٢٩ .

الحقيقة الخالدة

إن الحقيقة التى لا جدال فيها أن الله جل جلاله هو الخالق لكل مخلوق . والموجد لكل موجود ، والمهيمن على كل ما خلق ، ولا يقع فى ملكه إلّا ما يريده . تلك الحقيقة ينبض بها كل قلب ، وتتحرك لها كل نفس ، ويهتز لها كل وجدان ، لأنها تتغلغل فى الأعماق ، فتكسو النفس روحانية ومهابة واجلالاً وتقديساً .

لا حياة بغير خالق ، ولا وجود بغير موجد ، ولا تدبير إلّا بمدبر قادر . الحياة به تستقيم ، وبمعرفته تسمو وتسعد ، وبكماله وارادته تستمر . الوجود كله من سماواته وأرضه ، وانسه وجنه ، وحيواناته وطيوره ، ونباتاته وزروعه ، وكل ما خلق الله عزّ وجلّ ما نعلمه وما لا نعلمه إنما يؤدى عمله المكلف به فى هدوء وسكينة ووقار وائتلاف وانسجام ووئام ، ويسير فى طريقه الذى هداه ووجهه إليه خالقه . لأنه محكوم بقدرة ، وسائر بارادة ، ومنظم بتدبير .

فسبحان ﴿**الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى**﴾

فالمخلوقات تتم فى أربعة مراحل : الخلق فالتسوية فالتقدير فالهداية . ولما كان الخلق هو إيجاد الشيء وإبرازه من العدم إلى الوجود ، فإن التسوية هى إحسان هذا الخلق واكمال صنعته ، بحيث يكون مهيئاً لأداء وظيفته وبلوغ كماله المقدر له ، وامداده بما به صلاحه وبقاؤه ، وجعله مستوياً معتدلاً متناسب الأجزاء ، بحيث لا يحدث تفاوت يخل بالمقصود منها .

لذا نجد أن الله سبحانه وتعالى بعد أن يقول للملائكة بأنه سبحانه سيخلق بشراً من طين ، فإنه يعقب هذا الخلق بالتسوية

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ [1]

﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ [2] ويقول سبحانه :

﴿الذى أحسن كل شىء خلقه﴾ [3]

﴿صنع الله الذى أتقن كل شىء﴾ [4] .

فالتسوية ، واحسان خلق الشىء أو إتقانه كلها تعبيرات تفيد التسوية .

فالتسوية إذن أخص من الخلق ، إذ أنه من الممكن خلق الشىء ويكون غير مسوى .

ولما كان الخلق يحتاج إلى تسوية واكمال خلقه بالصورة وبالكيفية التى يريدها الخالق ، ليكون مهيئاً ومعداً لأداء المهمة التى خلقه الله من أجلها ، وليبلغ بهذه التسوية الكمال المرجو له ، وبما يكون عليه صلاح أمره وقوام حياته وبقاؤه .

لهذا فقد إقتضت الحكمة الإلهية بأن تكون التسوية بترتيب ونظام ، وبتقنين وحساب ، بحيث تكون متلائمة مع مكانه وزمانه الذى خلق فيه ، ومع طرق معيشته وحياته وبحيث يكون هناك تناسق وانسجام مع غيره من المخلوقات : ﴿الذى أعطى كل شىء

---

(١) الحجر ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) ص ٧١ ، ٧٢ .

(٣) السجدة ٧ .

(٤) النمل ٨٨ .

خلقه ثم هدى﴾[1] **﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾**[2] **﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾**[3] .

فإذا كانت التسوية هي إعطاء كل شيء من الخلق والتصوير والابداع ما يؤدى به مهمته على الوجه اللائق به ، فإن التقدير إنما يكون بالكم الذى يصلح ولا يفسد ، وبالكيفية التى يتحقق بها التناسق والتوازن والإنسجام مع جميع وحدات الكون وأجزائه . وكما خلق الله عزّ وجلّ كل شيء بالصورة وبالكيفية التى تتناسب مع مهمته وتعينه على أدائها ، فقد هداه أيضاً إلى ما خلقه له وألهمه الغاية من وجوده ، ويسر له الطريق ، ليدرك غاية الكمال الذى يرتضيه لنفسه .

فتكون الهداية فوق الخلق والتسوية والتقدير . لأنه سبحانه قد بثها بحكمته فى كل شيء سواء حى أو جامد ، صامت أو ناطق ، متحرك أو ساكن ، عاقل أو غير عاقل .

إذ الهداية ليست خاصة بالمكلفين أو العقلاء ، وليست مقصورة على الكائنات الحية ، بل إنها تشمل كل المخلوقات . قال تعالى : **﴿سبح إسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى﴾**[4] .

فما من شيء فى الوجود إلّا وقد خلقه الله عزّ وجلّ بمقدار معين على مقتضى حكمته ، ثم سواه وأعطاه القدر الذى يناسبه ليتلاءم مع جميع المخلوقات من حوله ، فلا يشذ عنه ، ثم هداه إلى ما خلقه له

---

(١) طه ٥٠ .
(٢) القمر ٤٩ .
(٣) الفرقان ٢ .
(٤) الأعلى ١ : ٣ .

ليثبت الغاية من وجوده .

وإذا تركنا الهداية الخاصة بالمكلفين والعقلاء ، فلننظر هداية الله سبحانه وتعالى لباقى المخلوقات الغير عاقلة :

من الذى هدى المياه وأودع فى طبيعتها القوة والقدرة على حمل السفن الضخمة حاملة الأثقال بالرغم من سيولتها ، ومن الذى أودع فيها الرى لجميع الأحياء ؟

من بسط الأرض ومهدها ، وجعل الجبال فيها رواسى حتى لا تميد بنا ، وأجرى فيها الأنهار ، وجعلها تنبت من كل الثمرات ؟

ومن الذى جعل النبات يختلف فى شجره وشكله ولونه وطعمه وثمره ، وجعل منه ما هو حلو وما هو مر ، مع أن الأرض التى ينبت فيها واحدة ، والماء الذى يسقى به واحد ؟

من الذى هدى النبات ليستنشق ثانى أكسيد الكربون الذى يخرجه الإنسان ، وجعله يخرج الأكسوجين اللازم لحياة الإنسان والكائنات الحية الأخرى ؟

من الذى جعل الشمس لا تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وهدى كل منهم إلى الفلك الذى يسبح فيه دون تعثر أو تعطيل ؟

من الذى أكسب الجو القدرة والقوة التى تمكنه من حمل الطائرات حاملة الأثقال التى تسبح فيه .

من الذى يشق الأرض لينبت فيها الحب ، ويجعله يوجه جذره فى أعماق الأرض ، ويوجه سوقه لأعلى ؟

من الذى رعى جميع مخلوقاته ، ووجهها إلى معيشتها ، وأرشدها إلى ما به بقاؤها وحفظ حياتها ؟

من الذى أعطاها النماء والحياة ، وزودها بعناصرها ومكوناتها ووسيلة تكاثرها ؟

من الذى نظمها فأحسن تنظيمها ، وأعطاها فرصة الوجود فى هذا العالم ؟

ذلك هو الله الذى يؤمن بقدرته كل شيء ، ويخلق ويرزق ويحيى ويميت ، ويقضى وينفذ ، ويعز ويذل ، ويقلب الليل والنهار ، ويداول الأيام بين الناس .

إن الإنسان حينما يسرح بخواطره وتأملاته فى تلك الحقائق الثابتة والمذهلة ، ويخفق فؤاده وينبض قلبه ، ويتحرك وجدانه ، فيحس بروحانية تكسوها مهابة واجلالاً واكباراً ، وتقديراً واعظاماً ، لمن لا حياة لأى مخلوق إلّا به ، وتقديراً واعظاماً ، لمن لا حياة لأى مخلوق إلّا به ، ولا وجود لأى كائن بدونه ، ولا تستقيم المخلوقات إلّا بتدبيره وأحكامه .

سبحانك ربى سبحانك : إن العقول قد أضحت حائرة ، والعيون صارت شاردة ، والقلوب أمست خاشعة وخاضعة حيرة وشرود وخضوع وخشوع .

﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى﴾ (١)

إن الإنسان لو سار على منهج الله وهدى الله ما انتابته حيرة وما ساوره أى شرود مطلقاً ، بل إنه يخضع ويخشع ويسلم ، كما تخضع وتخشع وتسلم باقى المخلوقات الأخرى غيره . فلقد قلنا أن أول آيات

---

(١) العلق ٦ : ٨ .

نزلت من القرآن الكريم على رسولنا ﷺ فيها توضيح لكل ذى لب وبصيرة بأن كل ما يصير إليه هذا الإنسان من تقدم علمى وحضارى ، إنما يكون بقدرة وإرادة الله سبحانه وتعالى لأنه سبحانه هو ﴿**الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ .

ولكن للأسف فإننا نرى أنه كلما زاد التطور والارتقاء ، كلما زاد معه غرور الإنسان ، غروره بفكره ، وغروره باستعلائه .

فكلما تقدم الزمن ، وتقدم العصر ، وابتكرت العقول ، إستعلى الإنسان بفكره وعقله ، وظن أن له استغناء عن ربه .

العقل الذى به يخطط الإنسان ويفكر . هل للإنسان فضل فيه ؟

المادة التى يستغلها ويصنعها . هل للإنسان فضل فى وجودها ؟

إن كل إرتقاء فى البشرية ، مما لا شك فيه بأنه نتيجة لأعمال العقل ولكن هذا العقل الذى خلقه هو الله ، والذى هداه إلى ذلك هو الله ولا فضل للإنسان فى ذلك سوى أنه اكتشف مخلوقات الله عزّ وجلّ ، وألهمه الله سبحانه وتعالى إلى كيفية استغلالها . فقبل أن يغتر الإنسان بأنه قد فكر أو اخترع أو إبتكر شيئاً ، لا بد وأن يشكر أولاً وقبل أى شىء من وهب له هذا العقل ، ووجهه وأرشده وألهمه إلى كيفية استغلال هذه المخلوقات ، وذللها له .

وليضع فى إعتباره دائماً بأن صحته وطاقته وقوته وفكره إنما هم شىء عارض ، ويستطيع الذى منحهم له أن يسلبهم منه فى أقل من لمح البصر .

بدليل أننا نسمع ونشاهد أن أناساً كانوا مفكرين وعبقريين وأفذاذ قد نقلهم الله سبحانه وتعالى بقدرته من عداد المفكرين

والعباقرة إلى عداد المجانين .

فالذى يتفاعل مع الأسباب سوف تمده الأسباب ، لأن الذى خلق الأسباب خلق لها المسببات .

وحين يرى الإنسان أن الأسباب تواتيه ، ويظن أنه الفاعل لهذه الأشياء ، وينسى أن الله عزّ وجلّ هو الذى سخر له هذه الأشياء ، فإنه يغفل عن أن كل شيء من ابداع وخلق المسبب وما عليه إلّا أن يصحح مساره فى الحياة ، ويعلم بأنه ما سخرت له هذه الأشياء إلّا لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى قضى بذلك . والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم : **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** [(١)] **﴿الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون﴾** [(٢)]

حقاً إن الطفل حينما يولد فإنه لا يعلم شيئاً ، ولكن يبدأ تعليمه حينما تعلمه أمه أسماء الأشياء من حوله ، وذلك لحكمة اقتضتها مشيئة الخالق البارىء .

كما اقتضت حكمته سبحانه أن يخلق هذا الجنين ثم يمن عليه بنعمتى السمع والبصر ، ولكننا إذا ما تأملنا هذه الآيات وقوله سبحانه : **﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً**

---

(١) النحل ٧٨ .

(٢) السجدة ٧ : ٩ .

بصيراً﴾(٣) فإننا نجد أن الآيات تذكر السمع والبصر ولكنها تأتى دائماً بالسمع متقدماً على البصر .

﴿السمع والأبصار﴾ ﴿سميعاً بصيراً﴾

لأن الذى خلق ووهب السمع والأبصار هو سبحانه الذى يقول : وعندما يقول فإنما يقول لمن علم وعن دراية وعن خبرة بما خلق ، إن الجنين يبدأ بالسمع أولاً حينما يكون فى بطن أمه ، ولكنه لا يرى إلّا بعد أن يولد ، وإننا لو جئنا بطفل حديث الولادة وحركنا شيئاً أمام عينيه ، فإنه لا يحرك قرنيتيه مهما حركنا هذا الشىء أو قربناه من حدقتيه .

وواو العطف التى جاءت بين قوله سبحانه **﴿وجعل لكم السمع والأبصار﴾** تفيد تأخر ما بعدها عما قبلها .

ولكى يتيقن الإنسان أن مهارته وفكره وخبرته إنما هى منحة واكتساب من الله جلّ جلاله ، فإن عليه أن يتجول بفكره وعقله ووعيه كيف خلقه الله عزّ وجلّ ، وما هى المراحل التى مرّ بها حتى وصل إلى هذا العلم الذى أعطاه هذه المهارة وهذه الخبرة ، ليتأكد بأن كل شىء **﴿صنع الله الذى أتقن كل شىء﴾** .

---

(٣) الإنسان ٢ .

فلينظر الإنسان ممّ خلق ؟

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿**هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن أتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين**﴾ [1] يوضح لنا الخالق عزّ وجلّ بأن حمل المرأة يكن تلقائياً أو بالصدفة ولكنه سبحانه يوضح لنا أن الحمل يتم عندما يتغشي الرجل المرأة ، أى يجامعها ، ويكون الحمل فى بدايته حملاً خفيفاً لا تشعر المرأة بثقله إلّا بعد أن يكبر الجنين ويتخلق فى بطنها .

فالحمل لا يتم للمرأة إلّا بعد أن تتزوج ، فلما يتغشاها هذا الزوج فإنها عندما يريد الله لها أن تحمل فسوف تحمل .

ولذا كان من بديع صنع الخالق عزّ وجلّ أن جعل للرجل جهازاً تناسلياً خاصاً ، وجعل مهمته قذف السائل المنوى فى فرج الأنثى عند إتمام اللقاء الجنسى بينهما .

كما جعل سبحانه للأنثى جهازاً تناسلياً خاصاً ، وجعل مهمته إخراج بويضة ناضجة شهرياً ، واستقبال السائل المنوى الذى يقذفه الرجل فى فرجها .

وأثناء هذا اللقاء الجنسى بينهما ، يقذف الرجل فى كل مرة متوسط ٧ سم^3 من السائل المنوى ، وكل ١ سم^3 يحتوى على حوالى ٦٠ مليون حيوان منوى ، أى أن متوسط ما يقذفه الرجل فى المرأة من حيوانات منوية حوالى ٢٥٠ : ٤٠٠ مليون حيوان منوى . وهذا

---

(١) الأعراف ١٨٩ .

الحيوان لا يتجاوز طوله ٥٠ ميكرون أى ٠٥،٠ من الملليمتر. وهذه الحيوانات تكون عالقة وسابحة فى السائل المنوى الذى يقذفه الرجل ، ولهذا فقد عبر عنه الخالق عزّ وجلّ بقوله تعالى : ﴿**خلق الإنسان من علق**﴾[(١)] وبأنه ماء دافق ، لأنه يتدفق من دبر الرجل ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق**﴾[(٢)]

وإذا أخذنا جزءاً من هذا السائل المنوى ووضعناه على شريحة زجاجية لنراه تحت عدسة الميكروسكوب ، فلا يسعنا حقيقة إلى أن نسجد لله عزّ وجلّ مقرين ومعترفين بعظيم قدرته ، ودقة صنعه وإبداعه ، حينما نرى عدداً هائلاً يملأ مسطح الشريحة ، الكل فى حركة سريعة ودائبة . وصدق الله العظيم ﴿**أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون**﴾[(٣)] .

وعندما يشاء الله سبحانه وتعالى للمرأة أن تحمل ، فإنه سبحانه يأمر الحيوان المنوى المختار ليخترق البويضة ، ويأمر البويضة لتستعد لهذا اللقاء .

---

(١) العلق ٢ .

(٢) الطارق ٥ ، ٦ .

(٣) الواقعة ٥٨ ، ٥٩ .

ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين

القرار المكين هو رحم الأم ، وفى وصفه بأنه مكين إعجاز علمى دقيق ، لا يدركه إلّا الأطباء والدارسون لعلم التشريح .

وقد ثبت أن الرحم مجهز فى تكوينه وفى خصائصه بما يمكن تمكيناً تاماً من حفظ البويضة بعد إخصابها ، ووقايتها والدفاع عنها .

فحينما يقذف الرجل السائل المنوى فى فرج الأنثى ، فإن الحيوانات المنوية التى تكون عالقة به ، تكون فى صراع وتسابق رهيب يحاول كل واحد منها أن يظفر ببويضة الأنثى ليخصبها .

وفى اللقاء الذى يريد فيه الخالق عزّ وجلّ للمرأة أن تحمل ، تكون البويضة قد جاءها الأمر الإلهى أن تستعد للقاء أحد هذه الحيوانات المنوية ، فيخرج منها بروزاً لكى تستقبل به هذا الحيوان عند وصوله إليها ، وبعد أن يصل إليها ويخصبها تحيط نفسها بغشاء رقيق ، لتدفع به عن نفسها دخول غيره من الحيوانات المنوية المتسابقة .

ولهذا قضت الحكمة الإلهية بألا يخلق ولد من رجلين مطلقاً .

ومن الطبيعى أنه لا يحدث إخصاب للبويضة أى حمل للمرأة فى كل مرة يلتقى فيها الرجل بالمرأة ، فعندما يريد الله عزّ وجلّ لها أن تحمل فإنه سبحانه يهيىء الأسباب لذلك ويتم الحمل .

ولكننا قلنا إن عدداً هائلاً يقدر بمئات الملايين من الحيوانات المنوية ، يقذفه الرجل فى فرج الأنثى ، فلا يخترق البويضة لكى يخصبها سوى حيوان منوى واحد من هذا الكم الهائل .

فهل هو الحيوان المنوى المذكر ، أم هو الحيوان المنوى المؤنث ، أم هو الحيوان القوى النشط ، أم هو الحيوان الضعيف ؟

إن الخالق عزّ وجلّ يقول : ﴿**يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً**﴾ (١)

فالذى يخترق البويضة من هذه الحيوانات هو حيوان لا يختلف عن غيره ، ولا يفترق عمن سواه ، ولكن وقع الاختيار الإلهى عليه ، أهو ذكر ، أهو أنثى ؟ إنه أمر الله عزّ وجلّ .

لأنه سبحانه هو الذى ﴿**يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ (٢) فبمجرد أن يتلقى الحيوان المنوى المختار الأوامر الإلهية ، فإنه سبحانه يكسبه حركة أكبر ، ونشاطاً أكثر ، فيتفوق على أقرانه ويندمج فى البويضة ليخصبها .

وقد ذكرنا فيما سبق أن قد أودع فى صلب أبينا آدم عليه السلام ماءه المحتوى على ذريته إلى يوم القيامة ، قال إبن عباس رضى الله عنهما (سألت رسول الله ﷺ فقلت : فداك أبى وأمى ، أين كنت وآدم فى الجنة ؟ قال : فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال : (**كنت فى صلبه ، وركب بى السفينة فى صلب نوح ، وقذف بى فى النار فى صلب أبى إبراهيم ، لم يلتق أبواى على سفاح قط ، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذباً لا تتشعب شعبتان إلّا كنت فى خيرهما .... الحديث**) .

---

(١) الشورى ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) آل عمران ٤٧ .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قلت يا رسول الله أين كنت وآدم فى الجنة ؟ (**قال كنت فى صلبه ، وأهبط من الجنة وأنا فى صلبه ، وركبت السفينة فى صلب نوح ، وقذفت فى النار فى صلب إبراهيم ، لم يلتق فى أبوان قط على سفاح ، لم يزل ينقلنى من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام النقية ، مهذباً لا تتشعب شعبتان إلّا كنت فى خيرهما**)

وقد روى القطان بأنه ﷺ أول من أخذ عليه الميثاق يوم قال تعالى : ﴿**ألست بربكم ؟**﴾ وأنه أول من قال (بلى) .

ويتضح من ذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل فى صلب آدم عليه السلام ماءه المحتوى على ذريته الذين سيخلقهم الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة ، وظل هذا الماء ينتقل من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ويبرز الله سبحانه وتعالى من ذريته من يشاء ، وفى الوقت الذى يريده ، وبالكيفية التى يريدها إلى أن تقوم الساعة . فما السائل المنوى الموجود فى ظهورنا وظهور جميع الأجيال التى سوف تأتى بعدنا إلّا وهو مستمد مما أودعه الله سبحانه وتعالى فى صلب أبينا آدم عليه السلام . فالحيوان المنوى الذى قدر الله سبحانه وتعالى له بأن يكون فلان أو فلانة ، هو الذى يوجهه الله سبحانه وتعالى بقدرته لكى يخصب البويضة ، ليتكون من إندماجهما معاً فلان أو فلانة ، بحسب تقدير الله سبحانه وتعالى ومشيئته .

كما أوضحنا سابقاً بأن الله تعالى كان ولم يكن شىء غيره ، وبعد أن خلق سبحانه الماء والعرش ، خلق القلم وقال له أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

فقد قدر الله سبحانه وتعالى أزلاً بأنه سبحانه سوف يخلق

وسوف يكون لآدم ذرية ، ولذا فقد جعل له من نفسه زوجاً ، ثم أودع فى صلبه ماءه المحتوى على ذريته إلى يوم القيامة .

فتقدير الذرية التى سيخلقها الله سبحانه وتعالى من البشر مقدرة منذ الأزل قال تعالى : **﴿إنا كل شىء خلقناه بقدر﴾** .

أى أنه سبحانه قد قدر منذ الأزل لكل إنسان بأنه سوف يخلق فى يوم كذا ، ويولد فى يوم كذا ، ويرزق فى دنياه بكذا وكذا ، ويكون فى حياته شقياً أو سعيداً ، ثم يموت يوم كذا ، ويدخل قبره فى ساعة كذا وفى الدقيقة كذا وفى الثانية كذا ، فلا بد وأن يمده الله بالأسباب المسببة لوجوده ، والتى تجعله فى حياته شقياً أو سعيداً .

عن عبد الله رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال : (**إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً ويؤمر بأربع كلمات ويقال له أكتب : عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم يُنفخ فيه الروح**) رواه البخارى ومسلم . والواضح من هذا الحديث الشريف أن الله سبحانه وتعالى حينما يبعث الملك لينفخ الروح فى الجنين ، فإنه سبحانه يأمره بأن يكتب عمله ورزقه وأةجله وشقى أو سعيد . ومادام أن الله عزّ وجلّ هو الذى يأمر الملك بذلك ، فيكون قضاءه سبحانه سابق على ذلك ، وعلمه سبحانه وإرادته لكل ذلك منذ الأزل . ولهذا فإنه سبحانه هو الذى يوجه هذا الحيوان الضعيف ، ويرشده ليعرف طريقه ليقوم بمهمته التى خلقه الله لأجلها ، لينفذ ما قضى الله سبحانه وتعالى به .

وحينما نستعرض قوله تعالى : ﴿**وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى**﴾[1] وقوله سبحانه : ﴿**ألم يك نطفة من مني يمنى**﴾[2]

فإننا نجد أن لفظ «من» إنما جاء ليعبر عن بداية التخليق الذى يتم ، أى أن بداية التخليق إنما تكون من واحد من هذه الملايين من الحيوانات المنوية التى تقذف مع السائل المنوى ، وليس نتيجة لاختراقها جميعها للبويضة .

فبعد أن يتم قذف السائل المنوى فى الرحم ، فإن الملايين من الحيوانات المنوية التى يحتويها هذا السائل ، تكون فى تسابق رهيب بواسطة ذيولها التى تظل تتلوى وتتحرك مسرعة إلى طريقها الذى أوحى الله لها به .

وأود أن أذكر أيضاً بأن كل أنثى لها مبيضان يحتويان على أكثر من ٢٥٠ ألف بويضة غير ناضجة ، حيث تنضج واحدة منها كل شهر بالتناوب فيما بينهما . أى أن أحد المبيضين يخرج بويضة ناضجة فى شهر ، ويخرج المبيض الآخر بويضة مماثلة فى الشهر الذى يليه .. وهكذا .

وبالرغم من وجود هذا العدد الهائل من الحيوانات المنوية عند كل لقاء جنسى ، ووجود بويضة ناضجة شهرياً ، إلّا أنه لا يتم الحمل إلّا إذا أراد الله سبحانه وتعالى . فبمجرد أن يريد الله سبحانه وتعالى للمرأة أن تحمل عند أى لقاء جنسى بينها وبين الرجل ، فإنه

---

(١) النجم ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) القيامة ٣٧ .

سبحانه يصدر أوامره للحيوان المنوى المختار أن يتوجه ليخصب البويضة ، وأوامره للبويضة أن تستعد لهذا اللقاء .

وعندئذ يأتى الحيوان المنوى إلى البويضة فى عكس إتجاهها ، أى يكون كل منهما مقبل على الآخر ، وعندما يلتقيان يخترقان ليخصبها .

وباندماجهما معاً تتكون خلية ضئيلة الحجم والوزن ، لها من الخصائص ما تمتاز به عن باقى الخلايا الأخرى فى الكائنات الحية .

هذه الخلية تتركب من غشاء أو جدار يحيط بمادة هلامية هى السيتوبلازم الذى تقبع فى وسطه النواة .

والنواة من أهم أجزاء الخلية ، إذ أنها هى التى تحمل جميع الصفات الوراثية للإنسان فيما تحويه من شبكة من الخيوط تعرف باسم الشبكة الكروماتينية . ثم لا تلبث أن تنقسم النواة بداخل الخلية إلى نواتين متماثلتين إلى أربع .. وهكذا فى إنقسام متصاعد وسريع ، فيكون بداخل الخلية عدداً كبيراً من الانقسامات الضئيلة المتناهية فى تلك المسماة «الكرموزومات أو الجينات» وهذه تأخذ شكل وصفات الخلية الأصلية .

ولأن الخلية الأصلية ناشئة أصلاً من إندماج الحيوان المنوى فى البويضة ، وهذه الكروموزومات أو الجينات صورة مصغرة منها ، فإنها تكون حاملة لكافة الصفات الوراثية التى يكتسبها الجنين ، منحدرة من هذا الأب أو تلك الأم أو منهما معاً . وربما من صفات قد تكون مستترة فى الأبوين قد قدمت من الأجداد . ولا يتحكم فى إكساب الجنين بعض هذه الصفات أو كلها أحد مطلقاً سوى الخالق البارىء المصور .

إن هذه الصفات التى تحملها الكرموزومات أو الجينات على هيئة شفرات أو رسائل مكتوبة ومحسوبة ومقدرة لتقوم الخلايا عند تكوينها وانقسامها بتشكيلها فيها وتنفيذها فى كل عضو مقدر له هذه الصفة .

إن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه لم يكن لديه معمل به ميكروسكوب أو آلات للتشريح ، فما اخترع الميكروسكوب إلّا عام ١٦٨٣م أى بعد مرور أكثر من ألف عام على نزول القرآن الكريم . ولكنه صلوات الله وسلامه عليه يعلمنا بما علمه الله سبحانه وتعالى به موضحاً أن الصفات يكتسبها الأبناء عن الآباء والأجداد ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : **(تخيروا لمواضع نطفكم فإن العرق دساس)** وصدق الخلاق العظيم إذ يقول : ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج**﴾[1] ومشج الشىء أى خلطه ، والأمشاج جمع لها أى أخلاط .

فى القذيفة المنوية الواحدة خليط بين الحيوانات المنوية المذكرة والمؤنثة ، والنوعان مختلفان فى الكتلة وفى السرعة مقاومة الحموضة أو القلوية ، وفى القدرة على إختراق لزوجة إفراز عنق الرحم .

وعندما يندمج الحيوان المنوى مع البويضة ، فإنها تنشط وتبدأ فى الانقسامات المتصاعدة والسريعة مكونة الكروموزومات ، وهذه الكروموزومات التى تحتويها تلك الخلية هى عبارة عن أمشاج تنتشر فى داخلها ، لأنها تحمل خليط من صفات الأبوين أو الأجداد . وإذا ما دققنا البحث لوجدنا أن هذه الكروموزومات تتكون من

---

(١) الإنسان ٢ .

جزئيات . والجزئيات تتكون من جزئيات أصغر . والجزئيات الأصغر تتكون من ذرات .

والنواة هى الخريطة البديعة التى رسمها الخالق الأعظم لكل كائن حى . وأودع فيها الأسرار . فتنقسم ثم تنقسم . وتكبر ثم تكبر . وتتشكل بقدرته سبحانه . ولكن على أساس الوحدات الأساسية التى تدخل فى تركيب وتناسق كل كائن حى .

وفى الخلية الناشئة من إندماج الحيوان المنوى مع البويضة يوجد إثنان وعشرون زوجاً من الأمشاج . هذا بالإضافة إلى زوج آخر له فى تحديد جنس المخلوق شأن يذكر .

أى أن ما تحتويه الخلية بالضبط ستة وأربعين كروموسوما أو مشيجاً . لا تزيد ولا تنقص عن هذا العدد . وقد ذكرت بأن عدد الكروموزومات ثلاث وعشرين زوجاً . لأن الستة وأربعين تكون كل إثنين معاً . أى أن كل كروموسوم من الستة وأربعين الموجودة فى الخلية قد جاء على هيئة زوج مترابط قرب منتصفه كهذا الشكل (X) .

فسبحان الله : لقد نشأت الخلية من إلتقاء الزوجين . وتكون الانقسامات بداخلها زوجين زوجين . فصدق الخالق العظيم حيث يقول : ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين**﴾[1] .

ولهذا فقد أصبح عدد الكروموزومات ثلاث وعشرين زوجاً .

فسبحان من عرف كل زوج زوجه من هذه الكروموزومات وجعله يتقابل معه . ويسكن إليه . ويلتحم به . ويتبادل معه

---

(١) الذاريات ٤٩ .

الصفات الوراثية .

وبعد ذلك فإننا لن نجد أروع ولا أبدع ولا أعظم مما يوجهنا إليه الخالق عزّ وجلّ بقوله ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾[1] .

إنه بعد أن التحم كل كروموسوم مع غيره ، وأخذ منه ما أخذ بحسب مشيئة وارادة الخالق جلّ في علاه . تبدأ عملية الفصل بينهما .

ولا بد وأن يكون ذلك في غاية من الدقة والنظام ﴿**وخلق كل شيء فقدره تقديراً**﴾[2] .

لأن الخلل في النظام والخطأ يؤدى إلى مرض ، والمرض إذا نشأ من خطأ في الكروموزومات لا يمكن إصلاحه . لأنه سوف يؤدى إلى وجود عاهة ربما لا يجد الطب لها علاجاً . ولكن الخالق عزّ وجلّ يوحى في كل خلية أمرها ، ويعطيها نظامها ويرسم لها خطتها ، لتشق طريقها حسبما يريد الله سبحانه وتعالى .

وبالرغم من تعدد هذه الإنقسامات المتصاعدة والسريعة ، فإننا نجد أن الخلية في حالتها الأولى لا تحتاج إلى غذاء خارجى ، ولكنها تستمد غذاءها من داخلها ، وبالتالى فإنها لا تكبر ، لأنها سوف تمر بعد ذلك في قناة ضيقة تسمى (قناة فالوب) فتمشى من خلالها متدحرجة حتى تصل إلى الرحم .

فهل يتعظ الإنسان بذلك ، ويثوب إلى رشده ، ويتوب إلى

---

(١) العنكبوت ٢٠ .

(٢) الفرقان ٢ .

ربه قبل أن يأتيه الأجل المحتوم . ويتذكر دائماً قول الخالق عزّ وجلّ **﴿قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره﴾**[1] .

---

(١) عبس ١٧ : ٢٢ .

ثم خلقنا النطفة علقة

إن الخلية (البويضة المخصبة) تنزلق عبر قناة فالوب بواسطة الغشاء الخارجي الأملس (زونا بلللوسيدا) وبمجرد وصولها إلى فراغ الرحم سرعان ما ينفذ إليها سائل منه ليخترق غشاءها الخارجي الذي يحيط بها ، ذلك الغشاء المسمى «زونا بللوسيدا» ثم يأخذ هذا السائل طريقه حول مركزها ، حيث تتكتل وتتجمع خلايا المركزية التي تكون قد تكونت بعد أربعة أيام من إنزلاقها من المبيض عبر قناة فالوب . فيملأ هذا السائل ذلك التجويف المحيط بالخلايا المركزية ، لتتكون في داخلها فجوة تسمى «البلاستوسيل» حينئذ تنمو الخلية وتتضخم فينفجر غشاؤها الخارجي ، لعدم قدرته على الاستمرار فيتمزق .

وبعد أن تفقد الخلية غشاءها الخارجي تصير لزجة ، لتكون قادرة على التعلق والالتصاق بجدار الرحم .

وهذا يحدث غالباً في اليوم الثامن من إخصاب البويضة . وقد أطلق الله سبحانه وتعالى على هذا الطور «علقة» ليقرب شكلها إلى أذهاننا . ولقد سماها الله سبحانه وتعالى بهذا لأنها تتعلق بجدار الرحم ، أو لشدة تعلقها بالرحم . وفي هذه الحالة يكون طولها حوالى نصف ملليمتر . ﴿**ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**﴾[1] وتفرز هذه العلقة إفرازاً يذيب ما حولها من أنسجة التصقت بها ، حتى يسيل الدم الطازج فتمتصه من رحم الأم

(١) الحج ٥ .

لتتغذى عليه .

وبعد اليوم الثامن عشر تقريباً تمتد من تلك الخلية بروزات دقيقة تتغلغل داخل جدار الرحم ، ثم تمتد بروزات أخرى مشابهة ومقابلة لها من جدار الرحم لتتشابك مع بعضها . لتكون أوعية دموية . يصل من خلالها الدم والأكسجين من الأم إلى العلقة . ويستمر الغذاء عن طريقها منذ أن تكون العلقة إلى أن يتم الوضع .

فخلقنا العلقة مضغة

يقول الخالق جلّ وعلا : ﴿**يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم . ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم . ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً**﴾ (١) .

توضيح عظيم من الخالق الأعظم جل جلاله لبيان مراحل تخلق الإنسان . فالخلية (البويضة المخصبة) بعد أن تتعلق بجدار الرحم . وتتم إنقساماتها المتعددة بداخلها . فإنها تنمو لكى تبدأ مرحلة التخلق . فتصبح كتلة غير منتظمة الشكل أسماها الله سبحانه وتعالى مضغة .

ولقد أسماها الله سبحانه وتعالى مضغة ليقرب الشبه فى

(١) الحج ٥ .

أذهاننا ، فهى على هيئة قطعة اللحم التى يمضغها الإنسان بين أسنانه . والمضغة كما أخبرنا الله عزّ وجلّ بأنها تحتوى على خلايا مخلقة وغير مخلقة . فالخلايا المخلقة هى التى تتخصص فى عمل ما يخصها فى بناء هذا الجنين ، فتخصص مجموعة منها فى بناء الهيكل العظمى ، ومجموعة تتخصص فى بناء الجهاز العضلى ، وأخرى فى بناء الجهاز العصبى ، ومجموعة لبناء الجهاز الليمفاوى ، ومجموعة لبناء الجهاز التنفسى ، ومجموعة لبناء الجهاز الدورى ، ومجموعة لبناء الجهاز الهضمى ، ومجموعة لبناء الجهاز التناسلى ، ومجموعة لبناء الجهاز البولى ، ومجموعة لبناء أجهزة الذوق ، وأخرى لبناء جهاز الشم ، وأخرى لبناء جهاز السمع ، وأخرى لبناء جهاز الابصار ، وأخرى لبناء جهاز الحس .

أما الخلايا الغير مخلقة فهى الخلايا الموجودة داخل المضغة وتحيط بالخلايا المخلقة ، لوقايتها وامدادها بالغذاء .

وفى قوله تعالى : ﴿**ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**﴾ بيان من الخالق عزّ وجلّ بأنه يمكن نزول الجنين من الرحم فى أى وقت ، سواء قبل اكتمال نموه ، أو عند مرحلة التخلق ، أو أى مرحلة من مراحل تكوينه إبتداء من تعلق تلك العلقة بالرحم إلى ميعاد الوضع الطبيعى للجنين .

فاستمرار واستقرار الجنين فى الرحم دون أن يلفظه ، وبقاؤه حتى تحين ساعة الوضع ، أو نزوله قبل ذلك إنما يرجع إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى خالق الرحم وما حوى .

ولهذا نجد أن بعض النسوة لا يستكملن أشهر الحمل ، لأن الخالق عزّ وجلّ هو الذى قدر الأجل لكل مخلوق .

فهناك من يموت قبل أن يكتمل نموه ، ومن يموت فى شبابه أو عقب ولادته ، ومن يرد إلى أرذل العمر ، بحسب إرادة الله ومشيئته .

فخلقنا المضغة عظاماً

وهذه أهم مراحل التخلق جميعها ، وقد ذكرها لنا الخالق عزّ وجلّ لكى نعى ونتأمل قدرته سبحانه واعجازه فى كيفية تحويل تلك الخلايا اللينة ضئيلة الحجم والوزن إلى أجسام ذات قوة وصلابة . وكيف تقوم تلك الخلايا المكلفة بأن تكون عظاماً بعملها بدقة واحكام . وكيف تحدد مكان كل عظمة ، وشكلها ، وحجمها ؟ وكيف تنتهى من هذا العمل فى الوقت الذى حدده الله سبحانه وتعالى لها .

فكسونا العظام لحماً

إن عملية إكتساء العظام باللحم متممة ومكملة لمرحلة تخليق المضغة التى تعتبر من أهم المراحل فى التكوين البدنى للجنين .

فمن عجيب صنع الله تعالى أن كل خلية مخلقة داخل المضغة تنطلق عندما تبدأ مرحلة التخلق ، وهى تعلم تماماً مهمتها التى خلقت من أجلها ، وتعرف تماماً إلى أى مكان فى الجسم تتجه ، وما هو المطلوب منها أن تفعله ، فتنفذ كل ما تؤمر به دون أن تخطىء أو تضل .

فمثلاً : الخلايا المكلفة بأن تكون عظاماً ، تعرف تماماً طول كل عظمة وشكلها ومكانها ، فتتجه إليه فوراً لتكون كما قدر لها الله سبحانه وتعالى . والخلايا المكلفة بأن تكون العيون ، تعرف تماماً مكان وحجم وشكل العينين ، فتتجه فوراً إلى هذا المكان ، وتثبت نفسها كما قدر لها الخالق عزّ وجلّ . والخلايا المكلفة بأن تكون أعصاباً ، تعرف تماماً مكان كل عصب ، وحجمه وشكله ، فتتجه إليه فوراً لتثبت نفسها فى هذه الأماكن . وإذا أردنا أن نوضح عمل كل مجموعة من الخلايا بالتفصيل ما وسعتنا مجلدات .

ولكننا لو تأملنا بحق عمل هذه الخلايا لوجدنا أنها بكل المقاييس وكل المعايير آيات فيها أسرار ، لا يمكن أن تقوم بعملها بهذه الدقة المتناهية إلّا نتيجة لقول الخالق عزّ وجلّ «كن» فتكون كما أمرها الله سبحانه وتعالى فى أقل من لمح البصر أو هو أقرب .

إنه إعجاز فوق إعجاز :

المنى منى الرجل والبويضة بويضة الأنثى ، ولكن هل يستطيع أحد منهم أن يتحكم فى الحمل من عدمه ؟

وهل يستطيع أحد منهم أن يتحكم من أجل إبقاء الجنين حتى نهاية اكتمال تخلقه فى الرحم .

وهل يستطيع أن يتحكم أحد فى خصوبة السائل المنوى إلّا بمشيئة الله عزّ وجلّ مسبب الأسباب ؟

وإذا كان السائل المنوى ليست به حيوانات منوية أيستطيع أحد أن يضيفها إليه ؟

ثم أنشأناه خلقاً آخر

يقول الخالق عزّ وجلّ ﴿**ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾[1] وإذا ما وعينا هذه الآية الكريمة وجدناها تعطينا إشارة مضيئة بأنوار الحق ، وتكشف لنا عن سر من أسرار الله تعالى فى خلق الإنسان . فتوضح لنا بأن هذا الإنسان وإن كان قد جرى خلقه فى بدء تكوينه على نسق المخلوقات الحيوانية ، التى تبدأ كذلك من النطفة فالعلقة فالمضغة فالعظام ثم تكسى العظام باللحم . إلّا أنه قد إنفرد بميزة عن هذه المخلوقات الحيوانية ، هذه الميزة تتضح فى اعقاب هذه السلسلة من الأطوار بقوله تعالى ﴿**ثم أنشأناه خلقاً آخر**﴾ أى مخالف ومغاير لهذه المخلوقات الحيوانية .

وهذا الخلق الآخر الذى أنشأ الله سبحانه وتعالى عليه هذا الإنسان ، ورفعه به عن سائر المخلوقات الأخرى ، إنما يكمن فى قوله تعالى ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحى**﴾[2] .

فما كان من نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه فى هذا الإنسان . كان هو ماميزه الله سبحانه وتعالى به عن غيره من المخلوقات بالعقل والارادة . فالإنسان يختلف فى هذه الناحية عن النبات وعن الحيوان .

فالنبات قاصر على مجرد النمو . والحيوان يأخذ عن النبات

---

(١) المؤمنون ١٤ .

(٢) الحجر ٢٩ . ص ٧٢ .

خاصية النمو مع الحركة ، ويهتدى إلى مصالحه تلقائياً وبالغريزة .

والإنسان فيه من النبات خاصية النمو ، ومن الحيوان خاصية الحركة ، ولكنه يتميز عنهما بادراك الأشياء بالجوهر العقلى الذى فيه .

ولما كان هذا الإنسان هو الوحيد الذى ميزه الله سبحانه وتعالى ، وكرمه بانفراده عن باقى المخلوقات بتلك النفخة الإلهية من روحه تعالى . لهذا فهو الوحيد الذى ميزه الله سبحانه وتعالى بأن خلقه بيديه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وعلمه أسماء الأشياء كلها ، ثم تفضل عليه وجعل له غذاء يخالف كل المخلوقات ، ألا وهو الغذاء الروحى .

فكما تفضل الله عليه بأن نفخ فيه من روحه ، فقد أوجد له غذاء ينمى هذه الروح ويزكيها ، فأنعم عليه بروح أخرى **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾**[1] وإن شئت قلت أيضاً بمأدبة أخرى ، يقول رسول الله ﷺ **﴿إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم﴾** .

فإذا ما جلس الإنسان إلى مائدة القرآن الكريم وغذى روحه من غذائها الطيب ، فلا بد وأن يكون هناك تآلف وانسجام بين روح الله (نفخة الله فيه) وروح من أمر الله (كلمات الله تعالى فى القرآن الكريم) .

فبعد أن يستكمل الجنين فى بطن أمه كل شىء من الخلق والتصوير والابداع ، واعطائه الصورة والكيفية التى يريدها له

---

(١) الشورى ٥٢ .

الخالق جل جلاله . وهذه هى مرحلة التسوية التى أخبرنا الخالق عزّ وجلّ عنها بقوله ﴿**فإذا سويته**﴾ وبعد مرحلة التسوية يدخل فى مرحلة أخرى عبر عنها الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿**ثم أنشأناه خلقاً آخر**﴾ وهذه المرحلة هى ﴿**ونفخت فيه من روحى**﴾ والنفخ هو خروج النفس من النافخ فى المنفوخ فيه . وكما بدأت الحياة بنفخ هذا النفس فى الإنسان فسوف تنتهى حياته بخروج هذا النفس منه . لأن الروح ليست مادة ، إنما هى طاقة لأنها لو كانت جسماً مادياً ، فإن مادتها إما أن تكون خارجة عن الجسم أو بداخله ، فإذا كانت خارج الجسم فكيف تؤثر وتتصرف فيه ؟ وإن كانت بداخله لكان ينبغى إذا بتر أى جزء من البدن أو تذيل الروح التى كانت بهذا الجزء وتنتقل من عضو إلى عضو ، وهذا لا يحدث . فالروح تبقى على قواها ، فلو قطعت اليد أو الرجل ، فإن القوى الروحية للبدن لا تتغير ولا تتبدل .

ولو كانت الروح فى البدن لضعفت مع ضعف البدن ومرضت بمرضه . ولما كانت الروح ليست مادة فهى لا تضعف ولا تمرض ولا تذبل . كما أنها ليست جزءاً من الجسم التى هى فيه ، ولكنها جوهر ، الذى يعلم سرها هو وحده الذى خلقها ، فقد أخبرنا سبحانه بسلسلة أطوار خلق الإنسان ، أما عن الروح فقد قال سبحانه ﴿**ويسألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً**﴾[1]

والروح هى التى تحكم البدن تماماً وليس البدن هو الذى يحكمها

---

(١) الإسراء ٨٥ .

أو يستعملها . فلو تأمل الإنسان حاله وقت نومه فإن أعضاء الجسم تكون فى شبه موت لا حركة لها ، فى حين أن الروح تنهض وتتحرك ، وتسافر وتتصارع ، وهذه هى الأحلام التى يراها النائم أثناء نومه .

كما أن روح الإنسان حينما تسير فى طريقها السليم ، فإنها تتخذ من البدن مطية لها وخادماً ليوصلها إلى أغراضها الشريفة .

ولذا يوضح لنا الله سبحانه وتعالى أن المرحلة الأخيرة لحياة الإنسان هى عندما تترك الروح بعضاً من أجزاء الجسد وتبلغ الحلقوم تمهيدا لفراق هذا الجسد ، ورغم وجود الكثير من أهل وأحباء من يصل إلى هذه المرحلة ، إلّا أن أحداً لم ير خروج الروح .

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ [1]

الناس فى ظهور آبائهم

إن من بين معجزات القرآن الكريم فى كشف الحقائق العلمية قول الخالق عزّ وجلّ :

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ [2]

---

(١) الواقعة ٨٣ : ٨٥ .

(٢) الأعراف ١٧٢ .

فالواضح أن خصيتي الرجل تكونان في الصفن أسفل البطن ، وهما المسئولتان عن إفراز الحيوانات المنوية . وقد أوضح لنا القرآن الكريم أن النطفة إنما تكون من المني الذي يمنى ، وهذه النطفة هي التي يكون على أساسها الجنين ، وهذا الجنين سوف يكون ذكراً أو أنثى حسبما يقدر الله عزّ وجلّ . قال تعالى :

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى﴾ [1] .

﴿ألم يك نطفة من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ [2] .

وفي هذا بيان من الخالق عزّ وجلّ أن الحيوانات المنوية منها الذكر ومنها الأنثى ، ولما جاء العلم الحديث وتم إكتشاف الميكروسكوب أثبت أن الحيوانات المنوية تحتوى على خلايا مذكرة «واى» وخلايا مؤنثة «أكس» ؛ كما أن كروموزوم الأنثى «أكس» فإذا التقى واى الذكر مع أكس الأنث صار الجنين ذكراً ، وإذا االتقى أكس الرجل مع أكس الأنثى صار الجنين أنثى .

وللأسف أن بعض الرجال يظنون أن المسئول عن نوع الجنين هي الزوجة ، فيتزوج بأخرى إذا ما أنجبت زوجته إناثاً لعل الأخرى تنجب البنين ، ولكنه يتضح أن المسئول عن نوع الجنين هو الأب وأن الأم غير مسئولة إطلاقاً عن تحديد نوع الجنين .

ولقد زعم أغلب المفسرون لقوله تعالى : ﴿فلينظر الإنسان ممَّ خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب﴾ [3] أن

---

(١) النجم ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) القيامة ٣٧ : ٣٩ .

(٣) الطارق ٥ : ٧ .

الجنين الذى يخلق من الماء الدافق إنما يخرج هذا الماء من بين صلب الرجل وترائب المرأة .

وذلك لزعمهم أن هناك فصل بين قوله تعالى ﴿**فلينظر الإنسان ممَّ خلق . خلق من ماء دافق**﴾ وبين قوله تعالى ﴿**يخرج من بين الصلب والترائب**﴾ كما زعموا أن كلمة «بين» تفصل الصلب عن الترائب .

وهذا الزعم مفتقر إلى مشاهدات صحيحة فى كيفية الخلق وفى وصوله من واقع قول الخالق الذى خلق فسوى ، لكى نحدد الصلب والترائب ومكانها وفى أى النوعين يكونان : أفى الذكر أم فى الأنثى أم فيهما معاً ؟

وقد رأينا فيما سبق أن أوردناه من آيات النجم والقيامة أن النطفة التى يكون منها تخلق الجنين من المنى الذى يمنى . وعندما نتلوا ونتدبر آيات سورة الطارق فنجد أن الله عزّ وجلّ يوجه نظر عباده وكأنه سبحانه يقول لهم :

فليعتبر الإنسان ممَّ خلق ؟ من أى شىء خلق ؟ فيأتى الجواب : خلق من ماء دافق . وأن هذا الماء يخرج من بين الصلب والترائب .

فالماء الدافق هو المنى ، والمنى لا يتدفق إلّا من الرجل ، أما الأنثى فلا يتدفق ماؤها ، وإنما تفرز الغدد هذا الماء عند التهييج الجنسى لتليين ثغر الفرج ، حتى يمكن إيلاج الذكر فيه دون الشعور بألم .

ولقد حددت آية الأعراف مكان وجود هذه النطف ، ولكى نستوضح ذلك بأسلوب علمى ، فإن ذلك يتطلب منا أن نبحث عن الصفة التشريحية للمكان الذى يخرج منه هذا الماء الدافق

ومكان تكوينه .

فلو نظرنا إلى تخليق الجنين وهو فى بطن أمه ، لوجدنا أن الأعضاء التى يبدأ بها تكوين خصيتى الذكر يكون مكانهما أسفل الكليتين تماماً .

والكليتان تقعان فى الجزء الخلفى من التجويف البطنى خلف البريتون ، أحدهما عن يمين العمود الفقرى والأخرى عن يساره .

وقبل الولادة تنحدر الخصيتان من أسفل الكليتين إلى مكانهما الطبيعى فى الصفن أسفل البطن ، وقد تعجز إحداهما عن الخروج من القناة الأربية وتبقى بداخلها ، فتكون أشبه بعقدة يمكن ملاحظتها عند الضغط عليها تحت الجلد ، وإن لم يمكن ملاحظتها فتكون عالقة فى مكانها أسفل الكلية .

وبالرغم من إنحدار الخصيتين من مكانهما إلّا أن الشريان الذى يغذيهما بالدم طوال حياتهما يتفرع من الأورطى فى محازاة الشريان الكلوى بين الكليتين وبجوار العمود الفقرى .

وإذا ما علمنا أيضاً مخ الإنسان يتكون من فصين ، فالفص الأيمن يسيطر على معظم نشاطات الجزء الأيسر من الجسم ، والفص الأيسر يسيطر على معظم نشاطات الجزء الأيمن منه .

والمخ هو مركز الشخصية ومركز التفاعلات ومركز القدرات . فهناك مركز للإبصار فى مؤخرة المخ ومركز السمع ، ومركز الإحساس ومركز اللذة ومركز الألم .... الخ ..

ففيه حوالى ألف مليون خلية تتصل ببعضها فى حوالى ستين ألف موقع .

والمعلومات تنتقل من وإلى المخ عبر الأعصاب بسرعة هائلة ، وبحسب الوظيفة التى تقوم بها أى خلية عصبية .

وتوجد بالجلد مجموعة كبيرة من المستقبلات الحسية التى هى عبارة عن أطراف الأعصاب الحسية ، ولكل نوع من الإحساسات أطراف الأعصاب الحسية الخاصة به ، فعندما تستقبل هذه المستقبلات الحسية الإحساسات تنقلها عن طريق ألياف عصبية لتصل إلى الحبل الشوكى الموجود داخل العمود الفقرى ، ثم يقوم الحبل الشوكى بتوصيل هذه الاحساسات إلى المخ ليميز هذه الإحساسات .

وإذا ما علمنا أن العمود الفقرى يتكون من عدة فقرات :

سبع فقرات عنقية ، وإثنا عشر ظهرية ، وخمس قطنية وخمس عجزية ، وأربعة عصعصية .

ويمتد الحبل الشوكى أو القناة الشوكية التى تحمل النخاع الشوكى داخل الفقرات الظهرية حتى الفقرة الأولى القطنية .

ولذا نجد أن الفقرات الظهرية ذات حجم كبير نسبياً . وإذا علمنا أيضاً بأن عدد الضلوع ١٢ زوجاً ، وأن كل زوج من هذه الأضلاع متصل إتصالاً مفصلياً بالفقرة الظهرية وأن الأعصاب تخرج من الحبل الشوكى عن طريق فتحات الظهرية التابع لها . وأن الأعصاب تخرج من الحبل الشوكى عن طريق فتحات وتدور حول الضلوع لتغذى منطقة الضلوع والصدر والبطن .

وهذه الأعصاب عددها ٣١ زوجاً منها إثناء عشر ظهرية . فتكون مهمة الفقرات حينئذ هى تدعيم وتثبيت منطقة القفص الصدرى والضلوع الصدرية المتصلة بها .

وتغطى منطقة العمود الفقرى والأعصاب والعظام المحيطة به مجموعة من العضلات القوية ، وتختلف هذه العضلات من حيث شكلها وحجمها وطولها وقوتها طبقاً للوظيفة المكلفة بها .

وكما أن الشريان المجاور للشريان الكلوى بجوار العمود الفقرى هو الذى يمد الخصيتين بالدم ليغذيهما . فإن هناك عصباً ينقل إليهما الإحساس ليساعدهما على إنتاج الحيوانات المنوية وما يصاحب ذلك من سوائل ، وهذا العصب متفرع من العصب الصدرى العاشر الذى يغادر النخاع الشوكى بين الضلعين العاشر والحادى عشر .

فبعد هذا التوضيح العلمى تتبين لنا بجلاء تلك الحقيقة العلمية ، التى توضح لنا هذا الاعجاز القرآنى فى قوله تعالى :

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ... الآية﴾[1] .

وقوله تعالى **﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾**[2] .

فالخصيتان منشؤهما أسفل الكليتين ، والكليتان أحدهما عن يمين العمود الفقرى والأخرى عن يساره ، فيكون بدء تخلق الخصيتين عن يمين الفقرات الظهرية الأخيرة وعن يسارها .

ويظل الشريان الذى يغذيهما بالدم فى محازاة الشريان الكلوى المجاور أيضاً لتلك الفقرات .

كما أن العصب الذى يجعل للخصيتين القدرة على إنتاج

---

(١) الأعراف ١٧٢ .

(٢) العلق ٧ .

الحيوانات المنوية والسوائل الخاصة بها متفرع من العصب الصدرى العاشر المتصل بالحبل الشوكى الموجود داخل الفقرات الظهرية والذى يخرج من بين الضلع العاشر والحادى عشر.

فليس هناك إذن تصادم بين ما أخبرنا به الخالق عزّ وجلّ، وبين الحقيقة العلمية التى أوضحت لنا أن المقصود بالصلب هو صلب الرجل، والترائب هى عظام صدر الرجل أيضاً.

وأن الماء المتدفق هو ماء الرجل، وهكذا فقد أخبرنا بذلك الخالق عزّ وجلّ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وسوف يرى الإنسان فى كل يوم دليل يزيل النقاب ويؤيد ما أثبته كتاب الله عزّ وجلّ من حقائق علمية.

إن الفكر العلمى أياً كان إنتماؤه لا يمكن إلّا أن يسلم بأن ما ورد فى القرآن الكريم إعجاز بكل الموازين، ولا يمكن أن يتم الّا بوحى أوسع من قدرة البشر. بوحى من الله تعالى خالق البشر. ولهذا فهو معجزة لكل العصور، معجزة نقرؤها كل يوم فنرى فيها الاعجاز دوماً، ونرى فيها الاتفاق والإنسجام مع معطيات العلم الحديث **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[1].

---

(١) فصلت ٥٣.

الوضـــــع

لقد هيأ الخالق عزّ وجلّ للجنين أن يتطور داخل كيس مملوء بماء مكيف. ومن رحمته سبحانه بهذا المخلوق الذى لا حول له ولا قوة، فقد تكفل بحفظه من أى أذى به، فأحاطه بثلاثة أغلفة بعضها فوق بعض، لتدفع عنه الاهتزازات والمؤثرات التى قد تضر به. قال تعالى: ﴿**يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك**﴾ ويقول بعض المفسرين بأنها: ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن.

ويقول آخرون بأنها ثلاث أغلفة (أغشية) أحدها مانعاً من نفاذ الماء إليه والثانى لمنع وصول الضوء إليه، والثالث لمنع وصول درجة الحرارة إليه.

كما أوضح الطب بأن للجنين ثلاث أغشية وتعرف باسم الغشاء المنبارى، والغشاء اللفائنى، وغشاء الخوريون.

وهذه الأغشية الثلاث ترى وكأنها غشاء واحد عند رؤيتها بالعين المجردة، ولا تظهر إلّا بالتشريح الدقيق.

وعندما تقترب ساعة الوضع تظهر للأم علامات وإشارات تهتدى بها لتستعد لإستقبال مولودها الجديد.

وأول هذه العلامات هى وجود إفراز مخاطى ممزوج بقليل من الدم، يليه ألم بالبطن وأسفل الظهر، يصاحبه تصلب الرحم. (إنقباضات الرحم أو ما يسمى عند العامة بالطلق).

ويمكن للأم أن تختبر نفسها عند وجود مثل هذه الالأم ، لتتأكد إذا كانت هذه آلام ولادة أم غير ذلك ، فتضطجع فى سريرها وتنتظر مجىء الطلقة ، ثم تضع راحى يديها على بطنها ، فإذا أحست بأن بطنها شبه متحجرة ثم تعود لحالتها الطبيعية بعد إنتهاء الطلقة ، فتكون هذه هى إنقباضات الرحم التى تعقبها الولادة . ثم يبدأ عنق الرحم فى الاتساع .

وعندئذ تكون غدد الولادة قد استعدت هى الأخرى ، وقامت بإفراز إفرازاتها ، التى منها ما يساعد على إنقباضات الرحم ، ومنها ما يسهل عملية إنزلاق الجنين .

وإذا ما حانت ساعة الوضع التى حددها الخالق عزّ وجلّ ، فإن جدار الرحم ينقبض ليضغط على جيب المياه لينفجر ، ثم يشتد الطلق ، ومع كل طلقة يزحف الجنين إلى الخارج شيئاً فشيئاً . حتى ينزلق إلى الخارج ، وبعد نزول الجنين تنقبض عضلات الرحم لتتخلص من المشيمة ، فتدفعها خارج الرحم .

إن الذى يتولى كل هذه الأمور داخل أحشاء المرأة حتى يخرج هذا الوليد إلى الدنيا هو الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى . فهو سبحانه الذى أمر الحيوان المنوى المختار أن يصعد فى الرحم ماراً بعنق الرحم ، فالبوقين (قناة فالوب) وأمر البويضة أن تستعد للقائه فيخصبها .

إنها معجزة الخالق ، تتجلى فيها عظمة القادر ، وقدرة الصانع فى أعلى صورها وأدق معانيها ، فى تكوين هذا المخلوق الضعيف الذى سوف يكون بعد ذلك إنساناً .

والزيجوت الناتج من إندماج الحيوان المنوى المذكر مع البويضة

الناضجة لو تصورنا وزنه وقتها لسجدنا لله سبحانه وتعالى مقرين ومعترفين بعظيم قدرته ، فإن وزن البويضة بعد أن يتم إندماج الحيوان المنوى بها يكون وزنها ١ على ٣٠٠٠ من المليجرام . وتستغرق المدة من تاريخ آخر حيض إلى أن تنفخ فيه الروح حوالىماية وعشرون يوماً أى سبعة عشر أسبوعاً .

والمدة من تاريخ نفخ الروح فيه إلى أن يخرج إلى الدنيا حوالى ماية وستون يوماً أى ثلاثة وعشرون أسبوعاً .

فيكون وزنه حينئذ حوالى ٣ : ٤ كيلوجرام ، وهذه الزيادة فى الوزن مصدرها الطعام الذى غذى به من أمه خلال فترة الحمل عن طريق الأوعية الدموية الممتدة بينه وبينها (المشيمة) .

فلو نظرنا إلى حجم الوليد وقت ولادته وإلى إتساع الفتحة التى سوف يخرج منها ، وكيف ينزلق خارج الرحم . وكيف يتخلص من الأوعية الدموية المتشابكة والمترابطة بينه وبين أمه ، ونظرنا إلى عضلات الرحم وهى تنقبض وتنبسط لتساعد الجنين على الزحف خارج مستقره المكين شيئاً فشيئاً حتى يتم خروجه نهائياً .

لوجدنا أن الإله الأعظم هو الذى تولى ذلك بقدرته ، إن الطبيب أو المولدة إنما يجلسان أمام الوالدة فى إنتظار خروج هذا الجنين فيتلقيانه . ولا يتدخل أحد منهما بشىء إلّا إذا تعثر خروج الجنين لأى سبب من الأسباب بل إن الطبيب أو المولدة يبقى فى حالة إنتظار حتى يخرج الله سبحانه وتعالى له الجنين . دون ما أى تدخل سوى إفساح الطريق أمامه إذا كانت هناك عوائق فى طريقه تمنعه من الخروج .

إرضـــاع الطفـــل

إن الله عزّ وجلّ قبل أن يُخرج هذا الوليد إلى الدنيا ويسلمه لأمه لتتولاه وترعاه . يأمر ثدياها أن تستعدا لتقوما بدورهما فى تغذيته . لأنه سبحانه سوف يفصل عنه غذاءه من أمه عندما كان جنيناً فى بطنها وبين أحشائها . فلا بد وأن يصدر الأمر للغدد الموجودة بالثدى أن تعمل وتستعد وتقوم بتجهيز غذاءه له بمجرد خروجه من الرحم . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾[1]

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾[2]

إذا ما وعينا قول الخالق عزّ وجلّ فى هذه الآيات وغيرها ، فإننا نجد أن المعنى الكامن فيها أعمق مما نتصور ، ولكننا بفضل من الله تعالى وعونه نستلهم الحكمة من هذه النصوص ، والتى يمكن أن نقول على حسب علمنا وربما تكون هناك حكمة فى هذا الأمر أبعد مما نقوله . وإنما ما نقوله هو عبارة عن خواطر علمية أسأل الله أن يوفقنا إليها .

فصاحبة الحق فى إرضاع هذا الوليد هى أمه ذاتها ، لأن عملية الارضاع فى حد ذاتها إنما تنطوى على صلة وملامسة وطيدة بين

---

(١) البقرة ٢٣٣ .

(٢) الأحقاف ١٥ .

الأم ورضيعها ، ليكون هناك تدعيم للصلة بين الأم ووليدها .

والمدة الزمنية للإرضاع قد حددتها الأوامر الإلهية هى ٢١ : ٢٤ شهراً بدليل قوله تعالى ﴿**حمله وفصاله ثلاثون شهراً**﴾ ﴿**وفصاله فى عامين**﴾ على أن يكون الطفل المولود سليم والأم فى ظروف صحية سليمة ، لتكون هذه الفترة إشارة إلى صلة اللبن وصلة الأمان بين أحضان الأم ، فامداد الرضيع باللبن وحده لا يكفى ، ولكن لابد من امداده بالدفء والحنان عن طريق الملامسة والمداعبة والرعاية .

لأن حرمان الطفل من ذلك قد يؤدى إلى تنشئته تنشئة غير سوية ، وقد تترك فى نفسية الطفل أثراً لا يحمد عقباه ، فنراه عصبياً وعدوانياً ومنطوياً على نفسه ، لأنه لم يجد فى طفولته العاطفة التى تؤهله ليكون عاطفياً مع نفسه ومع من حوله .

ومما لا شك فيه أن الأوامر الإلهية قد حددت المدة الزمنية للارضاع لحكمة إلهية يعلمها الذى خلق الأم وخلق الطفل ، وعلم مدى احتياج كل منهما للآخر .

إن الطفل حينما كان جنيناً فى بطن أمه ، فإنه يتعود على الإحساس بنبضات قلبها ، وهذه النبضات التى يسمعها وهو فى عالمه الموحش داخل الرحم قد تكون مؤنساً له عندما بدأ شهره الخامس من عمره حيث نفخت فيه الروح . وقد ذكرنا فيما سبق أن الله عزّ وجلّ يهب الجنين نعمة السمع وهو فى بطن أمه ، ولذا فقد جاء ذكر السمع متقدماً على ذكر البصر فى آيات القرآن الكريم تمشياً مع هذا الواقع ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً**﴾ [1] فالجنين إذن على صلة وثيقة بنبضات قلب أمه منذ

---

(١) الإنسان ٢

أن كان فى أعظم وأرق مهد طبيعى قضى فيه تسعة أشهر .

فتكون دقات قلب أمه قد انطبعت فى ذهنه لتؤثر على سلوكه مستقبلاً . و إننا إذا ما وضعنا ساعة على أذن الطفل نراه يستمع إليها ويقبل عليها ، لأن نغمات أشبه بدقات القلب التى تعود عليها جنيناً فى بطن أمه .

ولذا نجد الطفل حينما تضعه أمه بين ذراعيها وتحتضنه وتضمه إلى صدرها ، فإنه يسعد ويهدأ ويسكن وينام قرير العين . وبخاصة عندما تضمه إلى صدرها وتلصقه إلى قلبها .

ولذا فإننا نلاحظ أمراً هاماً بين الأطفال الذين يكونون فى حضانة أمهاتهم ، وبين الأطفال الذين تتركهم أمهاتهم لغيرها ، وهذا الأمر هو زيادة وزن الطفل الذى تتفرغ أمه لإرضاعه وحضانته عن الآخر ، ونموه بدرجة أكبر . وهذا يوضح لنا بجلاء أهمية وجلال وقدسية الأمر الإلهى بإرضاع الأم لوليدها حولين كاملين .

فربما تكون هذه الزيادة فى الوزن والنمو مرجعها إلى شيئين :

١ ـ إن لبن الأم هو الغذاء الطبيعى المنظَّم والمتوازن حجماً ونوعاً ومكونات بحسب إحتياجات الطفل ، ومن حكمته سبحانه أنه لم يجعل لأى إنسان أى تدخل فى تعديل نسب مكونات هذا اللبن ويكفى أنه من صنع العليم الخبير لحاجة هذا المخلوق .

كما أن لبن الأم يمر بمرحلتين متتاليتين فتقوم الخلايا الثديية المفرزة للبن عن طريق عملية حيوية بإفراز الدهون والبروتينات والسكريات ، كما تقوم الأوعية الدموية بالثدى باستحضار الفيتامينات والمعادن .

ومن حكمته سبحانه أن جعل ثدى الأم فى الأيام الأولى بعد

الولادة تفرزان سائل الكولسترم (colostrum) ، وهو ما يسمى بالبشارة اللبنية أو لبن المسمار ، وهذا النوع من اللبن غنى بالبروتينات ٣ : ٤٪ ، وبالدهن ٣٪ ، واللاكتوز ٤,٥٪ ، كما أنه غنى بفيتامين (أ) والصوديوم والبوتاسيوم ، وكميات من الكازيين والليباز للمساعدة على الهضم ، وكذلك أجسام للميكروبات تكون بمثابة طعم واق من الأمراض المعدية ، وتحصين إلهى يق الطفل من العدوى .

فلم تكن الرعاية الإلهية قاصرة على كمية اللبن أو مكوناته عقب الولادة فحسب ، ولكنها متحكمة فى تركيب هذا اللبن حسب نسب مكوناته وحجمه بما يتفق وحاجات الطفل مدة إرضاعه .

فبعد أن يتم إفراز الكولسترم (colostrum) فى الأيام القليلة الأولى منذ الولادة ، يأتى الأمر الإلهى للثديين أن تفرز لبناً ناضجاً بعد ذلك ، هذا اللبن يختلف فى مكوناته عن الكولسترم ، فيحتوى على : دهون ٤٪ ، بروتينات ١,٢٪ ، لاكتوز ٦ : ٨٪ بالإضافة إلى ٣,٠٠٠ وحدة من فيتامين ٣٠٠٠ وحدة من فيتامين (أ) ، ١٠ وحدات من فيتامين (د) ، حديد ١٥,٪ .

وقد جعل الله نسب مكونات هذا اللبن واحدة فى جميع الأمهات على وجه الأرض ، والاختلاف بينهن إنما يكون فى كمية اللبن التى تعتمد على تغذية الأم وحالتها النفسية ، وراحتها الجسدية . فإذا ساءت حالة المرضعة النفسية ، فإن الهرمون الذى تفرزه الغدد الصماء واسمه البرولاكتين (prolactin) تقل كميته ، وإذا قلَّت كمية الهرمون المفرز قلَّت معها كمية اللبن المفرزة ، فلا يجد الطفل حينئذ ما يكفيه من اللبن .

ومن العوامل المساعدة على إدرار اللبن إرضاع الطفل من ثدى أمه ، لما فى ذلك من تنشيط للخلايا الثديية المفرزة للبن ، وكذلك الأوعية الدموية الموجودة بالثدى .

لأن عملية تفريغ الثديين عند الارضاع من العوامل المنبهة لادرار اللبن ، كما أن مص الوليد لثدى أمه مما يساعدها على إنقباضات الرحم النفاسى ، مما يجعل الرحم يعود إلى حالته الطبيعية ومكانه بالحوض .

فزيادة وزن الطفل ونموه بانتظام عندما يتغذى على لبن أمه ، إنما يرجع إلى ثراء لبن الأم بمكوناته الطبيعية .

٢ ـ وربما تكون زيادة الوزن والنمو للطفل الذى ترضعه أمه منشؤها قلة بكاء الطفل الذى يكون فى حضانتها ، لأن البكاء يحتاج إلى طاقة ، والطاقة تتطلب وقوداً ، والوقود إنما يكمن فى الغذاء الذى يرضعه من أمه . وعلى هذا فالطاقة التى تستغل فى بناء الجسم يُستهلك منها جزء أثناء بكاء الطفل عند غياب أمه عنه .

فالطفل عندما يكون فى حضانة أمه ، كلما بكى تلهفته وأخذته بعطفها وحنانها وبين أحضانها ، وأعطته ثديها ليمتص غذاءه منه . فمن ناحية أنه يأخذ غذاءه كاملاً ، ومن ناحية أخرى لا يستهلك منه شىء عند البكاء ، مما يزيد من وزنه ونموه .

أما الطفل الذى تتركه أمه لدور الحضانة أو المرضعة أو ذوى القربى ، فإنه يستهلك الغذاء الذى أخذه منها عند بكائه ، ثم لا يأخذ عنه عوضاً فترة غيابها عنه .

ولذا نجد أن وزن الطفل ونموه يسيران ببطء فى مثل هذه الأحوال . كما أن بعض الأمهات يقمن بإرضاع أطفالهن ألباناً

صناعية ظناً منهن أن الأرضاع من ثديهن يشوه جمالهن ، ويذهب بصحتهين ورونقهن ، ويفسد شكل الثديين.

وهذا إعتقاد خاطىء ، لأن الله عزّ وجلّ حينما خلق المرأة فقد قضت مشيئته سبحانه بأنها ستكون سكناً للرجل ، وأما لأولاده ، ومادام أنه سبحانه قد خلقها لذلك ، فإنه سبحانه يريد أن تكون هذه المرأة مكتملة الأنوثة ، ذات رونق وجمال يجذب الرجل إليها ، فيستمتع بها زوجها دون غيره من الرجال.

والله سبحانه وتعالى حينما يقضى بشىء ، أو يأمر بشىء ، أو ينهى عن شىء ، فلا بد وأن يكون وراء ذلك حكمة إلهية جليلة ، تعود منفعتها علينا ، وتبعدنا عن كل مفسدة أو مضرة.

ولكى يرفع سبحانه وتعالى الحرج عن عباده ، فقد أوجد لهم بعض التراخيص ، ليرفع عن غير القادر على الأداء المشقة أو الضرر.

فلو كان فى ارضاع الأم لوليدها أى لون من ألوان المشقة أو الضرر لما أمرها بذلك. أرأيت أن رسول الله ﷺ ينصحنا عند إختيار الزوجة بأن تكون ذات دين ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه (**تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ونسبها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك**).

وما ذاك إلّا لأن ذات الدين تعرف كيف ترعى حق زوجها ووليدها عليها ، وتنفذ كل ما أمرها الله سبحانه وتعالى به ، فلا يقتصر فى شىء خوفاً من عقاب الله لها. وثمة شىء أود أن أضيفه : إن الوليد إذا ما غذى بألبان صناعية غير لبن الأم ، فإنه يكون عرضة للإصابة بالنزلات المعوية ، والأمراض المعدية الأخرى التى

تنتقل إليه نتيجة لعدم تعقيم اللبن تعقيماً كاملاً .

كما أن اختيار المربية أو المرضعة له أثر كبير فى حياة الطفل ، فإن كانت تأكل من حرام ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا خير فيه ولا بركة ، ومتى نشأ الطفل وغذى من هذا اللبن إنعجنت طينته من الخبث ، فينشأ وهو يميل إلى الخبائث . ولهذا حرم الله سبحانه وتعالى أكل لحم الخنزير ، ولحوم الوحوش المفترسة وشرب ألبانها ، حتى لا تكون طباعنا مثلها . ويقول إبن سينا : إن من حق الولد على والديه حسن تسميته أولاً ، ثم اختيار ظئره (مرضعته) وذلك بألا تكون حمقاء ولا ورهاء ولا ذات عاهة ، فإن اللبن يعدى . ويدعو الامام الغزالى إلى العناية بتربية الطفل منذ ولادته ، وألا يوكل لحضانته إلّا لامرأة صالحة متدينة .

ويرى الفيلسوف الرومانى كونتليان ضرورة إختيار المرضع من الصالحات الفصيحات حتى يقتبس الطفل منها ما هو صالح فى اللسان والأفعال .

ويقول الفيلسوف روسو أن الأب هو المعلم الطبيعى كما أن الأم هى المربية الطبيعية ، وهذان المربيان مكلفان بتربية إبنهما فى أثناء هذه المدة .

ولما كان الولد الصالح الصحيح الجسم والعقل هو خير ما يأمله الإنسان فى حياته ، وأنه كما حدد رسول الله ﷺ أنه ثالث ثلاثة ينتفع بها الإنسان بعد موته : (**إذا مات ابن آدم إنقطع عمله إلّا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**) .

ولذا فقد دعا أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ربه قائلاً

﴿**رب هب لى من الصالحين**﴾[1] ودعا سيدنا زكريا عليه السلام ربه قائلاً : ﴿**رب هب لى من لدنك ذرية طيبة**﴾[2] وأمرنا ربنا عزّ وجلّ أن ندعوه قائلين : ﴿**ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة عين واجعلنا للمتقين إماماً**﴾[3] .

لأن الولد إذا كان صالحاً إنتفع والداه بصلاحه ، واكتسبا حسنات من أعماله الصالحة ، وانتفعنا بدعوته لهما بعد مماتهما . وكذلك إن كان عاصياً أو منحرفاً كان وزره على أبيه أو وليه ، ولذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**﴾[4] .

وعلى هذا الأساس فإن رعاية الإبن أو الإبنة صيانة للوالدين فى الدنيا والآخرة . لأن الولد إذا كان معافى فى بدنه ، مستقيماً فى سلوكه ، ناضجاً فى تفكيره ، بصيراً بشئونه ، سعيداً وموفقاً فى حياته ، سعدا به .

أما إن كان غير ذلك فإنه يكون سبباً فى ألمهما ومصدراً لشقائهما ، ومنغصاً لحياتهما فى الدنيا ، ويتحملا وزره فى الآخرة .

ولهذا فقد أمر الله سبحانه وتعالى الأم بأن ترضع وليدها من لبنها الذى هو عبارة عن خلاصة غذائها ، وجعل لبنها يتلاءم مع وليدها فى جميع أطوار نموه ، فتزداد كميته بزيادة المولود ، وتتنوع محتوياته بحسب حاجة المولود ، ليواكب إحتياجاته ، وكما أعطاه غذاءه منها

---

(١) الصافات ١٠٠ .
(٢) آل عمران ٣٨ .
(٣) الفرقان ٧٤ .
(٤) التحريم ٦ .

وهو جنين بين أحشائها . فقد جعل له غذاءه فى ثدييها . ليظل فى رباط وثيق معها خلال فترة حاجته لرعايتها . فهو سبحانه الذى خلق هذا اللبن فى ثديى الأم . وجعله ينساب فى فم وليدها . وبمجرد أن يلتقم حلمة الثدى بفمه دون أى تدخل منها . بل وجعل هناك شفرات لا يعلمها إلّا هو سبحانه . فعندما يبكى الطفل من الجوع . فإن لبنها ينساب تلقائياً من ثدييها . رغم عدم سماعه لبكائها . فتعلم بأن وليدها فى حاجة إلى إرضاعه .

ومن حكمته سبحانه أن جعل هذا اللبن فى متناول الغنى والفقير على السواء . ولا يحتاج إلى جهد أو وقت إلى تحضيره . أو نقود لشرائه . ليضمن غذاءه .

فالإرضاع ما هو إلّا عملية فسيولوجية من شأنها المحافظة على صحة الأم وصحة وليدها . وراحة من القلق على غذاء هذا الوليد .

كما أنه راحة جسدية للأم وللوليد . ففى أغلب حالات الرضع ينقطع دم الحيض . مما يؤدى إلى راحة الأعضاء التناسلية . وتنظيم عملية الحمل . علاوة على أنه يساعد على إنقباضات الرحم فترة النفاس . مما يجعل الرحم يعود إلى وضعه الطبيعى .

ولبن الأم هو إعداد إلهى . فلم تصل إليه الأيدى فيكون معقماً . ولن تصل إليه الميكروبات التى تسبب العدوى بكثير من الأمراض .

ولو أمعنا دقة الأداء القرآنى لفظاً ومعنى . نجد أنه سبحانه يقول :

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين . لمن أراد أن يتم

الرضاعة . وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . لا تكلف نفس إلّا وسعها . لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك . فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما . وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف . واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعلمون بصير﴾[1] .

فبعد أن يأمر الله سبحانه وتعالى الوالدات بأن يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، يوصى سبحانه برعاية الأم لتكون قادرة على رعاية هذا الوليد على الوجه الأكمل ، فيفرض لها على والد هذا المولود أن ينفق عليها ويكسوها ، على حسب مقدرته بلا اسراف أو تقتير . وأنه لا ينبغى أن يكون هذا المولود سبباً فى إلحاق الضرر بأمه ، بأن يقول الرجل لقد صار بينى وبينها رباط وثيق ، فيهضم حقوقها ، ظناً منه أنها لا تستطيع أن تتركه لوجود ولد بينهما .

كما لا ينبغى أن يكون سبباً فى إلحاق الضرر بأبيه ، بأن تظن الأم بأنه لا يستطيع أن يتركها بعد ذلك ، فتستغل عاطفة الأبوة ، وتطالب زوجها بما لا يطيق ، أو تهمل حقوقه بحجة الولد . أو فى حالة وجود خلاف بينهما أو إنفصال ، يحاول كل منهما أن يستغل الطفل فى اضرار الآخر ، بأن يعمل كل منهما على نزع الطفل إلى جانبه ، أو حرمان كل منهما الآخر من رؤية هذا الطفل ، أو تقوم الأم بحرمان وليدها من الارضاع حتى يموت لتتخلص من وجود

---

(١) البقرة ٢٣٣ .

هذا الرباط بينهما . أو لتوقع الضرر بأبيه نتيجة موته .

وفى كل هذا مضيعة للأبناء . فوجود خلاف بين الزوجين ، يؤدى حتماً إلى اهمال الوليد . وكل منهما ينظر إلى هذا الوليد نظرة مقت وغيظ بل ويود أن يموت هذا الوليد . لتنتهى العلاقة بينهما ، وفى هذا تعقيد لنفسية الطفل ، علاوة على أن الأم فى هذه الأحوال تتألم وتحزن ، فيتجرع الطفل هذه الآلام مما يسىء إلى صحته النفسية والبدنية .

ولما كان الوالدان هما صاحبي الحق المشترك فى الولد ، فلهما الحق فى فطامه قبل الحولين إذا تشاورا واتفقا على ذلك ، إذا إقتضت الضرورة والمصلحة العامة ذلك ، وإذا أرادا أن يتخذا له مرضعة غير أمه . بسبب المرض فلا حرج فى ذلك أيضاً . ثم يعقب الله على ذلك بأن راقبوا الله فى أعمالكم واعلموا أنه مطلع عليكم ومجازيكم .

لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها

لأن الله سبحانه وتعالى يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر . فقد أوجد رخصاً للأم لكى لا ترضع وليدها أو تؤجل إرضاعه منها . فلو كان معنى قوله تعالى ﴿**وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم**﴾ انه يمكن الفطام قبل الحولين أو اللجوء إلى المرضعات أو اللبن الصناعى . لما قال الله عزّ وجلّ عقبها مباشرة ﴿**واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير**﴾(١)

ولكن معنى ذلك أن لا تقوم بهذا العمل إلّا عند الضرورة (الضرورات تبيح المحظورات) .

فالأم إذا كانت متمتعة بنعمة الصحة . وليس هناك ما يؤذيها أو يؤذى طفلها نتيجة ارضاعها له . فحرام عليها أن تمنعه عن ثدييها . لأن الذى خلق لها ثدييها . إنما خلقهما لارضاع الوليد منهما . وقد أمرها سبحانه بذلك .

فإن إمتنعت الأم عن إرضاع وليدها بدون سبب صحى . فقد خالفت أمر ربها عزّ وجلّ . وتستحق العقاب الإلهى عند ذلك .

أما إذا استجابت لأمر الله عزّ وجلّ وأرضعت وليدها من ثدييها . فإن الله سبحانه سوف يكافئها على ذلك . لأنها فعلت ذلك طاعة لأمر الله تعالى .

ولتعلم كل أم بأن الاحصائيات قد أثبتت أنه كلما مات طفل من الذين يرضعون من لبن أمهاتهم ، يموت ستة من الذين يرضعون لبناً

---

(١) البقرة ٢٣٣ .

خارجياً معقماً ، ويموت إثنى عشر من الذين يرضعون لبناً حليباً غير كامل التعقيم .

وفى حالة وجود أمراض عند الأم أو وليدها كما سنبينه ، فيكون فطام الوليد أو استئجار مرضعة له ، أو اعطاؤه لبناً خارجياً معقماً ، هو أيضاً طاعة لله عزّ وجلّ ، لأنها تعمل على المحافظة على صحتها وصحة وليدها .

ففى حالة مرض الأم بالدرن الرئوى أو السرطان ، يجب منع إرضاع الطفل منها نهائياً .

وفى حالة إصابتها بأى مرض معد ، يجب منع إرضاع الطفل حتى تمام شفائها وعند تشقق حلمة الثدى أو تقرحها ، يغسل الثدى قبل وبعد الارضاع وفى حالة وجود خراج بأحد الثديين يعطى الوليد الثدى الآخر حتى شفاء الثانى وعند وفاة الأم أو استحالة الرضاعة من ثدى الأم ، أو نقص اللبن لظروف صحية أو إجتماعية ، أو وجود توأم وعدم كفاية اللبن من الأم ، فهذه ضرورات حينئذ يمكن إعطاء الطفل رضعات صناعية .

وفى حالة منع الأم عن إرضاع وليدها من ثدييها أو من أحدهما مؤقتاً إلى أن يتم شفاءها ، يجب عليها أن تعمل على تفريغ الثدى كلما إمتلأ باللبن ، بواسطة شفاطة أو تعصيره . وذلك لكى يستمر إدرار اللبن ، وحتى تتمكن من معاودة إرضاع طفلها منه بعد شفائها .

الفصل الرابع

صنع الله الذى أتقن كل شىء

إن من فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته بالإنسان أن جعل كل شىء فيه آية تشهد وتقر بأن لا إله إلّا الله ، وتشير إلى دقة وابداع وعظمة الصانع جل جلاله وعظمت آلاؤه .

ومن آيات الله سبحانه وتعالى أن خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من قبضة من تراب الأرض ، ثم قال له كن فكان كما أراد سبحانه .

ثم خلق منه حواء لتكون عوناً له فى هذه الحياة ، يسكن إليها ويطمئن قلبه بها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .

فالمرأة هى جزء من الرجل تكمله ويكملها ، ولكن لكل منهما دوره فى الحياة ، وقد أوضح الخالق عزّ وجلّ العلاقة بين الرجل والمرأة ، فقال سبحانه :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[1] أى أنه سبحانه قد حدد هذه العلاقة بينهما ، وجعلها قائمة على عنصرين هامين هما المودة والرحمة .

وإذا ماقامت الحياة بينهما على هذا الأساس ، فإنها تؤدى إلى الاستقرار والسعادة ، مما ينعكس أثره على الأسرة وعلى المجتمع .

وبهذه المودة والرحمة ينتهى أى خلاف بينهما ويمكن التغلب

---

(١) الروم ٢١ .

عليه فى أسرع وقت ولهذا يطلق على من يشذ عن هذه القاعدة ناشز ، اى أنه قد إستعصى عليه الالتزام بهذه القاعدة التى قضى بها الله تعالى بين الرجل وزوجه . كما يوضح لنا الخالق عزّ وجلّ بأنه قد خلق المرأة للإنجاب ، فقال سبحانه :

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ (١)

ولما كان التكوين الإلهى لكل من الرجل والمرأة قائم على القصد والغاية ، لذا نجده سبحانه قد ساوى بينهما فى أشياء ، وفصل بينهما فى أشياء أخرى . وجعل بما نسميه توزيع الاختصاصات بينهما ، بما أودعه فى كل منهما من خصائصه المميزة له .

فقد جعل سبحانه لكل منهما وظائفه واختصاصاته لحساب الإنسانية ، أما لحسابه سبحانه فقد جاءت التكاليف لهما على السواء .

فنجد أنه سبحانه قد نظر إلى المرأة كنظرته للرجل تماماً فى الكرامة الإنسانية قال تعالى : **﴿ولقد كرنا بنى آدم﴾** (٢) وبنى آدم هم الذكور والإناث على حد سواء .

كما سوى بينهما فى التكاليف والثواب والعقاب ، فقال سبحانه :

﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات

---

(١) النحل ٧٢ . (٢) الإسراء ٧٠ .

والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (١)

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (٢) .

فقد سوى الله سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة فى التكاليف وفى الثواب والعقاب وجعلهم فى هذا سواء . فالمرأة مكلفة تماماً مثل الرجل فى أداء الشعائر الدينية ، ولا فرق بينها وبين الرجل فى الأداء . فالرجل والمرأة على حد سواء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وقيام الليل ، وقراءة القرآن ، وكثرة الدعاء إلى الله تعالى وذكره .

﴿والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله . إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن . ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم﴾ (٣) .

وكما جعلها مشتركة مع الرجل فى التكاليف والثواب والعقاب ، فقد دافع عنها كما دافع عن الرجل **﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾** (٤)

---

(١) الأحزاب ٣٥ .
(٢) النحل ٩٧ .
(٣) التوبة ٧١ ، ٧٢ .
(٤) البروج ١٠ .

﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (١) .

وكما أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يستغفر للمؤمنين ، فقد أمره أن يستغفر للمؤمنات كذلك ، قال تعالى :

﴿فاعلم أنه لا إله إلّا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ (٢) كما جعل لكل من الرجل والمرأة ميزاناً واحداً للتفاضل فقال سبحانه : **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (٣) وكما جعل للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون فقد جعل للنساء نصيب ، **﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾** (٤)

وكما جعل سبحانه للرجال الحق فى مباشرة الحقوق السياسية فقد جعل للنساء مثلهم : **﴿يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألّا يشركن بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾** (٥) .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة فى طلب العلم **(طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)** ولكنه سبحانه جعل هناك فوارق بين الرجل والمرأة فى :

---

(١) الأحزاب ٥٨ . (٢) محمد ١٩ . (٣) الحجرات ١٣ . (٤) النساء ٣٢ . (٥) الممتحنة ١١ .

النمو الجسمى . القوة . العضلات والأعصاب . القلب . الجهاز التنفسى . كرات الدم الحمراء . الجهاز التناسلى . منطقة الحوض . المخ . افرازات الغدد . الحواس . القدرة على تحمل الآلام . كما جعل سبحانه هناك فروقاً فسيولوجية وبيولوجية وعقلية .

ولكننا لو تأملنا قوله تعالى : ﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم**﴾[1] لعلمنا أن الذى دعانا إلى هذا التأمل والتدبر فى آياته سبحانه فى أنفسنا هو الخالق جلّ فى علاه .

فإذا ما نظرنا إلى ما يحتويه جسدنا من آلات وأجهزة تعمل ليل نهار . بلا ملل أو سآمة . ودون إجهاد أو كلل . لوجدنا أن كل جهاز منها آية أو آيات تنطق وتقول بأنه ﴿**صنع الله الذى أتقن كل شىء**﴾[2] .

وإذا ما تأملنا وتدبرنا أمر هذه الأجهزة وهى تعمل فى تعاون وتناسق وانسجام . دون ضجر أو يأس . ودون أن يعمل أحدها على تعطيل الآخر . أو يمتاز بعضها على بعض . لوقفنا مشدودين ومذهولين أمام هذا الاعجاز الإلهى المبهر . وتأكدنا بأنه لا يمكن أن يقوم بهذا العمل مطلقاً إلّا الخالق البارىء المصور .

ومما يثير الدهشة داخل جسم الإنسان . وهى فى حركة دائبة ومستمرة دون أن تتوقف أو تأخذ راحة . وأنها تعمل بدقة واتقان دون أن يقودها أحد من البشر مطلقاً . ودون أن يتحكم فى تشغيلها أحد ، حتى من هو بداخله هذه الأجهزة ليس له سلطان على شىء منها . وصدق الله العظيم إذ يقول :

---

(١) فصلت ٥٣ .	(٢) النمل ٨٨ .

﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [1] .

وفى أنفسكم أفلا تبصرون

إن الإنسان إذا ما أطلق العنان لنفسه فى التفكر والتأمل ، فإنه يجد نفسه آية فريدة دالة على قدرة الله تعالى وعظمته ، فقد جمع الله تعالى فى هذا الإنسان من حسن الصورة ، وقوى الادراك ، والشعور والبصيرة ما لم يحظ به غيره من المخلوقات .

ولذا يوجه القرآن الكريم الإنسان إلى النظر والتفكر فى نفسه وفيما يحيط به من عوالم ، موقناً بأن هذا النظر والتفكر جدير بأن يهديه إلى الحق ، ويسوقه إلى الخير ، بما يرى ويلمس من آيات الله فى الأنفس والآفاق **﴿وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾** [2] **﴿أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجل مسمى . وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾** [3] ولما كانت الحياة كلها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد **﴿إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين﴾** [4] .

---

(1) النمل ٩٣ .

(2) الذاريات ٢٠ ، ٢١ .

(3) الروم ٨ .

(4) الأعراف ٥٤ .

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1] .

فإن المخلوقات كلها من مادة . ولكن متى وجدت هذه المادة ؟ إن المادة أزلية أبدية . لا أول لها ولا آخر ، وهي موجودة منذ الأزل . بكامل قواها وجملة خصائصها . وهذه القوى وهذه الخصائص ملازمة لها ، وكامنة فيها .

ومعنى أن تظل خصائص الحياة بلا عمل آلاف من السنين بل وربما ملايين السنين . ثم تظهر بعد ذلك . كما تختلف فى التوزيع والتركيب فى أجزاء الكون كله . فهل للمادة الصماء تدبير أو عقل حتى تظهر خصائصها فى زمان دون زمان ؟

ولكنه لا بد لنا وأن نعى جيداً بأن ظهور الحياة هو من صنع خالق مريد . فظهور الحياة من المادة الصماء ، وخروج الميت من الحى ، وخروج الحى من الميت ، إنما يكون بإرادة الله سبحانه وتعالى .

ولما كان كل متحرك لابد له من محرك ، وأن هذا المحرك لابد وأن يستمد الحركة من غيره ، وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرك أزلى قائم بذاته ، غير محتاج إلى غيره . وذلك المحرك هو الله جلّ جلاله .

ولما كانت العوالم المخلوقة كلها متغيرة ، وكل متغير حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث ، ولا بد وأن يقف العقل كذلك عند محدث غير حادث . وذلك المحدث هو الله جلّ جلاله .

وإذا ما تأملنا فى أنفسنا وفى خلقنا وفى مظاهر التسوية

---

(١) الملك ١٤ .

وأماراتها . لوجدنا أن الله عزّ وجلّ يقول : ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم**﴾[1] .

فالإنسان قد خلقه الله عزّ وجلّ لمهمة جليلة وهى السيادة على الأرض والخلافة فيها . ولهذا فقد أعطى من الخصائص والمميزات . والأجهزة المادية والروحية التى تعينه على أداء وظيفته . وييسر له سبيل مهمته ولو نظرنا إلى التكوين البدنى للإنسان لرأينا العجب العجاب من عظمة التسوية . ودقة التصميم . وتناسق الأجهزة المختلفة التى لا يعد شيئاً بجانبها تصميم أى جهاز يخترعه إنسان منا . فتدهش له العقول . وتخشع لها القلوب . وتسجد لها الجوارح .

إن الله عزّ وجلّ حينما خلق الإنسان . لم يمنحه قوة عضلية كقوة الثور والوحوش المفترسة . ولا سرعة فى العدو كسرعة بعض الحيوانات . ولا أجنحة يخلق بها فى الجو كسائر الطيور . ولا أنياباً حادة كأنياب الوحوش المفترسة . ولا أعيناً ميكروسكوبية أى مكبرة كأعين الحشرات الدقيقة . ولا بصراً تلسكوبياً أى مقرباً كبصر الصقور . ولا غرائز هادية كغرائز النحل والنمل والحمام الزاجل . إلى غير ذلك .

ولكنه سبحانه قد خلقه أعظم وأفضل من كل هذه المخلوقات : ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم**﴾ ، ثم أعطاه ما هو أعظم وأفضل مما أعطى كل هذه المخلوقات مجتمعة ، فقد أعطاه العقل المفكر ، وأعطاه الروح التى هى نفخة من روح الله تعالى .

---

(١) التين ٤ .

وبهذا العقل يستطيع الإنسان أن يستأنس الدواب والحيوانات رغم قوتها وضخامة جسمها ، بل ويسخرها فى حاجاته ومعيشته . واستطاع بعقله أن يصنع السيارات ومراكب البحر والجو لينتقل بها من مكان إلى مكان ، فيطوى المسافات الشاسعة فى زمن قليل . وفاق فى ذلك الحيوانات التى تعدو سرعة على الأرض ، والطيور التى تسبح فى الجو . كما استطاع أن يغوص فى أغوار البحار كالحيتان .

وبالعقل تحكم الإنسان فى قوى الطبيعة ، فاستخرج من باطن الأرض المعادن والطاقة ، ونسف الصخور ، وشق البحار ، واستخدم البخار والغاز والكهرباء . وبالرغم من أن الله سبحانه وتعالى لم يمنحه عيناً ميكروسكوبية ، ولا بصراً تلسكوبياً ، ولكنه استطاع بعقله أن يصنع أنواعاً عديدة من الميكروسكوبات ، التى يرى بها الأشياء الدقيقة جداً ، والتى لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، واستطاع بتلسكوباته التى صنعها أن يرى القمر عند استكشافه لمعرفة أول الشهور العربية .

إن الذى هدى الإنسان ليصنع ذلك ، الذى خلق له المادة التى يصنع منها الأشياء ، والذى أودع فى هذه المادة قواها وخصائصها ، وجعله يستغلها ويستعملها كيفما شاء ومتى أراد **﴿وان من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾**(١) .

فالمادة التى يتم صنع الأشياء منها إنما هى مستمدة من خزائن الله تعالى التى لا تنفذ ولا تنتهى ، وأمكنه أن يستغلها بالعقل الذى

---

(١) الحجر ٢١ .

وهبه الله له ، ولكن المادة التى يستعملها الإنسان كما ذكرنا موجودة منذ الأزل ، ولكنها تختلف فى التوزيع والتركيب فى أشياء دون أشياء ، كما تظهر فى زمن دون زمن ، وفى مكان دون مكان .

وليس هذا من تدبير الإنسان مطلقاً إنما هو من تدبير القائل : ﴿**وما ننزله إلّا بقدر معلوم**﴾ فالمادة موجودة منذ الأزل ، ولكنها تصرف من المخازن الإلهية بقدر معلوم وفى وقت معلوم : ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ [٢] ﴿**أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد**﴾ [٣] فالذى خلق الإنسان هو الله ، والذى خلق له المادة هو الله ، والذى زود الإنسان بالعلم والمعرفة والعقل هو الله . والذى ألهم الإنسان أن يستغل المادة ويصنعها هو الله .

﴿**وما تشاءون إلّا أن يشاء الله ، إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ [٤] .

﴿**وما تشاءون إلّا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ [٥] .

ولو تركنا كل هذا وذهبنا مرة ثانية إلى التكوين البدنى للإنسان ، وتأملنا أعضاءه وخلاياه وأجهزته ، وما بينها من تضامن وتعاون ، ومن تناسق وتوازن ، لأدركنا من دقة التقدير وأحكام التدبير ما لا ينقضى منه العجب ، وحسبنا أن نتساءل قائلين هل الحيوان المنوى الذى يخصب البويضة عندما يريد الله سبحانه وتعالى للمرأة أن تحمل وهل البويضة التى تفرزها الأنثى ، لها عقل أو إرادة أو قدرة ؟

---

(٢) يس ٣٨ .
(٣) فصلت ٥٣ .
(٤) الإنسان ٣٠ .
(٥) التكوير ٢٩ .

حتى أن الحيوان المنوى يعرف طريقه إلى البويضة ، ويعلم بانه المختار لإخصابها ، ويعرف كيف يخترقها ؟

وهل البويضة علمت بأنها تنتظر هذا الحيوان فتمد له بروزاً منها ، ليخترقها ويخصبها ؟

وهل لتلك الخلية المخصبة عقل أو إرادة أو قدرة ، عندما تبدأ فى الإنقسامات ، أو تعرف طريقها إلى الرحم ، وأنه مقرها المكين ؟ وهل تعلم الخلايا المنقسمة داخل تلك الخلية ماذا تريد وماذا هى فاعلة ، وأن كل مجموعة منها مكلفة بأن تتخصص فى بناء جزء من أجزاء هذا الجسم الإنسانى ؟

فتلك مجموعة تنطلق لتكون الهيكل العظمى ، وأخرى تنطلق لبناء الجهاز التنفسى ، وهذه مجموعة تنطلق لبناء الجهاز العضلى وهكذا حتى يتم بناء جميع الأركان الأساسية فى هذا البناء العظيم .

وعمل تلك المجموعات لم يكن بالصدفة أو تلقائياً ، ولم يكن بالطريقة التى تشاؤها كل مجموعة ، ولكننا لو تأملنا تخصص تلك الخلايا الضئيلة الحجم القليلة الوزن التى لا عقل ولا قوة ولا إرادة لها ، ونظرنا إلى ما تقوم به من عمل ، لوجدنا كل مجموعة منها تنطلق بنوع معين من العمل وفى المكان المخصص لها دون أن تخطئه . فرغم ضآلة حجمها وصغر وزنها إلّا أنها تنطلق وهى تعرف طريقها وتعرف إلى أين تذهب ، وتعرف ما هو المطلوب منها .

فالخلايا المكلفة بأن تكون العين تعرف تماماً بأن العينين مكانهما فى الوجه ، ولا يجوز أن تكون فى الظهر أو الرجل أو البطن ، والخلايا المكلفة بأن تكون الأذن تعرف مكان الأذنين تماماً فلا تذهب إلّا للمكان المخصص للأذنين . فهل تضل إحدى الخلايا

طريقها فى تلك المتاهة الهائلة ؟

إن كل خلية تعمل سواء فرادى أو مجتمعة فى نطاق ما رسمته لها العناية الإلهية ، ولن تحيد مطلقاً عن الخط المرسوم لها .

فالذى خلقها هو الذى رعاها ووجهها وهداها إلى طريقها ، وعلمها عملها ، مما يعجز عن تصميمه أى إنسان .

ولنتجول فى هذا البناء الإنسانى العظيم ، لنرى من خلاله الجمال الإلهى والقدرة الربانية التى خلقت فأبدعت ، وقدرت فهدت . ذلك هو الله مصدر كل خير ورحمة وجمال : ﴿**إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾[١] .

---

(١) ق ٣٧ .

١ ـ الجهاز العظمى

إن هذا الجهاز يمثل الروعة الهندسية فى الصلع والابداع . وما هو إلّا دليل واقعى وملموس . بل ومثل أعلى لتلك الهندسة الربانية . وإذا ما نظرنا إلى تلك العظام لأول وهلة ظنناها لا حياة فيها . وأنها بمثابة القوائم التى يرتكز عليها ويقوى بها الجسم . ولكنها هى التى تعطى هذا الجسم الحياة .

ففى داخلها وفى تجويفها مادة دهنية تملأ هذا التجويف . وهى ما نسميه بالنخاع العظمى . الذى يعمل على تكوين كريات الدم الحمراء . ويتخلل هذا النخاع شبكة من العظام الهشة .

وهذا النخاع يعدَ مخزناً للمواد الدهنية والزلالية والكالسيوم والفسفور . ليأخذ الجسم منه حاجته عند اللزوم عن طريق الأوعية الدموية التى تخترق هذه العظام .

وقد قلنا بأن هذه العظام هى التى تعطى الجسم الحياة . فكيف يتم ذلك ؟ إن نخاع العظام هو المورِّد الرئيسى لكريات الدم الحمراء فى جسم الإنسان .

وكريات الدم الحمراء هذه هى مادة الحياة فى الجسم . وهى إحدى مكونات الدم فى جسم الإنسان .

فالدم الذى يحتويه القلب ويجرى فى الأوعية الدموية يقدر بحوالى ٧ : ٩٪ من وزن الجسم ، وتقدر كميته بحوالى ٥ : ٦ لتر فى الشخص البالغ ٦٠ كيلوغرام .

ويتركب من : سائل يسمى البلازما ، وكرات دم حمراء

وبيضاء . وصفائح دموية . كما يحتوى على : زلال وجلوبين وفبرونوجين . ومواد عضوية غير بروتينية كالبولينا والسكر وخلافه . ومواد غير عضوية كالكالسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والفسفور . وهرمونات . ومواد مضادة . وخمائر .

والبلازما : عبارة عن سائل أصفر اللون . وتوجد فى الدم بنسبة ٥٠ : ٦٠٪ من حجمه . لتتمكن المواد الصلبة الموجودة فى الدم من الحركة .

أما كرات الدم الحمراء : فهى عبارة عن قرص صغير جداً لا يرى بالعين المجردة . (قطر الكرة ٧ : ٧٫٥ ميكرون . والميكرون ١٠٠٠ ملليمتر) وذلك حتى يمكن مرورها فى الشعيرات الدموية . ولونها أحمر لوجود مادة الهيموجلوبين بها . ومادة الهيموجلوبين تتكون من هيماتين حمضى وهو مادة حديدية . وجلوبين وهو مادة بروتينية . وتوجد هذه الكريات فى دم الإنسان بنسبة : ٥ : ٦ مليون كرة فى كل ملليمتر مكعب بالنسبة للذكور . أما فى الإناث فتكون بنسبة ٤ : ٥ مليون مليميتر مكعب من الدم .

ويبلغ عمر كرة الدم الحمراء حوالى ١٢٠ يوماً . يستعاض عنها بكريات دم حمراء جديدة .

وثمة تساؤل : لماذا جعل الله سبحانه كمية الدم فى الرجل أكثر من المرأة ؟

إن من المعلوم أن قوة الرجل تفوق قوة الأنثى وبدرجة محسوسة تلك القوة هى التى أهلته لكى يتحمل هو الجانب الشاق من الحياة . قال الله تعالى :

﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة

فتشقى﴾[1] فإذا أمعنا هذا السياق الممتع فى تلك الآية الكريمة ، فقد جاء الخطاب فيها بصيغة المثنى . فالله تعالى يخاطب آدم . ويحذره بأن الشيطان عدو له ولزوجه . لأنه يعمل على إخراجهما من الجنة .

فالخطاب جاء بصيغة المثنى . لكنه إختص آدم وحده بالشقاء دون زوجه . ولذا لم يقل (فتشقيا) ولكنه سبحانه قال (فتشقى) أى الشقاء لآدم وحده . فكأن الشقاء والكفاح ، ومقابلة مصاعب الحياة هى للرجل . أما الأنثى فقد خلقها عزّ وجلّ لتكون سكناً لهذا الرجل .

ولأن الخالق عزّ وجلّ قد خلق الرجل وأهله لتحمل الكفاح ومصاعب الحياة فقد أمده الله سبحانه وتعالى بالأسباب التى تعينه على ذلك . ألست ترى معى أن الإنسان حينما يجهد نفسه فى أى عمل فإنه تزيد نبضات قلبه بشكل ملحوظ ، فيشعر حينئذ بنهجان . وهذا النهجان أو تكرار التنفس بين فترات متعاقبة ومسرعة . معناه أن الجسم فى حاجة إلى اكسجين .

وهذا الأكسجين موجود فى الهواء وبنسبة ٢١٪ لا تزيد ولا تنقص والاجهاد فى العمل يعمل على سرعة إحتراق الأكسجين الذى وصل إلى أعضاء الجسم . وعلى هذا فيكون فى حاجة إلى عوض عما إفتقده ، فتكرر عملية التنفس لتمد الرئتين بالأكسوجين ، ومن الرئتين يحمل الدم الأكسجين إلى خلايا الجسم .

لهذا نجد أن الخالق الأعظم قد منح الرجل عدداً من كريات الدم الحمراء يتناسب مع شقائه وكفاحه فى عمله الذى يقوم به . لتقوم بسحب الأكسوجين من الرئتين إلى خلايا الجسم ، وسحب

(١) طه ١١٧ .

ثانى أكسيد الكربون المحترق من خلايا الجسم إلى الرئتين ليخرج مع الهواء . أثناء عملية الزفير .

ومن الوظائف التى تقوم بها كريات الدم الحمراء :

حفظ درجة حرارة الجسم لتكون ثابتة باستمرار . ومنع التغييرات المفاجئة فى درجة الحرارة .

ولما كان عدد كريات الدم الحمراء أكثر فى الرجل عن لمرأة . فإننا نجد أن درجة حرارة الرجل أقل من درجة حرارة المرأة كما يقوم بضبط نسبة الماء فى الجسم . فيترك للأنسجة ما تحتاجه . ثم يحمل الباقى إلى الكليتين ليخرج مع البول . وإلى الجلد فيخرج عن طريق العرق . وإلى الرئتين ليخرج بخار الماء مع هواء الزفير .

كما يقوم بحمل المواد الغذائية التى تمتصها خلايا الامعاء إلى جميع أجزاء الجسم لتستمر الحياة . ويقوم بنقل إفرازات الغدد الصماء التى تؤثر على جميع أجزاء الجسم .

أما كرات الدم البيضاء فسوف نتحدث عن مهمتها فيما بعد . أرأيت أن الإنسان عندما تقل نسبة كرات الدم الحمراء فى دمه عن ٦٠٪ فإننا نقول بأنه مصاب بالأنيميا (ضعف عام) فنحاول أن نعطيه دم ليكون عوضاً له عما إفتقده فى دمه من كرات دم حمراء . أو نعطيه بعض الأدوية التى بها مادة الحديد التى هى الجزء الفعال فى كريات الدم الحمراء . والتى تعطى الجسم الحيوية والنشاط . والعظام هى المصنع الذى ينتج هذه الكريات ولذا قلنا بأن العظام هى التى تعطى الحياة للجسم .

إنه فى حقيقته أبدع وأروع وأعظم اعداد هندسى إلهى . فهذه العظام منها ما هو طويل وما هو قصير . ومنها ما هو مفرطح . وجسم

العظمة ما يسمى بالقصبة ، وطرفها العلوى يسمى رأس العظمة يحيط به غشاء رقيق غنى بالأوعية الدموية ويسمى بالغشاء السمحاقى ، وطرفاها مكسوان بطبقة رقيقة غضروفية تدخل فى تكوين المفصل .

وتلك العظام مزدوجة أى أنها مكونة من عظمتين ، عظمة القصبة ومعها الشظية كما فى الساقين ، وعظمة الزند والكعبرة كما فى الساعدين .

أما العظام المفرطحة فهى عظام الرأس والأضلاع والحوض وألواح الظهر ، وهى تختلف عن العظام الطويلة بقلة النخاع العظمى بداخلها .

والعظام الصغيرة وهى عظام السلسلة الفقرية ومفاصل الرسغين والكعبين ، ولما كانت العظام أشد مقاومة لتقلبات الجو ، وأكثر تحملاً عن غيرها من أعضاء الجسم ، وعليها يقع العبء الأكبر فى حياة الإنسان وتحركاته ، لذا لم يجعلها الخالق عزّ وجلّ جزءاً واحداً متماسكاً ، بل جعل منها الطويل والقصير والمفرطح ، وجعلها أجزاء بين كل منها مفصل ، لكى يمكن تحريك أى جزء من أجزاء الجسم فى يسر وسهولة . وبالرغم من إختلاف شكل العظام واطوالها إلّا أنها تؤدى وظيفتها على أكمل ما يكون ، والترتيب والنظام الذى أراده الخالق عزّ وجلّ .

ومن عظمة الخالق القدير أن جعل لخلايا تلك العظام القدرة على إمتصاص الكالسيوم (الجير) من الدم ليترسب حولها ، فإذا ما كسرت عظمة من تلك العظام فإن الطبيب يعمل على تقريب طرفى العظمة المكسورة من بعضها ، ثم يقوم بعمل رباط ضاغط ، أو

يكسوها هذا الجزء الذى به العظمة برباط من الجبس ، ثم يتركها بضعة أيام على هذا الحال كى تلتحمان . وذلك بتكوين نسيج ضام لها من الألياف ينمو على الطرفين المكسورين ، ثم تترسب أملاح الكالسيوم على هذا الخليط ، ثم تختلط معها كرات الدم وبهذا يتم إلتحام هذا الكسر ، والذى تولى ذلك هو الله جلّ جلاله .

ولما كان متوسط طول الرجل يزيد عن متوسط طول المرأة ، فإنه تبعاً لذلك تكون المرأة أقل وزناً من الرجل .

والسبب فى أن الرجل أثقل وزناً من المرأة وأطول قامة منها ، إنما يرجع إلى عوامل طبيعية وفسيولوجية فى التكوين الخلقى لكل منهما ، فعظام الرجل تمتاز بتماسكها وقوتها نتيجة كثرة أليافها وقوة شدها ، حيث أن كمية النسيج العضلى عند الرجل أكبر منه عند المرأة ، كما أن العمود الفقرى للمرأة أكثر إنحناءً من الرجل مما يؤدى إلى ظهور الشيخوخة عندها مبكرة عن الرجل .

عظام الرأس

وتشمل عظام الجمجمة والفك الأسفل .

وتتكون عظام الجمجمة من عدة عظام يتصل بعضها ببعض بتضاريس ، وتنقسم إلى القبوة والقاع التى تحيط بالمخ ، ثم يليه العظمان الجداريان والعظمان الصدغيان .

والجمجمة بها فتحات عديدة فى قاعها تسمح بمرور الأعصاب والأوعية الدموية ، وأكبر تلك الفتحات التى يمر فيها الحبل السنجابى ، الذى يمر فيه النخاع الشوكى من الجمجمة إلى العمود

الفقرى .

كما يوجد بالوجه عظام الأنف والفك العلوى والفك السفلى وعظام الجبهة أكثر صلابة وتماسكاً فى الأماكن المعرضة للصدمات بينما عظام الأنف والفك العلوى والفك السفلى وعظام الجبهة أكثر صلابة وتماسكاً فى الأماكن المعرضة للصدمات بينما عظام الأنف دقيقة ، ولذا كانت سريعة الكسر والإصابات .

وبالأنف جهاز الشم عن طريق فتحات داخلية أعلى الحلق . كما يوجد بالوجه تجاويف لكل من العينين . وبالأذنين توجد عظام السمع ، ولا يتحرك أثناء المضغ سوى الفك السفلى بواسطة مفصلى الفك .

عظام الأضلاع والقص

وهو ما يسمى بالقفص الصدرى الذى يتكون من عظم القص ، وهى العظمة الأمامية المتماسكة فى الأضلاع ، وعدد من الضلوع فى الناحيتين عبارة عن ١٢ ضلع فى كل ناحية .

عظم الترقوة واللوح

عظم الترقوة هو العظم المستعرض الذى يرى ويحس بيسر وسهولة بأعلى الصدر من الأمام . أما عظم اللوح فيكون من الخلف وبه حفرة يرتكز عليها رأس عظمة العضد فى كل ناحية ليكونا مفصل الكتف .

العمود الفقرى

وهى ما تسمى بالسلسلة الفقرية أو الشوكية وتتكون من الفقرات العنقية وعددها سبعة ، والفقرات الظهرية وعددها إثنى عشر ، والفقرات القطنية وعددها خمسة ، وبين كل فقرتين يوجد غضروف ، وفائدة هذا الغضروف هى زيادة مرونة العمود الفقرى أثناء الحركة ، إنحناء أو قياماً أو جلوساً .

عظام الذراع واليد

وتتكون من عظم العضد والزند والكعبرة .

وعظم العضد من العظام الطويلة ، وطرفه الأمامى ذو رأس مستدير ، يكون مع عظم اللوح مفصل الكتف . وطرفه السفلى على شكل بكرة ، تكون مع الطرفين العلويين لعظمتى الساعد مفصل المرفق .

وعظم الكعبرة فى الجهة الوحشية للساعد .

وتتكون اليد من الرسغ والمشط والأصابع ، وعظام الرسغ ثمانية صغيرة ، وبالمشط خمسة عظام ، وبكل أصبع ثلاث سلاميات ما عدا الابهام فله إثنتان .

ولو نظرنا إلى يد الإنسان لوجدناها من العجائب فى الدقة والصنع ، فعندما يريد الإنسان أن يتناول شيئاً بيده ، ثم يثبته فى

الوضع الملائم . وهذه اليد هى التى تصحح الوضع تلقائياً . وتحمل كل ما يريده الإنسان . ويقول الدكتور جورون هاين الأستاذ بجامعة كاليفورنيا الأمريكية : إن الطبيب يعرف من مظهر اليد حالة الجسم الداخلية . فكبرهما عن المعتاد يدل على مرض الغدة النخامية . وجفاف وبرودة وشحوب ظهر اليد يدل على نقص إفراز الغدة الدرقية . بينما اليد الدافئة المرتجفة كثيرة العرق تدل على زيادة إفراز هذه الغدة . والبقع على ظهر اليد دليل على أمراض عدة فوق الكلى . أما إصفرار راحة اليد المصحوب برائحة مميزة فيدل على مرض التيفود .

* ويقول أحد كبار أطباء القلب : إن درجة العرق باليد وارتعاشها يتخذ دليلاً على مدى تطور مرض قلب صاحبها .

والأظافر يقول عنها أبقراط : إن الأظافر كالمرآة تنعكس عليها حالة الإنسان الصحية .

فالأظافر الباهتة تدل على فقر الدم . والمائلة للزرقة تؤكد مرض القلب . وتقعر الأظافر يدل على إضطراب الدورة الدموية .

عظام الحوض

من حكمة الخالق عزّ وجلّ أن جعل للمرأة حوضاً يمتاز باتساعه وضعف اربطته . وذلك لتيسير العملية البيولوجية التى إختص الله بها المرأة دون الذكر . فى حين أن حوض الذكر مستطيل وغير متسع . وتزداد شدة الربط فى العضلات . ويكون أمام المستقيم عند الرجال وأمام الرحم عند النساء .

ويتكون من عظمتين جانبيتين كبيرتين . يسمى كل منهما بعظم الحرقفة ويتصلان من الخلف بعظم العجز فى مفصل غير متحرك ، كما يتصلان من الأمام عند العانة (عظم العجز هو الجدار الخلفى للتجويف) .

ويوجد بكل عظمة تجويف يسمى التجويف الحرقفى تستقر فيه رأس عظمة الفخذ مكونة المفصل الحرقفى .

ويوجد بداخل الحوض بعض الأحشاء كالمستقيم والمثانة وأعضاء التناسل الداخلية كالبروستاتا والرحم والمبيض كما سيأتى ذكره فى بيان الأعضاء التناسلية .

عظام الساق

ويتكون من عظم الفخذ والقصبة والشظية .

وعظم الفخذ هو أطول عظام الجسم ويقع بين مفصل الفخذ والركبة . وعظم القصبة هو الواصل بين الركبة إلى الكعب . أما عظم الشظية فهو عظم دقيق بالجهة القطنية للقصبة .

عظام القدم

ويتكون من عظام الكعب والرسغ والسلاميات . وعظام الكعب هى عظمة الكعب والعظم الكلسى ، ويتكون الرسغ من سبعة عظام ، أما المشط فيتكون من خمسة عظام تتصل بالأصابع ، وكل إصبع به ثلاث سلاميات ما عدا الإبهام ففيه إثنتان .

الجهاز المفصلى

الجهاز العظمى يتكون من حوالى ٢٠٦ عظمة فى الإنسان البالغ . وقد خلق سبحانه وتعالى بين هذه العظام المفاصل لتساعد على سهولة حركتها ، وجعل على طرف كل عظمة قشرة غضروفية رقيقة ملتصقة بطرف كل عظمة لتسهيل الحركة ومرونتها .

ويحيط بكل مفصل غشاءان ، أحدهما غشاء خارجى من النسيج الليفى ويسمى بالمحفظة الليفية ، والآخر داخلى ومكون من نسيج رقيق يفرز مادة لزجة ويسمى بالغشاء الزلالى أو المحفظة الزلالية . وهذه المادة تعمل على تشحيم المفاصل لزيادة مرونتها وحركتها ، وتسهيل عملية انزلاق أطرافها على بعضها البعض ، كما يمنع إحتكاكها وتآكلها .

الجهاز العضلى

يحتوى الجهاز العضلى فى جسم الإنسان على أكثر من ٦٠٠ عضلة . وتتكون كل عضلة من ألياف مستطيلة لها خاصية الانكماش والارتخاء ، وهى تتحرك طبقاً لما يصلها من أوامر من الجهاز العصبى عن طريق الأعصاب . والعضلات نوعان إرادية وغير إرادية .

فالعضلات الإرادية : هى التى نستطيع أن نحركها بحسب إرادتنا عن طريق أوامر تصل إليها من المخ عن طريق الأعصاب .

وإذا قمنا بفحص عضلة من العضلات ، وجدنا أن أطراف الأعصاب تتصل بألياف العضلة ، ويتم تثبيت هذه العضلات إلى العظم بواسطة شريط من النسيج ويسمى الوتر .

فعند الحركة الإرادية يقوم الجهاز العصبى المركزى بالمخ بتنبيه

العصب المحرك للعضلة . فتنكمش ألياف العضلة مما يؤدى إلى قصر المسافة بين العظمتين فى الإتجاه الذى يريده الإنسان .

والجهاز العصبى المركزى بالمخ يعمل عن طريق شعيرات دقيقة تمر فى أجزاء الجسم . ثم تتصل بغيرها أكبر منها .

أما العضلات الغير إرادية وهى ما لا سلطان للإنسان عليها وليست له السيطرة على حركتها . وهى التى توجد فى الأجهزة الداخلية للجسم كالقلب والمعدة والامعاء .

ومن حكمة الخالق عزّ وجلّ أن جعل عضلات المرأة أضعف من الرجل بنسبة ٢٥٪ تقريباً . ويستطيع الرجل تقوية عضلاته بممارسة الألعاب الرياضية بنسبة ٨٪ فى حين أن المرأة يمكنها ذلك ولكن فى حدود ٤٪ . إذ تزداد العضلات حجماً وقوة بالتدريب ولذا نجد أن رافعى الأثقال يحملون أثقل من وزنهم .

والعضلات مهمتها إنتاج الحرارة الداخلية . وهى التى تحرك الطعام خلال الجهاز الهضمى . وتدفع الهواء إلى الرئتين . والتى تحرك اللسان عند الكلام . وهى التى تدفع بالجنين من رحم أمه . وتدفع بالدم إلى جميع أجزاء الجسم ... إلى غير ذلك .

وفى حالة إجهاد هذه العضلات عند بذل مجهود شاق . فإن العضلة المجهدة تتقلص ويصيبها التعب والاعياء .

لأن العضلة عندما تنكمش يتولد عن ذلك حامض اللاكتيك[1] . وعند إجهادها يتراكم هذا الحامض بكمية كبيرة فى داخل هذه العضلة . حينئذ نشعر بالألم . ويتلاشى هذا الحامض تدريجياً عندما تستريح العضلة .

(١) حمض اللبنيك .

الجهاز العصبى

إن كل ما فى الإنسان من عناصر يستبدل بغيره من بيئتنا الأرضية عدة مرات فى العام الواحد ، فى حين نبقى نحن كما كنا ، دون حدوث أى تغيير فى خلايا الجسم .

أى أن كل خلية من خلايا الجسم لها أجلها المحدود ، فتموت وتفنى وتحل محلها خلية أخرى طبق الأصل منها ، كما يحدث تماماً فى عالم البشر فإن أفراده يموتون بحسب أعمارهم المقدرة لهم وآجالهم المحدودة . ولكن الجسم حينما تموت خلايا قبل موتته الكبرى ، فإن الجسد يبقى حياً بالخلايا المتجددة بدلاً من الخلايا التى ماتت ، حتى تقترب النهاية المحتومة للجسد كله فى أى لحظة من ليل أو نهار .

والخلية تصاب بنفس أعراض وعلامات الضعف والشيخوخة عند إقتراب نهايتها ، تماماً كما يحدث لأى إنسان يبلغ من العمر عتيا . وها هو سيدنا زكريا عليه السلام ﴿**رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا**﴾[1] .

وكما أنه لا خلود لبشر فلا خلود لأى خلية ، وقد ذكرنا أن عمر كرة الدم الحمراء لا يتجاوز ١٢٠ يوماً ، فتموت ويأتى غيرها ، وهكذا وغزو الميكروبات للجسم تقتل خلاياه فتموت ، وأى مرض يصاب به الإنسان ينتج عنه قتل الملايين من الخلايا .

فمن الخلايا ما يموت بعد أيام أو أسابيع أو شهر أو أكثر . بينما يبقى الجسد حياً مع ما اكتسبه طوال حياته السابقة من خبرات

---

(١) مريم ٣ .

ومعارف ، أى أن كل خلية تموت تتبدل بغيرها ، ولكنها نسخة طبق الأصل من السابقة . وتتضافر جميع أجزاء الجسم فيما بينها للحفاظ على التركيب الكيميائى والخواص الطبيعية للجسم وسوائله ، وينشط عمل كل عضو حيناً ، ويبطىء أحياناً حسبما تقتضيه حاجة الجسم كله من وظيفة ذلك العضو ، ومن ثم كان لا بد من وسيلة لتنظيم الوظائف الحيوية المختلفة ، والتنسيق بينها لتكوين وحدة حية .

ويوجد بالجسم وسيلتان رئيسيتان لهذا التنظيم هما :

الجهاز العصبى والغدد الصماء . وهما تعملان فى تعاون تام .
والجهاز العصبى المركزى يتكون من شعيرات دقيقة تمر فى كافة أنحاء الجسم ، وتتصل بغيرها أكبر منها ، فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ، ولو كان لتغير بسيط فى درجة الحرارة بالجو المحيط ، نقلت هذه الشعيرات العصبية إلى المراكز المنتشرة فى الجسم ، وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف .

فهذا الجهاز هو الذى يسيطر على الجسم سيطرة كاملة . فيتحكم فى نشاطه وطاقته وحيويته .

ويمكن أن نشبه الجهاز العصبى بالتليفون ، فالأعصاب تشبه الأسلاك ، وكما تغطى الأسلاك مادة عازلة لصيانتها ، فالأعصاب تغطيها أغشية .

ويمكن أن نشبه الجهاز العصبى بالتليفون ، فالأعصاب تشبه الأسلاك ، وكما تغطى الأسلاك مادة عازلة لصيانتها ، فالأعصاب تغطيها أغشية . وكما تتآكل فى بعض الأحيان المادة العازلة التى تغطى الأسلاك فيتم تلامسها أى يصير بها ماس بين الأسلاك ، مما

يمنع وصول بعض المكالمات التليفونية أو تداخل الخطوط مع بعضها ، مما يجعلنا نسمع مكالمات الآخرين . فإنه كذلك فى بعض الأحيان يتم تلف أغشية الألياف العصبية ، فيترتب على ذلك وصول إشارات خاطئة إلى المخ على شكل ألم أو شعور بالتنميل أو الحرقان فى بعض أجزاء الجسم ، وقد تتعطل جميع الرسائل الصادرة من المخ إذا كان التلف شديداً ، فتنعدم الحساسية فى الأطراف ، بحيث لا يشعر الإنسان بوخز الدبوس فى هذا المكان . ويتكون الجهاز العصبى من المجموعة العصبية الرئيسية والمجموعة السمبتاوية ، ولكل منها وظيفة خاصة ولكنهما متحدان فى العمل .

والمجموعة العصبية الرئيسية تتكون من :

١ ـ المخ : هو المركز الرئيسى للجهاز العصبى ، فهو بمثابة السنترال الذى يوزع الإشارات والمكالمات إلى جميع أجزاء الجسم . ومن الحكمة الإلهية أنه قد وضع فى صندوق متين وهو الجمجمة . ومتوسط حجم المخ عند الرجال أكبر بقليل من متوسط حجمه عند النساء . إذ أنه يزن عند الرجال حوالى ١٤٠٠ جم وعند النساء ١٣٠٠ جم . وكما يختلف فى وزنه وحجمه ، فإنه يختلف فى مادته وشكله ، فنجده عند الرجال أكثر ثنيات وأكثر نظاماً فى تلافيفه .

كما يوجد إختلاف فى الجهاز السمبتاوى (السنجابى) الذى هو النقطة المندرجة من المخ ، فهو عند المرأة أقل من الرجل ، وفى مقابل ذلك نجد أن مراكز الإحساس والتهيج عند المرأة أحسن منها عند الرجل . لأن أعصاب المرأة أكثر تأثراً وأسرع توتراً من الرجل .

والمخ يتكون من فصين كبيرين يملآن الفراغ العلوى لتجويف الرأس ، وقد حفظه الله سبحانه وتعالى بثلاث أغلفة غشائية ،

الداخلى منها غشاء رقيق جداً تتخلله الشرايين والأوردة التى تغذيه ، ويليه غشاء آخر فيه مراكز الإحساس ، والثالث متين وملتصق بالعظام .

ويخترق المخ منخفضات عميقة تسمى الأخاديد ، ويقال أنه كلما كثرت هذه التجاعيد ، إزداد ذكاء الشخص .

ولما كان المخ عبارة عن مولد كهربائى يتألف من خلايا ترسل تيارات كهربائية وإشارات عن طريق الأنسجة العصبية إلى العضلات فقد وجدت أجهزة لرسم المخ (بالكمبيوتر) وهى تعمل على تكبير هذه التيارات مئات المرات ، وترسم خطاوطاً بيانية وذبذبات على الورق لا يفهمها إلّا الأطباء المتخصصون . وقد ساعدت هذه الموجات على تشخيص بعض الأمراض المستعصية وعلاجها .

٢ ـ المخيخ : ويملأ التجويف الأسفل للرأس تحت المخ ويتكون من فصين ، وأهم وظائفه حفظ توازن حركات الجسم ، حيث أنه ينظم الإشارات الصادرة من المخ للأعضاء .

٣ ـ النخاع المستطيل : وطوله حوالى ٢,٥ سم والسطح الخارجى له أملس . وبه عدة خلايا عصبية هامة تحكم وتدبر بعض الأجهزة الحيوية كالتنفس والهضم وحركات القلب ، وافراز البول والعرق واللعاب .

ولذا فإنه أخطر الأماكن التى تؤدى إلى الوفاة عند إصابتها .

٤ ـ الحبل الشوكى أو النخاع الشوكى وهو إمتداد المادة المخية داخل الفقرات الظهرية ، وهو لا يصل فى طرفه الأسفل إلى نهاية العمود الفقرى وطوله حوالى ٤٥ سم ، بل إنه يصل إلى الفقرة الأولى القطنية ، ويمتد على هيئة حبل رفيع إلى نهاية القناة الفقرية ويسمى

المخروط النخاعى .

٥ ـ الأعصاب : وتنقسم إلى أعصاب مخية . وهى تخرج من المخ عبر ثقوب صغيرة وتمر خلال الأنسجة . وتتوزع على الجلد والعضلات والأعضاء الأخرى فى الرأس والرقبة ومن أهمها أعصاب الشم والبصر والسمع والذوق وعددها ١٢ عصباً وأعصاب شوكية متصلة بالحبل الشوكى .

وتسمى الأعصاب التى تحمل الأحاسيس من الجلد وأعضاء الحس إلى المخ بالأعصاب الحسية . والأعصاب التى تتجه نحو العضلات لتأمرها بالحركة فتسمى الأعصاب الحركية .

٦ ـ الجهاز السمبتاوى : عبارة عن شبكة من الأعصاب منتشرة أمام العمود الفقرى بتجويفى الصدر والبطن . تتخللها عقد عصبية . وهذه الشبكة تتصل بالحبل الشوكى ومركزها الرئيسى فى النخاع المستطيل .

الجلد وأعصاب الحس

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الجلد ليكون ستاراً محكماً بديعاً يحجب الأسرار التى تجرى بداخل الجسد . وإذا نظرنا إلى الجلد لوجدنا من أدق وأروع الآيات المحكمات الدالة على جليل صنع الله تعالى .

فالجلد هو الطبقة التى تغطى سطح الجسم . ومن أهم وظائفه حماية الأنسجة الرقيقة من التلف أو التعرض للإصابات . كما أنه يمنع دخول الماء أو الغازات رغم مسامه التى تساعد على إخراج الماء

من داخل الجسم على هيئة عرق .

ولما كان الجلد معرض لهجمات الميكروبات والجراثيم الموجودة بالدم . فقد جعله الله سبحانه وتعالى يفرز إفرازات قادرة على قتل تلك الميكروبات . أما إذا تغلبت الميكروبات واجتازت منطقة الجلد . فتبدأ معركة حربية سوف نتحدث عنها عند التحدث عن الجهاز الليمفاوى وكرات الدم البيضاء . ويتكون الجلد من طبقتين هما :

١ ـ البشرة : وهى الطبقة الخارجية من الجلد ، وهى تبلى باستمرار ويحل محلها طبقة جديدة . سمكها باختلاف مكانها ، فهى أسمك ما يكون فى راحة اليد والقدم ، وأرق ما يكون فى الجفنين والقضيب ولا تحتوى على أوعية دموية ، وسمكها يتراوح بين ثلث : ١ مم .

٢ ـ الأدمة : وهى الطبقة التى تحت البشرة ، وهى تحتوى على أطراف الأعصاب والأوعية الدموية ، والغدد العرقية والدهنية . مما يعطى الجلد الحساسية .

والحكمة الإلهية فى إيجاد الغدد التى تفرز المواد الدهنية لاكساب الجلد ليونة ونعومة فلا يجف . كما يحفظ الجلد حرارة الجسم ويمنع تسربها إلى الخارج .

كما أن الحكمة الإلهية فى وجود المسام التى تخرج العرق هى لتخفيف درجة حرارة الجسم إلى الحد الطبيعى (٣٧° م) عند ارتفاع درجة الحرارة ، أو القيام بمجهود بدنى شاق ، كما أن العرق يساعد على طرد المواد الضارة والزائدة كالبولينا والأملاح .

كما أن الحكمة الإلهية فى أطراف الأعصاب تحت الجلد ، أنها

بمثابة أجهزة لاستقبال المثيرات والأحاسيس المختلفة .

وتنتقل هذه الأحاسيس عبر الأعصاب إلى الحبل الشوكى ومنه إلى المخ الذى يشعر بالألم فى المركز الخاص .

ويتصل الجلد ببعض الزوائد كالشعر والأظافر ، ولما كان من الضرورى قصها من آن لآخر . فقد خلقها الله عزّ وجلّ عديمى الحس حتى لا يتألم الإنسان عند قصها للتزين .

وإذا ما نظرنا إلى الاعجاز العلمى للقرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه﴾(١) والبنان هو طرف الأصبع . والمتدبر لهذا القول الإلهى المعجز . يجد أن الله عزّ وجلّ قد اختار بنان الإنسان دون أعضائه الهامة فى الجسم . وذلك لعدة أسباب العالم بها هو الله جل جلاله . ولكننى أستطيع بعون من الله تعالى وفضله أن أستلهم ما يلى :

١ ــ أن الله جلّ جلاله عندما بدء الوحى الإلهى على رسولنا ﷺ . فقد بدأ بقوله تعالى : **﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم﴾** .

فقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالقراءة والتعلم ، وأوضح أن أداة التعلم هى القلم . والامساك بالقلم إنما يكون ببنان أصابع الابهام والسبابة والأوسط من أصابع اليد . وما ذلك إلّا نتيجة إبداع الخالق عزّ وجلّ فى بنان هذه الأصابع ، ليتمكن الإنسان من

---

(١) القيامة ٣ ـ ٤ .

أداء تلك المهمة التى إختصه الله بها دون سائر المخلوقات الأخرى .

٢ ـ إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأصابع وجعل لها سلاميات . وبهذه السلاميات عظام دقيقة وصغيرة . وتلك الأصابع لا يتشابه فيها إثنان حتى فى اليد الواحدة . فكل عقلة فى نفس الأصبع تختلف عن العقلة التى تعلوها أو تقع أسفل منها . بالرغم من أن كل الأصابع يتدفق إليها دم واحد من نبضات قلب واحد . وكلها تحس بإحساس واحد رغم أنها تغور فى أطرافها خيوط عصبية متماثلة .

ولذا نجد أن الله عزّ وجلّ يتحدى الكافرين المنكرين قدرته على جمع عظام الموتى . وهى آخر ما يتحلل من الأجساد . بقدرته على تسوية البنان وجمع عظامها مع دقتها وصغر حجمها .

٣ ـ إن قدرته سبحانه تتجلى فى أروع وأبدع مظاهرها فى أطراف الأصابع . حيث تتواجد البصمات المميزة لكل إنسان . والتى لا تتشابه مطلقاً بين إثنين من بنى آدم مهما إختلفت الظروف . بل وتختلف من إصبع إلى آخر فى اليد الواحدة . كما يوجد فرق بين نوع البصمات فى اليد اليمنى واليد اليسرى .

أليس ذلك دليل ومعجزة من معجزات الخالق سبحانه وتعالى ؟ إنه سبحانه كما خلق هذه الأصابع وجعل فيها البصمات المميزة لكل فرد . بحيث يمكن تمييز كل شخص عن سواه من بنى آدم جميعاً . ومن خلالها يتمكن المسئولون من معرفة المشبوهين . إنه سبحانه سيسويها بقدرته وعظمته عند الحشر . ويرجعها كما كانت عليه قبل الوفاة . فتعاد بخصائصها ومميزاتها إلى ما كانت عليه فى الدنيا .

حاسة الابصار

مركز حاسة الابصار العين ، وهى الجزء الظاهر من جهاز الابصار . ولما كانت العين أعجب وأدق الأجهزة الموجودة فى جسم الإنسان ، بل وأكثرها حساسية وتعرضاً للأخطار ، فقد حفظها الله تعالى بأن جعلها فى تجويف خاص بالجمجمة ، وجعل سطحها أقل من مستوى الحاجب الذى يعلوها ، ومن عظم الخد الموجود أسفلها ، كما جعل لها الجفن ذو الأهداب الذى يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة ، والأهداب بمثابة المظلة التى تقيها حدة الشمس فلا تؤذيها . وتتركب العين من الأجزاء الآتية :

١ ـ المقلة : وتحتوى على سائل لزج يسمى السائل الزجاجى ويملأ الجزء الأكبر من تجويف المقلة ، والمقلة محاطة من الأمام بغشاء يسمى بياض العين وهو غير شفاف فيما عدا الجزء الأوسط المسمى بالقرنية ، ويخترق المقلة من الخلف العصب البصرى ليتصل بالمخ . وتتحرك المقلة بواسطة عضلات تساعدها على الحركة فى الاتجاهات المختلفة .

٢ ـ القرنية : وهى الجزء الأمامى الأوسط من العين وهى عبارة عن غشاء شفاف يسمح بمرور الأشعة الضوئية .

٣ ـ القزحية : وتقع خلف القرنية ويختلف لونها باختلاف الأجناس فهى إما سوداء أو بنية أو زرقاء أو خضراء ، وفى وسطها ثقب يمر منه الضوء إلى باطن العين وهو ما يسمى بإنسان العين أو الغنِّى وهو أسود اللون .

وعضلات القزحية تسيطر على إنسان العين لتحديد كمية الضوء

التى تصل إلى العدسة .

٤ ـ العدسة : تقع خلف القزحية وهى فى حجم حبة الترمس الصغيرة وهى شفافة تماماً ، ينفذ من خلالها الضوء والمرئيات إلى قاع العين حيث يتركز فوق الشبكية .

٥ ـ الشبكية : وهى الطبقة الداخلية لجدار العين ، وتتكون من نسيج عصبى خاص ، وتحتوى على الخلايا المختصة بالابصار ، وعندما تتركز صورة المرئيات على هذه الخلايا ، فتؤثر فى أطراف العصب البصرى الذى ينقلها إلى المخ .

٦ ـ الكيس الدمعى : ويوجد فى الحافة العلوية الخارجية لكل عين ، ويتم توزيع الدموع على سطح العين لترطيبها وغسلها ، ومنع احتكاك الجفون بالمقلة .

٧ ـ الجفون : وهى غطاء العين الذى يقفل تلقائياً كل حوالى ٦ ثوان وبسرعة لا تكاد نلحظها ، وحركة الجفون تساعد على دفع ما يدخل العين من أجسام غريبة بمعاونة الدموع . وتبطن الجفون من الداخل طبقة شفافة تسمى الملتحمة .

أما الأهداب التى بالجفون (الرموش) فهى مظلة لوقاية العين من وهج الشمس وحمايتها من الأتربة والاقذار ، وبها غدد تفرز مادة دهنية تمنع التصاقها داخل العين .

حاسة السمع

مركز حاسة السمع الأذن ، وهى الجزء الظاهر من جهاز السمع . ويصل الصوت إلى الأذن على هيئة ذبذبات قد تصل إلى

٢٠,٠٠٠ فى الثانية ومازاد عن ذلك يسمى الموجات فوق السمعية وتصل إلى مئات الألوف . ويتكون الجهاز السمعى من :

١ ـ الأذن الخارجية : وتتكون من صوان الأذن والقناة السمعية الظاهرة وطولها حوالى ٢ سم ، ويوجد بالقناة السمعية غدد تفرز مادة صفراء كالشمع ، ومن حكمة الخالق عزّ وجلّ أن جعل هذا الإفراز حمضى حتى تنفر منه الحشرات الغريبة فلا تحاول أن تدخل إلى الأذن الداخلية أو الطبلة فتفسدها .

٢ ـ الأذن المتوسطة : ويفصلها عن الأذن الخارجية غشاء رقيق يسمى طبلة الأذن ، وهى عبارة عن تجويف بعد الطبلة من الداخل ويحتوى على ثلاث قطع من العظم دقيقة وتسمى : المطرقة والسندان والركاب ، وعندما تهز الموجات الصوتية الطبلة فإنها تهز المطرقة ، تهز السندال (السندان) والسندان يهز الركاب ، والركاب مثبت فى إحدى فتحات الأذن الداخلية .

٣ ـ الأذن الداخلية : عبارة عن تجويف عظمى مملوء بسائل يتحرك عندما يهتز الغشاء الرقيق المتصل بعظمة الركاب ، فتحدث تموجات فى هذا السائل تنبه آلاف الخلايا الشعرية الدقيقة المتصلة بأعصاب السمع . ثم تتجمع الأعصاب مكونة العصب السمعى الذى يصل إلى المخ .

والمركز الرئيسى للسمع بالمخ هو الذى يترجم الموجات إلى أصوات .

ونظراً لأن الخلايا الشعرية تتصل بالمُخيخ بألياف عصبية فإنه إذا أصيبت الأذن الداخلية بالتهابات بها ، سببت للمصاب دواراً ومشقة فى الاحتفاظ بتوازنه عند الوقوف .

﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به﴾[1] .

حاسة الشم

مركز حاسة الشم الأنف وهو الجزء الظاهر من جهاز الشم . وتقع منطقة الشم فى الغشاء المخاطى المبطن لتجويف الأنف من الداخل ، حيث توجد أطراف أعصاب الشم ، وتخترق هذه الأعصاب قاع الجمجمة لتتصل بمركز حاسة الشم بالجزء الأمامى من قاع المخ .

ويبتدىء عصب الشم بشعيرات عصبية بأعلى فتحتى الأنف ، وتمر هذه الشعيرات داخل ثقوب صغيرة بعظام الرأس مكونة العصب الذى ينقل هذا الاحساس الدقيق إلى المخ . والأنف هو المدخل الرئيسى للجهاز التنفسى .

حاسة الذوق

توجد تلك الحاسة فى اللسان ، وهو عبارة عن مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة فى حلمات غشائه المخاطى ، وهذه الحلمات مركبة على نتوءات صغيرة ، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب ، فتنقل ما تتأثر به تلك الأعصاب الذوقية إلى المخ .

---

(١) الانعام ٤٦ .

وبهذه الحاسة يحس الإنسان عند الأكل أو الشرب المرارة والحلاوة . والبرودة والسخونة . والحامض والملح . إلى غير ذلك . فيتناول ما يحس بنفعه . ويلفظ ما يحس أنه ضار به .

الجهاز التنفسى

يتكون الجهاز التنفسى من :

١ ـ الأنف : وهو الذى يتم عن طريقه التنفس الطبيعى . وينقسم تجويفه إلى قسمين أيمن وأيسر . يفصلها الحاجز الأنفى وهو عبارة عن حاجز عظمى من الخلف وغضروفى من الأمام . يغطيه الغشاء المخاطى الذى يبطن تجويف الأنف . ولكل قسم فتحتان . فتحة خارجية وتسمى فتحة الأنف التى نراها ظاهرة . وفتحة أخرى خلفية جهة البلعوم وتعرف بفتحة الأنف الباطنة . وعندما يدخل الهواء من فتحتى الأنف الخارجيتان تقابله شعيرات الأنف التى تعمل على تنقيته من الأتربة العالقة به .

كما يفرز الغشاء المخاطى المبطن للأنف إفرازاً مخاطياً ، وكذلك البلعوم والحنجرة والقصبة الهوائية . فإن الغشاء المخاطى المبطن لهم بمثابة جهاز تكييف يعمل على تدفئة الهواء الذى يصل إلى الرئتين شتاء ، وعلى ترطيبه صيفاً ، حتى لا تتعرض أغشية الرئتين إلى ضرر من جراء الهواء الجاف أو البارد أو الساخن .

٢ ـ الحنجرة : وهى عبارة عن الفتحة العليا للقصبة الهوائية ومهمتها عدم السماح لتسرب أى أجسام غريبة إلى القصبة الهوائية ، وبداخلها الأحبال الصوتية التى تحدث على أساسها الأصوات .

وتتكون من عدة غضاريف يتصل بعضها ببعض بجملة أربطة وعضلات تسمح لأجزائها بالحركة اللازمة عند التنفس.

٣ ـ القصبة الهوائية: وهى عبارة عن قناة عضلية يحيط بها حلقات غضروفية موزعة على طول القصبة غير كاملة من الخلف وعلى أبعاد متساوية. ويبلغ طولها ١٠ : ١٢ سم.

ولحكمة إلهية فقد خلق الله عزّ وجلّ هذه الحلقات لمنع إلتصاق جدران القصبة بعضها ببعض، ولولا ذلك لتعرض الإنسان للاختناق إذا لم يتمكن الهواء من سهولة إختراق القصبة، ومن ناحية أخرى فإنها تسمح للمرىء بالتمدد أثناء مرور الطعام فيه.

٤ ـ الشعب الهوائية: تتفرع القصبة الهوائية فى نهايتها السفلى إلى شعبتين اليمنى أكثر إتساعاً من اليسرى، ويحيط بها حلقات غضروفية كالقصبة الهوائية. ومن الحكمة الإلهية أن القصبة الهوائية والشعب الهوائية يبطن كل منهم غشاء داخلى يحمل شعيرات دقيقة كالأهداب مهمتها طرد الأجسام الغريبة التى تدخل مع هواء التنفس حتى لا تصل إلى الرئتين، بأن تتحرك حركة مستمرة متجهة لأعلى جهة البلعوم، ليتخلص الإنسان من ذرات الغبار مع المخاط الذى يكثر إفرازه وبخاصة فى حالة الإلتهاب الشعبى.

وتمتد تلك الشعب الرئوية عند الفقرة الصدرية الرابعة إلى أن تصل إلى الرئة اليمنى والرئة اليسرى. والشعبة اليمنى أوسع وأقل انحرافاً من الشعبة اليسرى، واليسرى أطول وأضيق وأكثر إنحرافاً عن اليمنى بسبب إنحراف القلب جهة اليسار.

وتنقسم كل شعبة من الشعبتين إلى شعب أصغر منها، وهذه بدورها تنقسم إلى شعب أصغر منها، حتى تنتهى بعدد كبير وهائل

من شعب صغيرة ودقيقة جداً وتسمى شعيبات .

٥ ـ الرئتين تتفرع الشعب داخل الرئتين إلى الشعيبات الهوائية ، وتتلاشى الحلقات الغضروفية شيئاً فشيئاً حتى تختفى تماماً ولا ترى إلّا بالمجهر . وتنتهى بالحويصلات الهوائية التى تعد بالملايين ، وهى عبارة عن فجوات رقيقة الجدران بدرجة تسمح للغازات بالنفاذ خلالها . وعندما يستنشق الإنسان الهواء فإن إتساع الصدر يزيد ، بسبب إنتفاخ الحويصلات الهوائية ، وعند طرد الهواء فى حالة الزفير يعود الصدر إلى حالته بسبب عودة الحويصلات إلى حالتها عند خروج الهواء منها . وقد خلق الله عزّ وجلّ حول كل رئة غشاء من طبقتين يسمى البللورا ، حتى يسهل إنزلاق الرئتين بلطف على السطح الداخلى لجدار الصدر ، وقد يصاب الإنسان بالتهاب البللورا عقب النزلات الشعبية والإلتهابات الرئوية ، مما يمنعها من الانزلاق على بعضها بالصورة الملائمة فينتج عن ذلك شعور المريض بألم حاد عند التنفس ، ويشاء القادر عزّ وجلّ أن يمد الإنسان برئتين :

الرئة اليمنى قصيرة وعريضة وتنقسم إلى ثلاث فصوص ، بينما اليسرى تنقسم إلى فصين ، ويتركب جسم كل رئة من فصوص صغيرة كثيرة العدد ، يحتوى كل منها على جملة من الحويصلات الهوائية ، ويحيط بكل منها ضفيرة شريانية وأخرى وريدية وثالثة ليمفاوية .

وهى تعمل جميعاً فى نظام دقيق مع تبادل العمل بين وحداتها بعضها البعض . ويشاء القادر العظيم أيضاً أن يكون للإنسان مخزون كبير من هذه الوحدات حتى لو تلف بعضها ، وكثيراً ما يحدث ذلك

نتيجة للأمراض أو التعرض لتقلبات الجو . فتعمل الوحدة الصالحة فى غياب الوحدة المتعطلة . حتى لا يتوقف هذا الجهاز الدقيق والهام عن العمل .

ومن نعم الخالق عزّ وجلّ أن يكون هذا المخزون كبيراً بحيث أنه لو أزيلت رئة . أمكن للإنسان أن يعيش برئة واحدة بل بنصف رئة . إذا كانت هذه سليمة وخالية من الأمراض .

ولذا نجد أن بعض المرضى يعانون من درن بالرئة أو تليف أو التهاب بها ، وفى إمكانه أن ينعم بحياة عادية . مادام هناك جزء سليم من رئة ، يمكنه أن يقوم بوظيفة التنفس وأكسدة الدم .

وإذا ما عدنا إلى تركيب الحويصلة الهوائية نجد أن هذا التركيب العجيب يتكون من خلايا بسيطة تنتشر فى جدرانها شعيرات دموية من نوعين : شعيرات دموية وريدية وشعيرات دموية شريانية . والشريانية تحمل الدم غير المؤكسد إلى الحويصلة . والشعيرات الوريدية تحمل الدم المؤكسد ، وتتجمع وتصب فى الأوردة الرئوية التى تحمل الدم المؤكسد إلى القلب .

وعدد هذه الأوردة الرئوية أربعة تصب فى الأذين الأيسر من القلب . وبعملية دقيقة دائمة لا يختلط هذا الدم بذاك ، فيسير الدم غير المؤكسد فى طريقه وينتشر فى جدار الحويصلة ، ويتعرض للهواء فيخرج منه الزائد من ثانى أكسيد الكربون ويأخذ حاجته من الأوكسجين ، ثم يتجمع هذا المؤكسد فى شعيرات أكبر فأكبر إلى أن يكون الأوردة الرئوية .

ولو حدث فى هذه العملية أى خلل أو توقف لتعرض الجسم إلى الخطر ، ولكنها تسير بقدرة الله عزّ وجلّ بدقة ونظام وباستمرار ،

فهناك مراكز خاصة بالتنفس فى المخ ، ترسل إشاراتها إلى كل الوحدات التى تعمل فى هذا المجال من عضلات ، والحجاب الحاجز ، وتمدد الرئة فى الشهيق ، ورجوعها إلى حالتها فى الزفير ، والتحكم فى الدم الداخل والخارج إلى الرئتين.

وهذه المراكز تتأثر بعوامل تجعلها تغير من سرعة التنفس ومن عمق التنفس . فالإشارات التى تأتى من المراكز العليا بالمخ إلى مركز التنفس هى التى تجعل معظم التنفس غير إرادى ، بمعنى أنه عملية دائمة بانتظام دون تدخل الإنسان بها .

وهناك عوامل تؤثر على مركز التنفس ، وتغير من هذه العملية فزيادة حموضة الدم والذى يكون دائماً فى حالة مائلة إلى القلوية ، تؤثر على مركز التنفس ، فتزيد من سرعته وعمقه ، وكذلك زيادة ثانى أكسيد الكربون فى الدم يزيد من سرعة التنفس وعمقه ليتخلص الجسم منه . ونقص أوكسجين الدم يؤثر على مركز فى شريان الرقبة فيؤثر بالتالى على مركز التنفس ، فيؤدى أيضاً إلى زيادة التنفس وتعميقه . وارتفاع درجة الحرارة والقيام ببذل أى مجهود يزيد من عدد مرات التنفس والأدوية المنومة تسبب هبوطاً شديداً فى عملية التنفس .

وإذا ما حسبنا عدد مرات التنفس الطبيعية فى الدقيقة لوجدناها ١٨ مرة ، ويتنفس الإنسان حوالى ٦ لتر هواء فى الدقيقة ، ولو حسبنا عدد مرات الشهيق للإنسان خلال ٢٤ ساعة فسوف نجدها حوالى ٢٦ ألف مرة ، يقابلها نفس العدد فى مرات الزفير . وتزيد هذه المرات كلما قام الإنسان بمجهود شاق ، لحاجة الجسم إلى مزيد من الأوكسجين لزيادة عملية الاحتراق ، ولهذا

يتنفس الإنسان سريعاً ليعوض ما يحتاجه .

ولما كان الخالق عزّ وجلّ يعلم بأنه قد خلق الإنسان للعمل والشقاء أكثر من المرأة ، وأنه فى حالة إجهاده فى العمل يحتاج إلى كمية من الأوكسجين لذا نجد أن الجهاز التنفسى للرجل أقوى منه عند الأنثى .

الجهاز الدورى (الدموى)

قلنا فيما سبق أن الدم مكون من كرات دم حمراء ، وكرات دم بيضاء ، وصفائح دموية ، وكلها معلقة فى سائل هو البلازما أو المصل الذى يحوى مواد زلالية وأحماض وسكريات ودهون ، وكذلك أجسام مضادة للميكروبات .

وجسم الإنسان يحتوى على حوالى ٥ : ٦ لتر من الدم الذى يتكون من ٢٥ : ٣٠ ألف بليون كرة دم حمراء ، ٥٠ بليون خلية بيضاء[(١)]

ومن الحكمة الإلهية أن قطر كرة الدم الحمراء لا يتجاوز ٧,٥ ميكرون ، والخلية البيضاء قطرها ٤ : ٢٠ ميكرون حسب نوعها ، وعدد كرات الدم الحمراء فى كل ملليمتر مكعب من الدم ٥ مليون للذكور ، ٤,٥ مليون للإناث ، أما عدد الخلايا البيضاء فهى ٥ : ١٠ ألف عند الذكور والاناث فى كل ١سم^{٣} دم أما الصفائح الدموية فيتراوح حجمها بين ٢ : ٤ ميكرون أى ربع قطر كرة الدم الحمراء ، أما نسبة وجودها فى الدم فتكون بنسبة ١ : ١٨ من عدد كرات الدم الحمراء أى أن عددها يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ :

(١) البليون ١٠٠٠ مليون والملليمتر ١٠٠٠ ميكرون .

٥٠٠,٠٠٠ مم^{3} دم . ويبلغ عمرها حوالى ٤ أيام ، ومهمتها الاشتراك مع مادة الفيرونوجين لتكوين الجلطة الدموية التى تمنع خروج الدم من الأوعية الدموية فى حالة وجود جروح أو نزيف .

وقد خلق الله عزّ وجلّ مكونات هذا الدم بهذا الحجم الصغير جداً ، حتى تتمكن من المرور فى أدق الأوعية الشعرية المنتشرة فى جميع أجزاء الجسم . فسبحان من وسعت رحمته كل شيء .

ويتكون جهاز الدورة الدموية من القلب والأوعية الناقلة للدم .

١ ـ القلب : هو عبارة عن عضو عضلى وإن شئت قلت مضخة عضلية بحجم قبضة اليد ، وهو يقع بين الرئتين بتجويف الصدر ، ويقع أقل من ربعه بالجهة اليمنى للصدر والباقى بالجهة اليسرى ممتداً خلف أسفل عظم القص والأضلاع اليسرى ، وهو مخروطى الشكل ، وقمته تحت الحلمة اليسرى ، وترتكز فوق الحجاب الحاجز وهو عبارة عن عضلة مستعرضة تفصل تجويف الصدر عن تجويف البطن .

والقلب مكون من أربع أقسام من الداخل ، يفصلها حاجز رأسى يجعل كل إثنين معاً فى جانب ، وكل إثنين فى جانب أحدهما علوى والآخر سفلى وبينهما صمام .

والقسمان العلويان أحدهما يعرف بالأذين الأيمن والآخر بالأذين الأيسر ، أما السفليان فيسمى أحدهما البطين الأيمن والآخر البطين الأيسر . وقد جعل الله سبحانه وتعالى لكل قسم من هذه الأقسام الأربعة عملاً خاصاً ، وهيأ له الأسباب التى تعينه على أداء عمله . فالأذين الأيمن مهمته تلقى الدم الفاسد من كل أجزاء الجسم . والبطين الأيمن مهمته دفع هذا الدم إلى الرئتين لتنقيته . والأذين

الأيسر مهمته تلقى الدم النقى من الرئتين.

والبطين الأيسر مهمته دفع الدم النقى إلى سائر أجزاء الجسم. ولهذا خلق الله عزّ وجلّ القلب وجعل جداره أكثر سمكاً، وبخاصة البطين الأيسر قد جعله الله تعالى أكثر سمكاً من البطين الأيمن، حيث يقع عليه عبء ضخ الدم، ويزن القلب حوالى ثلث كيلو جرام. ويحيط به غشاء يسمى التامور.

وللطحال أيضاً علاقة بالدورة الدموية فى الجسم، وهو عبارة عن غدة كبيرة فى حجم القلب تقريباً، ويقع أسفل الحجاب الحاجز بالجهة اليسرى من تجويف البطن، خلف المعدة. ومن أهم وظائفه: تكسير ما يفسد من كرات الدم الحمراء والتى يكون عمرها حوالى ١٢٠ يوم، والمشاركة مع النخاع العظمى فى تكوين كرات دم حمراء جديدة، وبعض كرات الدم البيضاء. إلّا أنه يعتبر عضو غير حيوى يمكن استئصاله فى أى وقت دون أى ضرر على صاحبه.

٢ ـ الأوعية الدموية الناقلة للدم وهى: الشرايين والأوردة والشعيرات.

(أ) الشرايين: وقد جعلها الله عزّ وجلّ بقدرته وبحكمته سميكة الجدار، ومطاطية ومرنة، لأنها تتحمل الضغط الناتج عن شدة دفع الدم من القلب داخلها، ولذا فهى تحمل الدم النقى الوارد من القلب إلى أجزاء الجسم. ويستثنى من ذلك الشريان الرئوى الذى يحمل الدم الغير نقى من البطين الأيمن إلى الرئتين لتنقيته. ويكون لون الشرايين أحمر وردى وغائر فى الجسم أى غير ظاهر.

(ب) الأوردة: وقد جعلها الله سبحانه وتعالى أقل سمكاً فى

جدارها من الشرايين ، لأنها تحمل الدم الغير نقى الوارد من أجزاء الجسم إلى القلب . ويستثنى من ذلك الأربع أوردة الرئوية التى تحمل الدم النقى الوارد من الرئتين . ويكون لون الأوردة أزرق قاتم ، وتوجد قريباً من سطح الجلد ولا تنقبض مع دقات القلب كالشرايين .

وتتميز الأوردة من الشرايين بوجود صمامات تسمح للدم بالمرور فى إتجاه القلب ، ثم تغلق من تلقاء نفسها لتمنع رجوع الدم إلى أسفل ، وبخاصة إذا كان الدم قادماً من أجزاء الجسم الموجودة أسفل القلب كالفخذين أو الساقين أو القدمين ، مخالفاً بذلك قانون الجاذبية الأرضية . ولذا فقد خلق الله عزّ وجلّ جدران الشرايين عضلية ، وجعل للأوردة هذه الصمامات .

(جـ) الشعيرات الدموية أو الأوعية الشعرية :

وهى مجموعة من الشعيرات الدموية وسميت كذلك لأنها دقيقة جداً ، وذات جدار رقيق جداً ، ويصل الدم إليها غنياً بالأوكسجين وعناصر الغذاء المختلفة ، ويتركها محملاً بثانى أكسيد الكربون وغيره من الفضلات التى تكونت نتيجة الاحتراق الغذائى ، فهى ملتقى الشرايين بالأوردة . فكل عضو من أعضاء الجسم يدخله شريان ويخرج منه وريد ويلتقى الاثنان بالشعيرات الدموية . وعن طريق هذه الشعيرات يتم تبادل الأغذية والأوكسجين بين الدم وخلايا الجسم .

ولو تأملنا عمل هذا الجهاز وكيفية أدائه لهذا العمل البديع ، لعلمنا أنه يسير بقدرة ، وينتظم بحكمة الخالق الأعظم جلّ جلاله فالدم الفاسد الموجود فى الشعيرات الدموية الموجودة والمنتشرة بأنسجة الجسم والأحشاء وغيرها ، ويتجمع عن طريق الأوردة فى

وريدين هما الوريد الأجوف العلوى والوريد الأجوف السفلى . فيصبان هذا الدم الغير نقى فى الأذين الأيمن حيث يتجمع فيه ، وعندئذ ينقبض الأذين الأيمن ليدفع بالدم المتجمع فيه إلى البطين الأيمن . ثم ينقبض البطين الأيمن ليدفع الدم إلى الشريان الرئوى الذى يحمله إلى الرئتين لتنقيته أى يأخذ الدم الأوكسجين ويتخلص من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء . ثم يعود الدم نقياً إلى الأذين الأيسر للقلب عن طريق الأربع أوردة الرئوية (إثنان من كل رئة) ثم ينقبض الأذين الأيسر ليدفع بالدم إلى البطين الأيسر ، وينقبض البطين الأيسر ليدفع بالدم إلى الشريان الأورطى الذى يقوم بدوره بتوزيع الدم على سائر أجزاء الجسم . ومن قدرة الخالق عزّ وجلّ أن جعل الأذين الأيمن والأذين الأيسر ينقبضان معاً وفى وقت واحد ليدفعا ما بهما من دم إلى البطينين ثم يعقب ذلك فترة استرخاء لهما ، يتم خلالها إنقباض كل من البطين الأيمن والبطين الأيسر ليندفع الدم منهما إلى شرايين الجسم والرئتين . وبانقباض عضلات البطينين وارتخائهما تكون تلك الانقباضات المسماة بالنبض .

وإذا ما تصورنا عدد تلك الانقباضات المكونة للنبض لوجدناها كما يلى :

الشخص	فى الدقيقة	فى الساعة	فى ٢٤ ساعة
الطفل	١٣٠ : ١٤٠	٧٨٠٠ : ٨٤٠٠	١٨٧٢٠٠ : ٢٠١٦٠٠
البالغ	٧٠ : ٨٠	٤٢٠٠ : ٤٨٠٠	١٠٠٨٠٠ : ١١٥٢٠٠
الشيخوخة	٦٠ : ٧٠	٣٦٠٠ : ٤٢٠٠	٨٤٦٠٠ : ١٠٠٨٠٠

وهذا هو العدد الذى يعتبر طبيعياً لنبضات القلب ، ولكنها تزيد عن ذلك بكثير فى حالات إضطراب القلب والحميات والنزيف الدموى والصدمة العصبية .

ورغم أن القلب هو الذى يتولى توزيع الدم على جميع أجزاء الجسم ، إلّا أن عضلاته تستمد غذاءها عن طريق الشرايين الموجودة بها كسائر أعضاء الجسم .

وعندما يتجلط الدم أى عند إنسداد هذه الشرايين ينتج عنه الموت المفاجىء . وهذا ما يطلق عليه الجلطة الدموية .

ولما كان القلب هو الذى يمد سائر الجسد بالغذاء عن طريق الدم ، فإنه يمده أيضاً بالغذاء الروحى من العلم والمعرفة . ولذلك لم يجعل الله سبحانه حفظ هذا القلب إلى الإنسان نفسه ، بل الذى تولى ذلك هو الخالق جلّ جلاله بنفسه ، فهو بين أصبعى الرحمن يقلبه بمشيئته كيف يشاء ، ومن هنا سمى القلب . وإذا ما أمعنا فى كلمة القلب لوجدناها إسم جامع لكل مقامات الباطن كلها !

فبمقدار إقبال القلب على الله شرق نور المعرفة ، وبقدر صفاء القلب ونقائه يشرق هذا النور **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم﴾**[1] . ولهذا يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى الشريف (**ما وسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن**) ويقول رسول الله ﷺ (**ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب**) وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول فى دعائه :

---

(١) الحجرات ٧ .

(اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبى وشر منيتى) ويقول (اللهم إنى أسلك أن تطهر قلبى وتحفظ فرجى) ويقول (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك).

(اللهم ارزقنى عينين هطالتان تشفيان القلب بذروف الدموع من خشيتك. قبل أن تكون الدموع دما والأضراس جمرا).

(اللهم طهر قلبى من النفاق وعملى من الرياء. ولسانى من الكذب وعينى من الخيانة. فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور).

اللهم بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام. أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى. وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى. وأسألك أن تنور بكتابك بصرى. وأن تطلق به لسانى. وأن تفرج به عن قلبى. وأن تشرح به صدرى. وأن تغسل به بدنى).

الجهاز الليمفاوى

يعتبر الجهاز الليمفاوى ومشتملاته من غدد وأوعية ليمفاوية جزء لا يتجزأ من الجهاز الدورى ، حيث يقوم بتهيئة المواد الغذائية التى بالأوعية الشعرية الشريانية لامتصاصها وتمثيلها بمعظم أنسجة الجسم ، ثم إعادة فضلاتها عن طريق الأوردة .

والقنوات الليمفاوية لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة رغم كثرة عددها لأنها دقيقة جداً ومعظمها شفاف .

ومن العجيب أنك تجد أن الأوعية الليمفاوية والأوردة التى تصحبها فى منطقة واحدة ، وأن يتبع كل منهما الآخر .

أى أنهما يسيران جنباً إلى جنب إلى أن تنتهى الأوعية الليمفاوية فى غددها الخاصة ، وتجتمع الأوردة فى الوريد الأكبر على مقربة من المكان الذى به الغدد الليمفاوية .

والأوعية الليمفاوية غنية بصماماتها المتقاربة مع بعضها ، وتمر أثناء سيرها بمجموعة أو أكثر من العقد الليمفاوية أو الغدد الليمفاوية . التى تعتبر بحق خط الدفاع الثانى ضد غزو أى ميكروبات أو جراثيم للجسم ، حيث أن كرات الدم البيضاء أو خلايا الدم البيضاء هى خط الدفاع الأول . وتوجد الأوعية الليمفاوية فى أنسجة الجسم التى تتغذى عن طريق الدم .

أما الجهاز العصبى الرئيسى ، والغضاريف والأظافر وبشرة الجلد والشعر فلا توجد بها أوعية ليمفاوية .

فإذا ما غزا الجسم أى ميكروبات أو جراثيم أسرعت إليها كرات الدم البيضاء ، وقام السائل الليمفاوى مسرعاً لمساعدتها ، فى قتل

هذا العدو الغائر.

فإذا تغلبت الميكروبات أو الجراثيم على كرات الدم البيضاء، حمل الليمف هذا العدو إلى أقرب عقدة ليمفاوية فى الجسم حيث تصب عليه العديد من كريات الدم البيضاء، حتى يهزم العدو. ولم يقتصر عمل الجهاز الليمفاوى على ذلك فقط بل إنه يقوم بجمع خسائر هذه المعركة من كريات الدم البيضاء والميكروبات أو الجراثيم، ويمنعها من المرور فى الدم حتى لا تصل إلى القلب، وتهلكها حتى تحمى الجسم من خطرها.

وبمرور السائل الليمفاوى وهو محمل بالجراثيم المختلفة بالغدد الليمفاوية، واجهادها نتيجة عملها الدائب فى إفراز كريات الدم البيضاء، فإنها تلتهب وتتورم وتكون ما يسمى بالحبل، ففى حالة الإصابة فى الساقين تلتهب الغدد التى بأعلى الفخذين وبجوار العانة، وفى إصابات الذراع يكون الحبل تحت الإبط، وفى حالة الإصابة فى الرأس أو الوجه أو الأسنان يكون أسفل الفك الأسفل.

الجهاز الهضمى

يشمل الجهاز الهضمى كل الأعضاء التى تشترك فى عملية الهضم من بدء دخول الطعام إلى الفم إلى أن تخرج فضلاته من فتحة الشرج. ويمر الطعام بعدة مراحل منها المضغ والبلع والهضم ثم عملية الامتصاص فى المعدة والامعاء، وتنتهى بالتخلص من الفضلات التى لا حاجة للجسم بها عن طريق فتحة الشرج.

ويتكون هذا الجهاز من : الفم ، البلعوم ، المرىء ، المعدة ، الامعاء الدقيقة والامعاء الغليظة ثم فتحة الشرج . وكذلك الأعضاء التى لها صلة بالقناة الهضمية وتساهم فى عملية الهضم كالكبد والبنكرياس وغيرها من الغدد .

١ ـ الفم : وهو عبارة عن تجويف يبدأ من الشفتين وينتهى عند مؤخرة الحلق . وتتكون الشفتان من ألياف عضلية مكسوة بغشاء مخاطى وردى اللون من الداخل ، وبطبقة جلدية رقيقة من الخارج . والفم هو بداية القناة الهضمية ، ويدخل منه الطعام الذى يتناوله الإنسان ، وبداخله اللسان وهو عبارة عن عضو عضلى يستعمل فى حالات المضغ والبلغ والتكلم ، وهو مغطى بغشاء أعطاه الله خاصية التذوق ، والعضلات المكونة له تجعله يتحرك فى إتجاهات مختلفة ويوجد بالفم الغدد اللعابية وبيانها كما يلى :

(أ) الغدة النكفية : وهى على جانب أمام الأذن ، وهى واحدة فى كل ناحية .

(ب) الغدة الفكية : وهى تحت جانب الفك وهى واحدة فى كل ناحية .

(ج) الغدة تحت اللسان : وموقعها تحت اللسان من الأمام وهى واحدة فى كل ناحية . ولكل غدة قناة تصب داخل الفم . أى أن عدد الغدد التى على جانبى الفم ست غدد ، تفرز حوالى ١٠٠٠ : ١٥٠٠ سم^{٣} من اللعاب (الريق) المحتوى على خميرة (إنزيم) ومهمته التأثير على المواد النشوية فتحولها إلى مواد سكرية ، كما يساعد على جعل الطعام على هيئة كتل صغيرة ليسهل بلعها .

ولذا فإن المضغ الجيد يزيد من إفراز اللعاب كما يساعد على

هضم النشويات . ويسمى سقف الفم بالحلق ، وهو الذى يفصل الفم عن الأنف ، ويتركب من جزءين الأول عظمى صلب والثانى فى الخلف وهو مكون من عضلات لينة ، والجزآن مغطيان بغشاء مخاطى ينتهى بجزء صغير يتدلى فى التجويف العلوى للبلعوم ويسمى اللهاة . كما يوجد داخل الفم اللثة وهى عبارة عن نسيج لينى يغطيه الغشاء المخاطى للفم من جهتيه ، ويحيط هذا النسيج بالأسنان من جزئها الأسفل (ما نسميه بالجذور) واللثة غنية بالأوعية الدموية والليمفاوية والأعصاب .

ويوجد داخل الفم الأسنان ، وعددها فى الشخص البالغ إثنين وثلاثين ، منها ستة عشر بكل فك ، وتظهر فى الفم على مراحل . ويبدأ ظهورها عادة فى الشهر السادس أو السابع من عمر الطفل ، وتعرف هذه الأسنان بالأسنان اللبنية أو أسنان الرضاع ، ويكون عددها عشرة تقريباً ، وهذه تتساقط تدريجياً ليحل محلها الاسنان المستديمة .

فتظهر القواطع أولاً بين الشهر السادس إلى الرابع عشر فى الفك الأسفل ، كما تظهر الأنياب والأضراس الأولى بين الشهر الرابع عشر حتى العشرين ، والأضراس الثانية بعد الشهر العشرين والرابع والعشرين .

وقد يتأخر ظهور الأسنان عن ذلك بسبب ضعف الطفل أو إصابته ببعض الأمراض كلين العظام أو الأمراض الغذائية .

والأسنان اللبنية أصغر حجماً وأقصر طولاً وأقل صلابة وجذورها أقصر ، ومتفرقة عن بعضها ، ولونها أبيض من الأسنان الدائمة .

وإذا ما حلّ وقت ظهور الأسنان الدائمة ، دفعت تلك الأسنان بالأسنان اللبنية لتحل محلها . فتظهر الطواحن الأولى فى السنة السادسة من العمر . والقواطع فى سن السابعة . والأضراس الأولى فى التاسعة . والأضراس الثانية فى العاشرة . والأنياب فى الحادية عشرة . وباقى الطواحن بين سن السابعة عشرة والعشرين أو ما بعد ذلك بما فيها أضراس العقل . وقد خلق الله سبحانه وتعالى لمعظم الأسنان جذراً واحداً . وللطواحن جذرين فى الفك السفلى أو ثلاثة فى الفك العلوى . كل واحد منها مثبت فى اللثة ، وتدخل الأوعية الدموية وأعصاب الأسنان من ثقوب صغيرة عند قمة كل جذر . وعلى ذلك يكون تركيب طاقم الأسنان فى كل فك كما يلى :

٤ قواطع من الأمام . ٢ أنياب . ٤ ضروس قبل الطاحنة ، ٦ ضروس طاحنة . أى ستة عشرة بكل فك . ٤ + ٢ + ٤ + ٦ = ١٦ .

وبالفم يوجد اللسان وهو عبارة عن عضو عضلى قاعدته إلى الخلف مثبتة بواسطة عضلات اللسان ، أما قمته فسائبة وإلى الأمام .

فسبحان الخلاق العظيم الذى يكون هذا اللسان من جملة عضلات مختلفة الاتجاهات . منها ما هو لتثبيت اللسان ، ومنها ما يمكنه من إتخاذ أشكال مختلفة تسمح له بالحركة أثناء البلع أو المضغ أو الامتصاص . ومنها ما يكون لتكييف الأصوات بطريقة تتناسب واخراج مقاطع الكلمات والحروف . ويغطى اللسان من كل جهة غشاء مخاطى يختلف كثيراً بالنسبة لمناطق اللسان المتباينة ، وسطحه العلوى غشاؤه المخاطى سميك وملىء بارتفاعات عديدة تسمى

الحلمات . ويغذى هذه الحلمات عصب خاص من المخ يحمل إلى اللسان حاسة التذوق للأطعمة المختلفة . فيأكل الإنسان ما يستسيغه ويرفض ما لا يستسيغه وتسرى فى أنسجة اللسان الشرايين والأوردة التى تمده بالدم والأعصاب التى تنقل إليه أوامر الحركة والمضغ والكلام الصادرة من المخ .

واللسان هو الذى يحرك الطعام إلى الوضع الذى يسهل طحنه . ثم يشكله على هيئة كتل صغيرة يحركها نحو البلعوم عند الابتلاع .

ويمكن معرفة الحالة الصحية للإنسان من مظهر لسانه . وبخاصة عند ارتفاع درجة الحرارة أو سوء الهضم . كما أن جروح اللسان تلتئم بأسرع ما يمكن . ومن فضل الله تعالى أن جعل الأسنان متفرقة ولم يجعلها قطعة واحدة حتى إذا سقط بعضها انتفع بالباقى .

٢ ـ البلعوم : هو الجزء العلوى من القناة الهضمية الذى يلى تجويف الفم ، وهو عبارة عن قناة عضلية يبلغ طولها ١٢ : ١٤ سم وهو الذى يصل الفم بالجزء العلوى من المرىء ، وهو متصل بسبع فتحات هى : فتحتى مؤخر الأنف ، فتحتى القناتين السمعيتين ، وبرزخ الحلق ، وفتحة الحنجرة من الأمام ، ثم فتحة المرىء من أسفل . ونجد اللوزتين على جانبى البلعوم ، واحدة على كل جانب ، وهما جسمان ليمفاويان يغطيهما الغشاء المبطن للبلعوم .

٣ ـ المرى : وهو عبارة عن قناة عضلية تمتد من نهاية البلعوم ، ويجتاز التجويف الصدرى خلف القصبة الهوائية والشعبة اليسرى ، ثم يخترق عضلة الحجاب الحاجز ، ويمتد إلى مسافة قليلة فى تجويف البطن ، ليتصل بالمعدة عند فتحتها الفؤادية ، وطوله حوالى ٢٥ سم

ووظيفته توصيل الأكل والشراب إلى المعدة .

٤ ـ المعدة : وهى عضو عضلى أجوف داخل التجويف البطنى تحت الحجاب الحجز مباشرة من الجهة اليسرى . وتتصل من أعلى بالمرىء عند فتحة الفؤاد . وتنتهى بالمعدة بفتحة تسمى فتحة البواب . تصلها بالجزء الأول من الامعاء الدقيقة (المسمى بالاثنى عشر) وسمى بالأثنى عشر لأن طوله حوالى ١٢ سم تقريبا .

وجدران المعدة قابلة للامتداد . ومجهزة بغدد خاصة تفرز عصارات هاضمة للمواد البروتينية . وهذه العصارات تتكون من البيبسين وحمض الكلوروديك المخفف . ووظيفة المعدة هى العمل على مزج المواد الغذائية وطحنها . وهضم المواد البروتينية (الزلالية) والدهنية هضماً جزئيا . فلا يكاد يصل الطعام إليها حتى تبدأ غددها فى إفرازاتها الحمضية وعصاراتها . وتقوم عضلاتها بانقباضات عضلية للمساعدة على عملية الهضم . وتفرز المعدة يوميا حوالى ٢٠٠٠ : ٣٠٠٠ سم^{٣} من هذه العصارات عند الفرد البالغ . ومن الحكمة الإلهية أنها ذات تركيز محدود وكثافة معينة . بحيث لو قل قليلاً لما تم هضم الطعام . ولو زاد قليلاً لأحرق أنسجة المعدة . وقد تحدث بما يسمى بقرحة المعدة .

كما تتأثر المعدة بالإنفعالات العاطفية حيث يتصل بها العصب العاشر الدماغى (العصب الحائر) .

٥ ـ الامعاء الدقيقة : وهى على شكل أنبوبة طويلة مكونة من ألياف عضلية . وأجزاؤها ملتوية بعضها على بعض . وعندما تنقبض تتحرك جدرانها بحركات تموجية . وطول الامعاء الدقيقة حوالى ٦،٥ متر يبطنها غشاء مخاطى به غدد تفرز خمائر لهضم الطعام .

ومن الخارج مبطنة بغشاء بريتونى يمتد إلى الفقرات القطنية على شكل رباط عريض يسمى المساريقا يسمح بتحرك الأمعاء.

وتبدأ الأمعاء الدقيقة بالاثنى عشر. ويتصل بالإثنى عشر من الخلف واليمين قناة الصفراء الآتية من الكبد. وقناة البنكرياس الآتية من غدة البنكرياس.

وعندما يمر الطعام فى هذا الجزء من الامعاء يمتزج بعصارة الكبد التى تقوم بتوصيلها القناة الصفراوية، ووظيفة هذه العصارة هى هضم المواد الدهنية وتنشيط حركة الامعاء.

كما يختلط الطعام بإفراز غدة البنكرياس (العصارة البنكرياسية) التى تقوم بدورها بهضم المواد الدهنية والنشوية والزلالية. وتتم معظم عملية امتصاص الغذاء المهضوم فى الامعاء الدقيقة.

٦ ـ الامعاء الغليظة: وتبتدىء من نهاية الامعاء الدقيقة وتشمل القولون الصاعد الذى ينتهى عند أسفل الفص الأيمن للكبد.

أما القولون المستعرض فهو الذى يبدأ من نهاية القولون الصاعد، ويسير مستعرضاً أسفل المعدة وأمام الاثنى عشر والبنكرياس حتى ينتهى أسفل الطحال على اليسار.

والقولون النازل الذى ينتهى فى الحوض ويبدأ بالمستقيم، ثم يمر المستقيم متجهاً إلى أسفل والخلف حيث ينتهى بفتحة الشرج. وتمتص جدران الامعاء الغليظة ما لم يتم إمتصاصه من السوائل فى الامعاء الدقيقة، حيث ينتقل إليها الطعام وهو على هيئة سائل، فيتم امتصاص معظم ما فيه من ماء، فتصير محتوياته شبه صلبة، وتبقى بعد ذلك الفضلات التى هى عبارة عن الغذاء التى لم يتم

هضمه أو امتصاصه ، فتكون هى عبارة عن البراز الذى يخرج من فتحة الشرج .

ويوجد على بعد بضعة سنتيمترات من إلتقاء الأمعاء الدقيقة بالغليظة أنبوبة رفيعة متدلية وملتوية تسمى الزائدة الدودية . وسميو كذلك لأن شكلها العام يشبه الدودة ، وعندما يلتهب هذا الجزء يحدث المرض المسمى بالزائدة الدودية .

ويتصل بالجهاز الهضمى أعضاء من جسم الإنسان تتعاون معه فى هضم الطعام وهى :

١ ـ الكبد : وهو عبارة عن غدة كبيرة الحجم معظمها فى الجانب الأيمن العلوى من تجويف البطن تحت الحجاب الحاجز ، ووزنه حوالى ١,٥ كيلوجرام وهو مكون من فصين ، ويلتصق به من أسفل كيس المرارة الذى يتصل بقناة لتفريغ محتوياته بالإثنى عشر .

ووظيفة كيس المرارة (الحويصلة المرارية) هى تخزين وتركيز العصارة الصفراوية لحين نزولها من القناة الصفراوية إلى الاثنى عشر .

وللكبد أهمية كبيرة فى إفراز هذه العصارة التى تعمل على هضم المواد الدهنية وتنشيط حركة الامعاء ومنع تعفن الأغذية بها .

وفى حالة مرض الكبد يصاب المريض بما نسميه بمرض الصفراء ، فنجد أن المريض المصاب يصاب بإصفرار فى مقلة العينين ولون البشرة ، وكذلك يكون لون البول كالشاى الثقيل أو صبغة اليود أو العرقسوس . كما يقوم الكبد باستخلاص السكر (الجلوكوز) من الدم وتخزينه لحين الحاجة إليه وعلى هذا فالكبد هو المنظم لعملية إمتداد الجسم بالجلوكوز ، وبنسبة معينة ، بحيث لو زادت هذه النسبة لتعرض صاحبها لمرض السكر . كما يقوم بتكوين

مادة البولينا من الأحماض الزائدة ، ويحملها الدم إلى الكليتين حيث يتم إفرازها فى البول ، وعندما يتم إحتباس البولينا فى الجسم يؤدى إلى تسمم بولينى قد يؤدى إلى الوفاة .

ويفرز مادة تساعد على تجلط الدم ، وحجز بعض السموم المعدنية التى تدخل مع الطعام وتمتصها الأمعاء .

٢ ـ البنكرياس : وهو الغدة الثانية التى تفرز عصارات هاضمة تصب فى القناة الهضمية ، وهى مستطيلة الشكل تقع فى وضع مستعرض تحت جدار البطن الخلفى ، ورأسها محاطة بالأثنى عشر ، وطرفها الأيسر يلامس الطحال ، والبنكرياس مغطى بالبريتون من الأمام ، وله قناة تتحد والقناة الصفراوية ليصبا فى فتحة واحدة فى الأثنى عشر .

وهناك إفراز آخر داخلى للبنكرياس حيث يفرز الأنسولين الذى يصب فى الدم مباشرة ، ويبلغ طوله ١٥ سم ، والعصارة الهاضمة التى يفرزها هى الاستيابسين (stiapsin) وهى لهضم المواد الدهنية ، والترسين (trypsion) لهضم المواد الزلالية ، ، والانفرتيز (invertase) لهضم المواد النسوية ، والأنسولين (insoline) لحرق المواد السكرية فى الدم لتكوين الطاقة فى الجسم .

الجهاز البولى

الجهاز البولى هو الجهاز الذى يقوم بفصل البول من الدم ، وطرده خارج الجسم ويتكون من الكليتين والحالبين والمثانة ثم قناة مجرى البول .

١ ـ الكليتين : هما غدتان تفرزان البول ، وتقع كل منهما فى الجزء الخلفى من التجويف البطنى خلف البريتون ، أحدهما على يمين العمود الفقرى والأخرى عن يساره ، وتزن الكلية الواحدة حوالى ٢٠٠ جم ، ويبلغ طولها حوالى ١١ سم وعرضها ٥ سم وسمكها ٣ سم تقريباً ، وتشبه فى شكلها العام حبة الفاصوليا ، وهى موضوعة رأسياً ، وحافتها الخارجية مستديرة ومحدبة ، بينما حافتها الداخلية قريبة من العمود الفقرى مستديرة ومحدبة ، وهى مغلفة بغلاف رقيق ، وهى ممتدة على الفقرة الأخيرة الظهرية والثلاث فقرات القطنية العليا . وتتصل الكلية عند حافتها المقعرة بالحالب والأوعية الدموية ، ويسمى الوعاء الدموى الداخل إلى الكلية بالشريان الكلوى ، والوعاء الخارج منها يسمى بالوريد الكلوى ويصب فى الوريد الأجوف السفلى ، وعند إتصال الحالب بالكلية يتخذ شكلاً قمعياً يسمى بحوض الكلية ، ويتكون النسيج الكلوى من مجموعة من الوحدات الصغيرة التى تسمى وحدات ملبيجى (Malpighian bodies) وهى عبارة عن كرة صغيرة الحجم إنخسف أحد جوانبها إلى الداخل ، وهى مبطنة بطبقة واحدة من الخلايا ويخرج من كل كرة قناة صغيرة تسمى قناة ملبيجى ، وتفتح هذه القنوات فى حوض الكلية ، ويتفرع الشريان الكلوى الداخل إلى الكلية إلى شعيرات موزعة تحت الخلايا المبطنة لكل وحدة من الجهة المنخسفة ، ويخرج من كل وحدة وريد صغير ليصب فى الوريد الكلوى .

وإذا ما نظرنا إلى الكليتين فإننا نجد أن ما يصل إليهما من دم فى حالة الراحة هو ١٣٠٠سم كل دقيقة . وهذا الدم لا بد أن ينقى ،

ولنلق بعض الضوء بقدر علمى عن عمل هاتين الكليتين ، لنتأمل السر العجيب فى هذا النظام الدقيق الذى يدل على عظمة الخالق ، وابداع الصانع جلّ جلاله .

فالكليتان هما المنظمتان لكمية الماء بالجسم ، والماء الذى يمر فيهما يمتص أغلبه (حوالى سبعة أثمان حجمه) ويعاد داخل الجسم ، بينما يخرج الباقى (ثمن) على هيئة بول . وفى الشتاء يلاحظ زيادة كمية البول عن المعدل الطبيعى ، ويقل فى الصيف نظراً لكمية الماء التى تخرج من الجسم عن طريق العرق . ومعنى ذلك أن الكليتين تبقيان الماء اللازم للجسم فلا تخرجه .

كما تعمل على تنظيم نسبة الأملاح فى الدم ، فالزائد عن الحاجة يخرج فى البول ، وإذا نقص ملح أبقت على وجوده والحفاظ عليه فى الدم حتى لا يتأثر الجسم ، لأن لكل نوع من أنواع الأملاح أهمية خاصة فى وظائف الجسم . فلو نقص ملح الطعام (كلوريد الصوديوم) مثلاً فى الجسم لشعر الإنسان بإنهاك شديد فى العضلات ، مع هبوط فى ضغط الدم وشعور بدوار أو وجود تقلصات فى العضلات ، وغثيان وقىء وتقلصات بعضلات البطن . ولو نقص ملح البوتاسيوم أو زاد لحدثت تغيرات شديدة بالجسم كوجود هبوط عام وعدم إنتظام ضربات القلب وانتفاخ بالبطن . أليست الحكمة الإلهية فى إبقاء الكليتين على وجود الأملاح بها وتنظيم ذلك ، إنما هو عمل إلهى متناهى الدقة والأداء ؟

وتقوم الكليتان بالحفاظ على تفاعل الدم ، فتجعله دائماً يميل إلى القلوية . فإذا زادت حموضة الدم نشطت لعلاج هذه الحموضة .

لأن تغير تفاعل الدم إلى الحموضة أو القلوية يسبب خطراً على حياة الإنسان . فإن كانت حمضيا نتج عن ذلك الغيبوبة الحمضية التى ربما أودت بحياة المريض . واذا زادت نسبة قلوية الدم سبب ذلك وجود تقلصات شديدة فى العضلات تؤلم المريض .

وهناك من الأمراض ما يغير تفاعل الدم . فتقوم الكليتان بإفراز المواد التى تساعد على تصحيح الوضع حتى لا تسوء حالة المريض . وينتج وجود إضطراب فى وظائف الأعضاء المختلفة .

ومن جليل صنع الله الذى أتقن كل شيء صنعه أن الكليتين تحافظان على المواد اللازمة للجسم أثناء مرور الدم فيهما . فلا يخرج الجلوكوز الهام لكافة الجسم . ولا البروتينات اللازمة لبناء الجسم والعمل على المناعة فيه . ولا تخرج الفوسفات والبيكربونات والأمونيا وغيرها من المواد .

ولا يشعر بهذه النعم الجليلة إلّا من يصاب بمرض أو قصور فى عملها فتخرج البروتينات منهما ، كما هو الحال فى حالات الإلتهاب الكلوى الحاد ، والذى تكون فيه نسبة الزلال فى البول عالية جداً ، وكمية البول قليلة خلال ٢٤ ساعة (٢٥٠ : ٤٠٠سم^{٣}) ويكون لونه غامق لوجود كرات دم حمراء به ، كما تزيد الكثافة النوعية (١٠٢٥ : ١٠٣٥) وتوجد اسطوانات كلوية عند الفحص الميكروسكوبى .

وعندئذ يتورم الجسم ، وتتورم البطن ، ويمتلىء الصدر والبطن بإنسكاب مائى يؤثر على عمل هذه الأعضاء .

ولولا الكليتان لما أمكن لأى دواء يتعاطاه الإنسان أن يمر دون أن يؤثر كثيراً على بدنه ، ولذا فإنه عند تناول مخدرات بكميات كثيرة

خطأ أو عمداً ، فتعمل الكليتان جاهدتان على التخلص من هذا المخدر ، وإذا كان زائداً عن مقدرتها ، أو تباطأ فى عملها ، كانت النهاية المحتومة لهذا الإنسان .

كما تقوم بطرد الفضلات من المواد البروتينية وغيرها خارج الجسم ، لأنها لو بقيت بداخله أضرته وسببت مضاعفات كثيرة فالبولينا إذا ارتفعت نسبتها فى الجسم سببت التسمم بالبولينا . وحمض البوليك إذا ارتفعت نسبته سبب مرض النقرس .

٢ ـ الحالبين : إن الكليتين فى عمل دائب ومستمر ، فهى تقوم بترشيح ١٣٠٠سم^{٣} دم فى الدقيقة أى ما يعادل ١٨٧٢ لتر يومياً ، وما ينفع الجسم تمتصه ، وما يضره تخرجه على شكل بول يحمل الفضلات المتخلفة . ويبلغ متوسط ما يفرزه الشخص البالغ يومياً من البول حوالى ١٥٠٠سم^{٣} ، ومن حكمته سبحانه ولأهمية هذا الجهاز فى جسم الإنسان أن خلق الله سبحانه وتعالى لكل إنسان كليتين ، حتى إذا إعتلت واحدة منهما ، أمكن للأخرى أن تقوم بعملها ، وليس ذلك فحسب فإن جزءا يساوى ثلث كلية فى حالة سليمة يمكن أن يؤدى هذا العمل فى الحالات العادية ﴿**إن الله بالناس لرءوف رحيم**﴾[١] ولهذا كان لا بد للكليتين أن تفرز البول بصفة مستمرة ، ولا بد وأن يكون لهذا البول طريق ينفذ منه إلى خارج الجسم . فخلق الله عزّ وجلّ الحالبين لترسل بالبول المتجمع فى حوض كل كلية إلى المثانة .

والحالب عبارة عن قناة رفيعة يجرى فيها البول ويبلغ طوله

---

(١) البقرة ١٤٣ .

حوالى ٢٥ سم وقطره ٨, سم ، ويقع خلف البريتون المبطن لتجويف البطن .

وينقبض الحالب إنقباضات منتظمة من أعلى إلى أسفل ، وتزيد هذه الانقباضات فى حالة المرض (بمعدل ٣ مرات فى الدقيقة فى الأحوال العادية) وقد تشتد فى بعض الأحيان بدرجة مؤلمة لتدفع ما يوجد به من أجسام غريبة كالحصوات فيحدث المغص الكلوى .

٣ ـ المثانة : عبارة عن عضو عضلى كمثرى الشكل مبطن بغشاء مخاطى وملفوف من الخارج بغشاء مصلى .

وتقع المثانة أسفل البطن ، وداخل تجويف الحوض أعلى الارتفاق العانى مباشرة ، وأمام المستقيم فى الذكور ، وأمام الرحم وقناة المهبل فى الاناث . والجزء الأسفل من المثانة يسمى عنق المثانة وهو متصل بقناة مجرى البول والمثانة بمثابة خزان للبول الذى يأتى إليها من الحالبين ، وسعتها حوالى ١٢٠ : ٣٢٠ سم^{3} متوسط ٢٥٠ سم^{3} ، وحينما تمتلىء يشعر الإنسان برغبته إلى التبول ، فتنقبض عضلات المثانة لتقذف بالبول إلى الخارج عن طريق قناة مجرى البول . ومن الحكمة الإلهية أن الفتحة التى بين الحالب والمثانة تسمح لمرور البول من الحالب إلى المثانة وتمنعه من الرجوع إلى الحالب مرة أخرى .

٤ ـ قناة مجرى البول : تبتدىء من المثانة وتنتهى فى الذكور بفتحة فى نهاية القضيب ، وفى الإناث بفتحة فى أعلى الدهليز وتحت البظر بحوالى ٢ سم ، وتمر فى الرجال داخل غدة البروستاتا ثم العجان والقضيب ، وفى الإناث ترتكز على جدران المهبل الأمامية .

الجهاز التناسلى

من حكمة الخالق والمبدع جلّ جلاله أن خلق الذكر وجعل له وظيفته ومهمته . وخلق الأنثى وجعل لها وظيفتها ومهمتها . وجعل كل منهما متمم ومكمل للآخر .

وقد جعل الخالق عزّ وجلّ للرجل أجهزة تناسل تتناسب مع مهمته التى يؤديها فى الناحية الجنسية . وجعل للمرأة أجهزة تناسل تتناسب مع مهمتها . ولكنها مخالفة ومغايرة لأجهزة الرجل .

أعضاء الجهاز التناسلى المذكر

١ ـ عضو الذكورة : تختلف أطواله العادية فيكون فى المتوسط حوالى ١٠ سم ، وبارز عن موضعه ، ويحدث التهيج من مراكز العصب المخى أو عند لمس أطرافه ، فيتضخم ويمتلىء ويمتد بسبب ما يرد إليه من الدماء ، وأكثر أجزائه حساسية الجزء الأسفل من قمته .

ومن حكمة الخالق عزّ وجلّ أنه فى حالة الهدوء وعدم التفكير الجنسى ، فإنه يرى رخواً منكمشاً على نفسه ، ولكنه فى حالة التفكير فى الناحية الجنسية ، أو عندما يتلقى الإشارة من مراكز العصب المخى ، فإنه يندفع منتصباً فى حالة صلبة ليؤدى مهمته ، فيصبح طوله ١٠ : ٢٠ سم . كما يرى منتصباً عند الاستيقاظ من النوم بسبب ضغط المثانة الممتلئة كما يحدث ذلك عند رؤية صور الجميلات وفي حالة الإصابة ببعض الأمراض .

٢ ـ الخصيتان : ويبدأ تكوينهما عندما يكون الذكر جنيناً فى بطن أمه ، فيكونان أسفل الكليتين ، وقد ذكرنا أن الكليتين تقعان فى التجويف البطنى خلف البريتون ، وأحدهما عن يمين العمود الفقرى والأخرى عن يساره . وقبيل الولادة مباشرة تنزلقان إلى كيس مرن من الجلد أمام الحوض يسمى الصفن .

والخصيتان عبارة عن غدتان بيضاويتا الشكل تقريباً ، يحيط بهما كمية من سائل مصلى ، ووظيفتهما هى إفراز الحيوانات المنوية من سن المراهقة إلى سن الشيخوخة . وتنتقل الحيوانات المنوية منهما عن طريق أنبوبتين دقيقتين توصلان إلى كيس خلف المثانة ويسمى بالحويصلة المنوية . وعند الإتصال الجنسى يخرج المنى من هذه الحويصلة المنوية عن طريق قناتين قاذفتين تخترقان غدة البروستاتا ، وتصبان فى مجرى البول ، ومنها إلى الخارج .

ومن حكمة الخالق عزّ وجلّ أن جعل غدة البروستاتا والحويصلة المنوية تفرزان إفرازات تعمل على حفظ الحيوانات المنوية وأن تكون دائماً محتفظة بحيويتها ونشاطها .

كما توجد عضلات ترفع الخصيتين عند انكماش الكيس ، واليسرى تكون متدلية قليلاً عن اليمنى ، وهما فى كيس أسفل عضو الذكورة يغطيه شعر بسيط ، وهذا الكيس قابل للتمدد والانكماش .

ولم يتم التعرف على الحيوانات المنوية وبأنها خلايا متحركة إلّا فى عام ١٧٦٨ ميلادية ، أى بعد أن أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها بألف عام أو أكثر .

والبعض يعلل بأن الأنثى هى السبب فى كون الوليد ذكراً أو

أنثى ، كما يقول فريق آخر بأن رسول الله ﷺ يقول : (**إذا سبق ماء الرجل كان المولود ذكراً ، وإذا سبق ماء الأنثى كان المولود أنثى**) ومعنى هذا الحديث لم يكن بهذا المفهوم مطلقاً ، لأن رسول الله ﷺ لا يقول قولاً ينافى ما قرره الله سبحانه وتعالى وقضى به .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى يقول ﴿**لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم قدير**﴾[1] ﴿**ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**﴾[2] .

فماء الرجل هو الذى يحمل الذكورة والأنوثة ، وما رحم الأنثى إلّا وعاء الاحتضان لما أراده الله وقدره ، كمثل الأرض التى تنبت البذر الذى تم بذره فيها ، ولا ينتج عن هذا البذر نباتاً غير ما تم بذره .

فيكون معنى الحديث أنه إذا سبق لاخصاب البويضة الحيوان المنوى المذكر كان الوليد ذكراً ، وإذا سبق لاخصاب البويضة الحيوان المؤنث كان الوليد أنثى ، وذكرنا أن ذلك هو تقدير العزيز العليم .

٢ ـ البروستاتا : وهى كروية الشكل ، وتحيط بالجزء الخلفى من مجرى البول ، وتفرز سائلاً قلوياً خفيفاً يشبه اللبن فى بياضه ، يخرج مع إفراز المنى .

---

(١) الشورى ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) الحج ٥ .

الأعضاء التناسلية المؤنثة

هناك من الأعضاء التناسلية للأنثى ما هو ظاهر وما هو غير ظاهر ، وتنقسم هذه الأعضاء عند الفتاة أو المرأة البالغة إلى أعضاء ظاهرة تراها العين ، وأعضاء داخلية غير ظاهرة لا تراها العين ، فإذا ما استلقت المرأة على ظهرها وباعدت ما بين ساقيها ، ظهر الشفران الكبيران السميكان ، تكسوهما طبقة من الشعر الخشن .

وإذا ما أبعد ما بين الشفرين الكبيرين ظهر فرج المرأة واتضحت باقى أجزائه ، فيكون أول ما يراه الإنسان الشفران الصغيران ، ويتراوح كل منهما ما بين ٢,٥ : ٥ : ٣سم وارتفاعهما حوالى ١,٥سم وسمكهما حوالى نصف سم ويتضاءلان حتى يختفيان عند الشرج والفرج .

كما يظهر البظر الذى يمتد بين الوركين وقمته غدة البظر . أى أن رأسه يظهر بين الشفرين الكبيرين ، وله قضيب يميل إلى الأمام قليلاً ، وجلده رقيق متعرج ، ولا يظهر للعين ، إذ أنه مجرد إنتفاخ أو تضخم ، والجلد الذى يغطى قمة البظر يمكن تحريكه .

والبظر هو عضو اللذة الحسية ، إذ أنه يحمل شبكة من الأعصاب تنقل المؤثرات المهيجة التى تنفجر من أخف لمس ، فيتضخم ويتصلب حينما يمتلىء بالدم .

وهو يفرز سائلاً أبيض اللون دهنى اللمس ، لا يلبث أن يتجمد إن لم تعتن المرأة بإزالته ، وقد يتحول إلى قشور وطبقات رقيقة بعضها فوق بعض . وهو إذا تراكم سبب للمرأة التهاباً موضعياً

يجعل الإتصال الجنسى أمراً مؤلماً لها ، كما يسبب نفور الرجل عندما يشم رائحته .

ويوجد ما بين الشفرين الصغيرين من الداخل فتحة المهبل ، وهذه الفتحة تكون مغلقة عند البكارى بغشاء البكارة . وإلى جانبها الصماخ البولى وهناك غدد تفرز مادة مخاطية عند التهيج الجنسى لتليين ثغر الفرج ، وغشاء البكارة يغلق فتحة المهبل إغلاقاً جزئياً ويزول بالزواج ، ويختلف من فتاة لأخرى فى حجمه وسمكه وصلابته .

وفتحة المهبل لا تنفتح إلّا لعضو الرجل أو الأصبع أو الآلة الطبية ، وهى دائماً مغلقة وبخاصة عند العذارى أو النساء اللائى لم يستمررن فى الجماع .

أما الأعضاء التناسلية الداخلية فتشمل :

١ ـ المهبل : هو الدهليز المؤدى إلى عنق الرحم ، وهو عبارة عن قناة طرفها السفلى عند فتحة التناسل الخارجية ، وطرفها العلوى متصل بعنق الرحم ، وهو بمثابة الفم لهذا الجهاز التناسلى .

أى أنه حلقة الاتصال بين فتحة الفرج الخارجية وبين الأعضاء الباطنية للجهاز التناسلى ، ويبلغ طوله حوالى ٨ : ١٠ سم .

٢ ـ المبيضان : وهما لا يفرزان شيئاً فى مرحلتى ما قبل سن البلوغ وبعد سن اليأس ، وهما يقابلان الخصيتان عند الرجال ، ولكنهما لا ينزلان من البطن كالرجل ، بل يبقيان متصلان برباط مع الرحم داخل الحوض .

وعندما تصل الأنثى إلى سن المراهقة يفرز أحد المبيضان بويضة واحدة كل شهرين ، بمعنى أن المبيض الأيمن يفرز بويضة فى شهر ،

ويفرز المبيض الأيسر بويضة فى الشهر الذى يليه . أى يكون إفراز البويضة شهرياً . ولكن كل منهما يفرزها فى شهر بالتبادل بينهما .

ويتمتع مهبل المرأة بحصانة عجيبة ضد معظم الميكروبات . لأن الهرمونات التى تفرزها المبايض تعمل على تنمية خلايا المهبل . كما يوجد بالمهبل نوع من البكتريا الصديقة تنمو وتتكاثر به وتأخذ غذاءها من الطبقات السطحية المبطنة له . وهذه البكتريا تفرز حمض اللبنيك الذى يجعل المهبل حمضى التفاعل . فتعمل هذه الحموضة على قتل الميكروبات المضادة . ولذا لا يعيش ميكروب السيلان فى المهبل . ولكنه يعيش فى عنق الرحم .

٣ ـ الرحم : هو عبارة عن عضو كمثرى الشكل وموجود فى الحوض . ومائل للأمام نوعاً ما خلف المثانة . وله القدرة على الحركة من الأمام للخلف ومن أعلى لأسفل . وله عضلات عريضة تشده من جميع جهاته إلى المثانة والمستقيم . لتحفظ توازنه وتحميه من الميل أو السقوط وهذه الأربطة مرنة ولها مهمتها فى الجماع والحمل والولادة ، وفى العذارى أو المرأة التى لم تلد يبلغ الرحم حوالى ٧ سم ، أما بالنسبة للتى سبق لها الحمل والولادة فيكون ٨سم .

وهو مبطن بغشاء مخاطى غنى بالغدد الافرازية التى تحفظ البويضة مخصبة ، وجداره سميك ما بين ١ : ١ ونصف سم .

ون حكمة الخالق عزّ وجلّ أن جعل هذا الرحم هو المقر المكين والأمين لاستقرار البويضة المخصبة ، فإذا أراد الله عزّ وجلّ للمرأة أن تحمل أمر الرحم أن يحفظ هذه البويضة المخصبة ، وتتطور بداخله حتى يأذن الله وتخرج طفلاً ، وإن لم يرد الله أمر الرحم فقذف بها

خارجه .

كما أن الرحم يطرد كل شيء يصل إليه عدا ثمرة الحمل .

ويتصل بالرحم من الجانبين قناتين تسميان قناتى فالوب . والله سبحانه وتعالى لم يخلق ظاهرة من الظواهر الحيوية إلّا عن قصد وغاية ، ولا يخرج حيض الأنثى عن كونه ظاهرة حيوية فسيولوجية لها حكمتها .

فقد جعل الله تعالى حيض الأنثى للإبقاء على الحمل عندما يحدث . فالأنثى عندما تولد يكون لها مبيضان ورحم ، وفى مبيضاها ألوف البويضات ، ولكنها فى حالة هدوء وسكون تام حتى سن البلوغ ، والرحم يبقى صغيراً لا ينمو النمو الكافى حتى هذا السن .

ومن حكمة الخالق العظيم أنه عندما تقترب الأنثى من سن البلوغ ، تقوم هرمونات خاصة بعملها للتأثير على المبيضين والرحم لينموا ، ويكون ذلك بين سن ١٣ : ١٥ سنة .

عندئذ تحدث تغييرات فى جسمها تحولها من فتاة إلى أنثى كاملة الأنوثة فتؤثر هذه الهرمونات على المبيضين والرحم والثديين والشكل العام لها ، حتى إذا ما تزوجت بعد هذا السن فإنها تحمل .

وعلامة البلوغ هى أن البويضات المدفونة فى أنسجتها تبدأ فى النمو والنضج بالدور ، واحدة تلو الأخرى ، وأحياناً إثنين أو ثلاثة أو أكثر ، وهذا نادر جداً .

ففى كل ٣ : ٤ أسابيع تنضج إحدى البويضات ، فتنطلق من المبيض (غالباً فى اليوم الرابع عشر من بدء الدورة الحيضية) وتبقى يومان فى إنتظار الحيوان المنوى الذى سوف يخصبها ، فإذا وصل وأخصبها ، أصبحت حاملاً .

ويصحب نمو البويضة ونضوجها إفراز هرمونات تؤثر على الرحم ، فيبدأ غشاءه المخاطى المبطن له فى التضخم ويزداد سمكه ، وتتمدد الأوعية الدموية فتمتلىء بالدم .

وهذا بمثابة عملية تحضير للرحم ، ليكون مستعداً لاحتضان البويضة بعد الاخصاب ، وامدادها بالغذاء لتنمو وتكبر .

وإذا لم توجد البويضة المخصبة ، فلا حاجة حينئذ لهذه الاستعدادات . فيتمزق الغشاء المخاطى فى أكثر من موضع وينفصل من جسم الرحم فينساب مع الدم .

وقلنا إن الرحم يطرد كل شىء عدا ثمرة الحمل .

فعندئذ يطرد الرحم تلك القطع المتمزقة من الغشاء المخاطى ، وكذا الدم الذى ينساب نتيجة لذلك ومعه البويضة .

وهذا الدم النازل هو دم الحيض الذى يدلنا على عدم الحمل . ويتكرر ذلك شهرياً ولذا سميت بالدورة الشهرية . وعموماً لم يكن الحيض دليلاً على عدم الحمل فقط ، ولكنه يدلنا على أن الجهاز التناسلى للأنثى يؤدى وظيفته على الوجه المرغوب فيه . ولما كان الخالق أعلم بما خلق ، فإننا نجد فى القرآن الكريم الذى أعجز البلغاء ، وحير عقول الكتاب والشعراء ، آيات بينات ، يجد من خلالها الكاتب والطبيب والعالم والمفكر والباحث كل ما يحتاجه . فإذا استعرضنا سوياً قوله تعالى : ﴿**ويسألونك عن المحيض ، قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإن تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾ (١) .

---

(١) البقرة ٢٢٢ .

فلو وضعنا هذه الآية وحدها موضع الفحص والتحليل والبحث لنستوضح ما حوته من معان . لاحتجنا إلى مراجع ومجلدات لا حصر لها .

فالدورة الشهرية رغم أنها تتكرر كل شهر . فهى شىء عادى جداً . وسميت كذلك بالعادة الشهرية لأنها تعود إليها كل شهر . وذكرنا أن الأعضاء التناسلية فى وقت المحيض تكون فى حالة إحتقان . والأعصاب فى حالة إضطراب .

فيكون الأمر الإلهى ﴿**قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن**﴾ فى حقيقته يحتوى على أسرار . هذه الأسرار يعلمها الذى خلق هذه الأنثى . وخلق لها هذا الجهاز . وقد أثبت الطب الحديث حقيقة وجوب الالتزام بهذا الأمر الإلهى العظيم فعلاوة على قذارة الدم ورداءة الموضع . فإنه تنتج أضرار نتيجة الاتصال الجنسى أثناء الدورة الشهرية وأثناء النفاس وهذه الأضرار لم تكن قاصرة على إحداهما بل تشملهما فبالنسبة للأنثى يسبب هذا الاتصال أضراراً أهمها تعفن الرحم الذى يتسبب عنه العقم ، وينتج عنه آلاماً فى الحوض وارتفاعاً فى درجة الحرارة .

أما الرجل فيصاب بالتهابات حادة فى أعضائه التناسلية ، حيث تمتد الجراثيم إلى القناة البولية ، وربما غادرتها إلى المثانة والحالبين ، ثم إلى البروستاتا والحويصلتين المنويتين والخصيتين .

وقد يسبب ذلك أيضاً إلتهاب الحشفة ويؤدى إلى غرغرينا تدعو إلى القيام بعملية بترلهذا العضو حتى لا يتسمم الجسم . أرأيت إذن الحكمة الإلهية فى هذا الأمر الإلهى بعدم إقتراب النساء فى المحيض ؟

وإذا سلم الرجل من الأذى فلن تسلم المرأة ، لأن الجماع يعمل

على تهيج الأعضاء التناسلية . التى تكون وقتئذ ليست مستعدة أو مهيئة لذلك . لأنها مشغولة بمهام أخرى وهى طرد الدم الموجود فى الرحم .

وإذا ما تدبرنا ووعينا الآية التى تلى هذه الآية مباشرة والتى يقول الله عزّ وجلّ فيها ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾[1] ففى الآية السابقة يقول سبحانه ﴿**فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله**﴾ وفى هذه الآية ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾

وحينما نزلت هذه الآيات قال رسول الله ﷺ (**إصنعوا كل شىء إلّا الجماع . فإن تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله**) أى فإن تطهرن بالاغتسال من الدم فجامعوهن فى المكان الذى أمركم الله تعالى به وهو الفرج .

وذلك لأن الزواج والاتصال الجنسى لم يكن بقصد اللذة فقط ، إنما هو لاستنبات الولد .

فالمرأة فى حالة الحيض أو النفاس تكون أعضاءها التناسلية غير مهيئة أو مستعدة لعملية الحمل .

ولذا كان هذا التشبيه البلاغى الجميل والتصوير الرائع للمرأة حينما قال سبحانه ﴿**نساؤكم حرث لكم**﴾

أى أن الرحم هو موضع هذا الحرث أى أشبه بالأرض المحروثة المعدة لبذر الحب فيها لكى ينبت .

والبذر الذى يوضع فى الرحم هو الحيوان المنوى ، وباندماجه

---

(١) البقرة ٢٢٣ .

مع البويضة نتيج جنين . ولما كان البذر من النبات لا ينبت إلّا فى مكان واحد وهو الأرض المحروثة والمعدة لذلك ، كذلك فإن البذر من الحيوانات المنوية لا ينبت إلّا فى مكان واحد وهو رحم الأنثى .

ولهذا كان الأمر الإلهى ﴿**فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله**﴾ أى فى المكان الذى حدده الله عزّ وجلّ لذلك ، وفى الوقت الذى يكون معداً ومهيئاً لأداء هذه المهمة .

وإذا ما نظرنا إلى الفروق البيولوجية بين الذكر والأنثى ، فإننا نجد أن إرادة الخالق عزّ وجلّ ، تبدأ بتوجيه كل منهما إلى مهمته منذ نعومة أظافرهم .

فإننا نرى الأطفال عندما يتحركون ويلعبون ، فإن الذكور يميلون إلى اللعب بالكرة والمسدسات ، وإلى فك الأشياء وتركيبها ، بينما الأناث يلعبن بالعرائس وأدوات المطبخ .

وما ذلك إلّا أن كل جنس يتجه فطرياً إلى إعداد نفسه إعداداً يؤهله إلى العمل الذى سوف يقوم به فى المستقبل . وما أن يبدأ سن المراهقة حتى يشعر كل منهما بالغريزة الجنسية ، والدافع إلى هذا الشعور فى هذه السن هو حدوث إفرازات هرمونية تختلف فى كل منهما ، هذا الاختلاف يهيىء كل منهما إلى وظيفته فى الحياة .

فالهرمونات التى تفرزها الأنثى عند البلوغ مهمتها تنمية خلايا المهبل والمبيضين والثديين وباقى الأعضاء التناسلية الأخرى .

والحكمة الإلهية فى ذلك هى تحضير تلك الأعضاء لما خلقت له ، ومن هنا تتحرك الغريزة الجنسية عند البنت .

أما هرمونات الذكورة فهى بمثابة مواد كيميائية تجرى فى الدم ، فتؤثر على الأعضاء التناسلية للذكر فتنميها . وتؤثر على البروستاتا

والمثانة والحويصلات المنوية والحبل المنوى والخصيتين . ومن هنا تتحرك الغريزة الجنسية عند الذكر .

والتأثير البيولوجى على إختلاف الرجل والمرأة فى الإيجابية والسلبية ، فالرجل إيجابى والمرأة سلبية .

ودليل ذلك أن البنت تهتم بأنوثتها وجمالها لتجذب إليها الرجل ، والولد يهتم بمظهر رجولته ليجذب إليه البنت . وذلك يدفعها إلى الترقب والانتظار .

ولكن الرجل يسعى والبنت تنتظر ، وهو يريد وهى تتقبل والمرأة هى التى تستجيب لتلك الرغبة ، وعندما تريد هى يمنعها حياؤها من أن تطلب هى من الرجل .

كما توجد فروق بين الذكر والأنثى فى درجة الحرارة والصوت والخشونة والنعومة .

فالرجل درجة حرارته مرتفعة عن الأنثى ، وصوته أجش ، بينما المرأة صوتها رخيم ، ورقيقة وناعمة فى حديثها ومعاملتها عن الرجل . وهى لطبيعة كل منهما .

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

إن الإنسان يحتاج فى كثير من الأحيان إلى ساعات يخلو فيها إلى نفسه ليتأمل آيات الله تعالى فى خلقه ، ليجدد إيمانه بالله تعالى ، ولذا يقول رسول الله ﷺ **(تفكر ساعة خير من قيام ليلة)** وفى رواية أخرى **(تفكر ساعة خير من عبادة سنة)**

وكان أحد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يقول

لأصحابه وهو يريد أن يسمع منه القرآن (**إجلس بنا نؤمن ساعة**) وما ذلك إلّا أن الإنسان حين يجلس هذه الساعات لينتزع نفسه من صخب الحياة وضجيجها وزخرفها وزينتها . ليجلس مفكراً فى عظمة الخالق عزّ وجلّ وقدرته . متقرباً إليه سبحانه . فإنه فى هذه الحالة يكون فى عبادة . عبادة عن وعى وعلم وحقيقة . لأنه سوف يصل بتفكيره إلى ذكر الله تعالى والتوجه إليه بالدعاء ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد**﴾ (١) .

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن آياته فى الكون تحيط بهم من كل جانب ، وهى لا تحصى ولا تعد ، وهذه الآيات بينة وواضحة لكل من أزال الغشاوة عن بصره ، ومزق حجب الغفلة عن بصيرته . ومن بين هذه الآيات البينات آيات فى الجسم البشرى وما أكثر الذين هم عنها غافلون .

ورحم الله ابن أبى الدنيا حينما قال عند شيخه أبى جعفر الدمشقى .

وإذا نظرت تريد معتبراً ... فانظر فـفـيك معتبر
أنت الذى تمسى وتصبح فى ... الدنيا . وكل أموره عبر

(١) آل عمران ١٩٠ : ١٩٤ .

وقد جلسنا فيما مضى سوياً ونحن نستعرض آيات الله فى خلق الإنسان ، فهيا نختتم هذا اللقاء لنؤمن ساعة بالنظر فى آيات الله .

فقد علمنا مما سبق جميع أعضاء الجسم وأجهزته وكيف تعمل ولكن لا بد من وجود وسائل تعمل بمشيئة الله عزّ وجلّ لتقوم بتنظيم الوظائف الحيوية المختلفة بين أعضاء الجسم وأجهزته ، والتنسيق فيما بينها لتكوين وحدة حية منتجة .

ويوجد فى الجسم وسيلتان رئيسيتان لهذا التنظيم ، أوضحنا إحداها فيما سبق وهو الجهاز العصبى ، أما الوسيلة الثانية فهى الغدد المنتشرة فى جسم الإنسان .

وقد رأيت استكمالاً للفائدة ، وبياناً لآيات الله فى الإنسان ، أن أوضح مهام هذه الغدد التى خلقها الله تعالى فى جسم الإنسان لتقوم بتنظيم حركته . والغدة عبارة عن مجموعة من الخلايا المتشابهة التى تفرز مادة سائلة لها وظيفة خاصة بها . وتنقسم الغدد فى جسم الإنسان إلى نوعين هما :

١ ـ الغدد القنوية (ذات القنوات) : Exocrine G. lands

وهذه الغدد يصب إفرازها فى قنوات تنتهى به إلى داخل الجسم أو خارجه . ومثال ذلك : الغدد العرقية التى تفرز العرق فى قناة تنتهى به إلى سطح الجلد ، حيث يتجمع فوق الجلد ، ويقوم بتلطيف درجة حرارة الجسم صيفاً وفى حالات الحمى .

والغدد اللعابية التى تفرز اللعاب ، وتصبه فى قنوات تنتهى به إلى تجويف الفم . ويشعر الإنسان بذلك حينما يشم رائحة الشواء ويرى طعاماً يرغبه ، فيجرى له ريقه .

٢ ـ الغدد اللاقنوية (ليست لها قنوات) Endocrines O. Ductless G. lands

وتسمى ذوات الافراز الداخلى لأنها تصب إفرازها فى مجرى الدم مباشرة حيث يقوم الدم بتوصيله إلى أعضاء الجسم التى يؤثر فيها . ويطلق عليها اسم الغدد الصماء . أو الغدد الصم .

وسمى النوع الأول من الغدد بهذا الإسم لأن له قنوات تحمل إفرازه إلى أحد أسطح الجسم المتصلة بالبيئة الخارجية ، ولذا يسمى أيضاً هذا النوع باسم الغدد ذات الافراز الخارجى .

أما النوع الثانى فلا قناة له ، ومن ثم سمى بالغدد الصماء أو الصم لأنه يصب إفرازه فى الدم مباشرة أى فى بيئة الجسم الداخلية ويسمى أيضاً بالغدد ذات الافراز الداخلى .

وهذه الغدد تفرز هرمونات ، وتسمى باللغة العربية الفصحى التَّوْر بتشديد التاء المفتوحة وسكون الواو .

والهرمونات عبارة عن مواد كيميائية دقيقة عضوية ذات فاعلية فسيولوجية شديدة تفرزها غدد الجسم ، فتنبه الأعضاء إلى القيام بوظائف هامة فتحافظ على كيانها الحيوى .

فهى تنظم النمو والتمثيل الغذائى للمواد العضوية وغير العضوية ، والتناسل وما إلى ذلك من وظائف حيوية بالجسم .

ويتم إفراز الغدد للهرمونات بمقادير ضئيلة تقدر بالملليجرام فى اليوم ، نظراً لقوة فاعليتها ، ولا يبقى الهرمون بعد إفرازه طويلاً . إذ يحوى الجسم وسائل لابطال مفعوله أو إخراجه بعد أن يؤدى وظيفته . ومن أهم هذه الغدد فى الجسم ما يلى :

١ ـ الغدة الدرقية : والهرمون الذى تفرزه يسمى (الثيروكسين) وهى عبارة عن مادة فينولية ، ومهمته تنشيط أكسدة العضوية ،

أى يعمل على سرعة إحتراق الطعام داخل الجسم ، فتستطيع أنسجة الجسم أن تحصل على الطاقة اللازمة لتأدية وظائفها وبتقدير من الخالق عزّ وجلّ القائل ﴿**إنا كل شىء خلقناه بقدر**﴾ فإن هذه الغدة تفرز هرمون الثيروكسين هذا بتقدير إلهى محكم ، لمنع أى أضرار تنجم نتيجة زيادة أو نقص فى إفراز هذا الهرمون . وحتى لا يضطرب الجسم فسيولوجياً لوجود خلل فى وظائف أعضائه . فلو نظرنا بامعان إلى دقة التنظيم والابداع الإلهى فى عمل هذه الغدة ، لوجدناها تؤدى عملها على هيئة نظام التحكم الآلى فى الآلات .

فالثلاجة مثلاً : تعمل بنظام التحكم الآلى (الترموستات) فيلاحظ أن موتور الثلاجة يستمر فى عمله حتى تهبط درجة الحرارة داخل الثلاجة ، فإذا انخفضت درجة الحرارة إلى الحد المطلوب إنقطع التيار الكهربائى تلقائياً عن الموتور ، فتنفصل الدائرة ، ويتوقف محرك التبريد عن العمل ، ولا يعاود الحركة إلّا إذا ارتفعت الحرارة مرة أخرى . وهكذا إذا زادت نسبة الثيروكسين فى الدم توقفت الدرقية عن الإفراز ، وإذا قلت النسبة عن حدها عاودت الدرقية عملها . والغدة النخامية وهى غدة صغيرة أسفل المخ وتتصل به ، تفرز هرموناً يؤثر على الغدة الدرقية الموجودة أمام القصبة الهوائية فى مقدمة ارقبة . فيؤثر هذا الهرمون على الغدة الدرقية بتنشيط نموها ، كما أنه يساعد على تكوين وافراز الهرمون الذى تقوم الغدة الدرقية بافرازه .

ويأتى هذا التحكم نتيجة لتوجيهات الجهاز العصبى ، الذى يجعلها تغير من كمية الهرمونات التى تفرزها زيادة أو نقصاناً ، تبعاً للتغيرات التى تحدث فى البيئة الداخلية أو الخارجية . تلك التغيرات

التى يتعرف عليها المخ بواسطة الاشارات العصبية التى ترد إليه من أعضاء الاحساس .

ومثال ذلك : عند تعرض الإنسان لجو بارد ، عندئذ ترد إشارات عصبية من الجسد إلى المخ تنبهه إلى برودة الجو ، فيطلب من الغدة النخامية أن تفرز مزيداً من هرمونها المنشط للدرقية ، فتزداد نسبة الثيروكسين بالدم ، فتزداد تبعاً لذلك كمية الحرارة التى تتولد بالجسم ، فيستطيع الجسم أن يحتفظ بدرجة حرارته بالرغم من برودة الجو .

والغدة النخامية من النوع الثانى أى من الغدد الصماء ، ولكنها تؤثر على أنشطة بقية الغدد الصماء الأخرى كما أوضحنا .

وهذه الغدة بيضاوية الشكل مفرطحة قليلاً من أعلى إلى أسفل ، ويبلغ طولها حوالى ١٢ مم وعرضها ٨ مم وتزن حوالى نصف جم ! ! ! سبحان الله وتقع فى حفرة تسمى الحفرة النخامية فى قاعدة الجمجمة ، ويتصل جزؤها العلوى بأسفل المخ ، وتتكون من فصين ، فص أمامى وفص خلفى ، ولكنهما مختلفين تماماً شكلاً وحجماً وتركيباً وعملاً ، إذ أن لكل منهما نوع من الخلايا يختلف تماماً عن الآخر ، ولكل منهما هرموناته الخاصة ، وهى بالرغم من صغر حجمها إلّا أنها أكثر غدد الجسم إفرازاً وسيطرة على بقية الغدد . ولنتبين عمل كل فص من فصوص هذه الغدة .

الفص الأمامى : Anteruior Pituitary

وهو أحد فصى الغدة النخامية ويتميز بمجموعة من الخلايا ، لكل منها إفراز خاص ، ويقوم بإفراز الهرمونات الآتية :

هرمون النمو : Growth Hormone

وهو الذى يؤثر على نمو الجسم وتغيرات الهيكل العظمى ، ويتأثر هذا الهرمون كبقية الهرمونات زيادة ونقصاً بالاضطرابات التى تحدث فى الغدة النخامية ، سواء كانت اضطرابات وظيفية ، أم نتيجة لضمور فيها أو ضخامة بها نتيجة الأورام التى تصيبها . وفى حالة الزيادة فى إفراز هذا الهرمون فى الجسم فيؤدى ذلك إلى :

١ ـ زيادة الوزن والطول ، وزيادة الأحشاء فى النمو وكذلك عضلات الجسم التى تجعل المريض يشعر بقوة عضلية فى البداية ، ولكنها فى النهاية تضعف إلى درجة حدوث هبوط عام فى عضلات الجسم وهبوط فى إفراز الهرمونات الجنسية . وتسمى هذه الحالة (Giantism) وهذا الافراط فى نمو الجسم إنما يكون قبل سن البلوغ .

٢ ـ أما بعد سن البلوغ حيث لا يزداد الجسم طولاً ، وإنما تزداد العظام فى السمك والعرض خصوصاً عظام الجمجمة والجبهة والفك السفلى والأنف والقدمين والكفين ، وتزداد كذلك الأعضاء ذات الأنسجة الرخوة فى النمو كالكبد والطحال والكليتين والقلب ، كما يبدو الجلد غليظاً وخشناً ، وكذلك تتأثر الهرمونات الجنسية ، وتبدو الأسنان متباعدة عن بعضها ، كما يميل العمود الفقرى إلى التحدب ، ويظهر البول السكرى (وتسمى (Acromegaly) .

أما فى حالة نقص إفراز هرمون النمو فإنه يؤدى إلى :

١ ـ فى حالة الطفولة يحدث نقصان هذا الهرمون فى المريض ، صغر فى حجم الجسم عامة ، وصغر فى حجم أعضائه ، دون وجود أى تشوهات خلقية ، سوى أن طوله ربما لا يزيد عن متر واحد ،

ولكن قواه العقلية طبيعية . ويسمى هذا بالضغل أو القزم (Dwarfism) أما القزم الذى ينشأ نتيجة نقص فى إفراز الغدة الدرقية فإنه يتميز بضعف شديد فى قواه العقلية (غبى) .

٢ ـ وبعد البلوغ تظهر على القزم أعراض البدانة الزائدة مع ضعف فى القوة الجنسية أو فقدانها ، وذلك لوجود هبوط فى إفراز الهرمونات الجنسية مما يؤدى إلى صغر فى حجم أعضائه التناسلية . وقد تظهر عليه علامات الشيخوخة المبكرة كبياض الشعر ، وتجعد الوجه وضمور الجسم وانحطاط فى القوى العقلية والجنسية ويسمى هذا المرض بمرض سمونر بالنسبة إلى مكتشفه . ويكون ذلك نتيجة ضمور الفص الأمامى وتوقف إفرازه فى مرحلة البلوغ أو مطلع الشباب . ولذا سميت هذه الحالة باسم الطفولية . (Pusitary in fantilism)

٣ ـ كما تؤثر الغدة النخامية على الخصية عند الرجل ، والمبيض عند الأنثى عن طريق هرموناتها الجنسية وهى :

ـ الهرمون المنبه لحويصلة جراف : فى أثناء نمو البويضة لتنطلق من مبيض الأنثى ، وحينما تلتقى بحيوان منوى يتم الاخصاب .

أما إذا لم يتم الاخصاب فإن الرحم كما ذكرنا سابقاً ينزف دماً (دم الحيض) .

كما أن هذا الهرمون يساعد على نضج خلايا الخصية ، وهو المسئول عن إفراز الحيوانات المنوية .

ـ هرمون الجسم الأصفر : وهو يساعد على إفراز هرمون الذكورة المسمى بالتسترستيرون من خلايا ليدج الموجودة فى الخصية وهو ضرورى لإكمال إفراز الحيوانات المنوية . وفى الأناث فإنه يتعاون مع الهرمون المنبه لحويصلة جراف لإفراز هرمون

الايستروجين ، كما يساعد على إنضاج البويضة وعلى إفراز هرمون البروجسترون من الجسم الأصفر الذى يتكون بعد تمام نضج البويضة .

ويستخدم هذا الهرمون مخلوطاً مع الهرمون السابق لعلاج حالات العقم والطمث .

ـ الهرمون المنبه لإفراز اللبن (برولاكتين)

وهذا الهرمون يقوم بتنبيه الثديين لإفراز اللبن .

إما إعداد الثديين قبل إفراز اللبن ، فبمجرد البلوغ يعمل هرمون الجسم الأصغر (هرمون الايستروجين والبروجسترون) على تهيئة الثديين واعدادهما ، وبعد ذلك عند وصول المولود ينطلق هرمون البرولاكتين لينبه الثديين ليفرزا اللبن ، لإطعام الضيف القادم .

٢ ـ الغدة فوق الدرقية : وتفرز هرمون الباراثورمون وعددها أربعة وهى ملتصقة بالغدة الدرقية من الجانبين إلّا أنها مستقلة عنها فى عملها ، حيث تقوم بعملية تنظيم كمية الكالسيوم والفسفور فى الطعام وحفظ نسبته ثابتة فى أنسجة الجسم .

٣ ـ الغدة فوق الكلية : تقوم الغدة النخامية بإفراز هرمون يساعد على نمو قشرة هذه الغدة كما ينشط وظيفتها ، ويساعد على تكوين وافراز هرموناتها ما عدا هرمون الألدوسيترون . وللغدة فوق الكلية وظائف متعددة ، وتفرز عدة هرمونات .

فقشرتها تفرز هرمونات الكوريتكوسيترون ومشتقاته ، والكورتيزون ومشتقاته ، والألدوستيرون .

أما لباب الغدة فوق الكلية فيفرز هرمونات الأدرينالين ونورلادرينالين . ويكفى أن نعلم بأن من أهم وظائف هرمونات الغدة

فوق الكلية هى تنظيم محتوى الجسم من الماء والملح .

إذ أن وجود الماء بالجسم هو قوام حياته **﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾** وإذا علمنا بأن الماء يمثل ٦٠٪ من وزن الجسم ، وتبلغ كميته حوالى ٤٢ لتر ، فإذا نقصت هذه الكمية بمقدار ٥٪ منها شعر الإنسان بالعطش الشديد .

أما إذا نقصت بمقدار ١٠٪ فإنه يشعر بالمرض الشديد ، فإذا وصلت إلى ٢٠٪ أدت إلى الجفاف المؤدى إلى الموت .

أما هرمونات الفص الخلفى للغدة النخامية فهى :

١ ـ الفاسوبرسين : ويؤدى هذا الهرمون إلى إنقباض الشرايين ، فيرتفع ضغط الدم إلى درجة قد تكون خطيرة . أما بالنسبة لشرايين القلب (الشرايين التاجية) فإن إنقباضاتها تؤدى إلى نقص كمية الدم التى تغذى القلب مما يؤدى إلى قصور بالدورة التاجية ، كما يؤدى هذا الهرمون إلى إنقباض عضلات الامعاء مسبباً الاحساس بمغص شديد .

٢ ـ الأوكسى توسين : ويؤثر على إنقباض عضلات الثدى . مما يساعد على قذف اللبن من الأجزاء العميقة فى الثدى ، والتى لا يخرج اللبن منها نتيجة امتصاص الرضيع للثدى ، وبدون هذا الهرمون لا يستفيد الرضيع من اللبن الذى يفرزه الثدى إلّا بنسبة ١٥ : ٢٠٪ . كما يؤثر هذا الهرمون على إنقباضات عضلات الرحم أثناء الولادة ، ويعمل على إيقاف النزيف بعد الولادة ، ويساعد على عودة الرحم إلى مكانه وحجمه الطبيعى ، كما يساعد على وصول الأنثى إلى ما يسمى برعشة السبق عند الجماع ، ويسهل عملية إنتقال الحيوانات المنوية من تجويف الرحم إلى قناة فالوب

حيث يتم إخصاب البويضة القادمة من المبيض .

٣ ـ الهرمون المانع لادرار البول : ووظيفته هى المحافظة على نسبة الماء فى الجسم . ويباشر هذا الهرمون مهمته بتأثيره على الكليتين فيساعدهما على إمتصاص كمية كبيرة من الماء أثناء تنقية الدم بها . وعندما يفقد الإنسان كمية كبيرة من الماء فى الجسم فإنه يتعرض للجفاف .

وفى هذه الحالة تتنبه مناطق معينة فى الجزء الأمامى من المنطقة التى تسمى بتحت المهاد (الهيبوثلامس) فتقوم بتنبيه الغدة النخامية فيقوم الفص الخلفى بزيادة إفراز كمية من هذا الهرمون الذى يقلل من كمية إدرار البول . ويحتفظ بالماء داخل الجسم .

(فسبحان الرءوف الرحيم بعباده) .

فإذا ما أصيبت منطقة تحت المهاد (الهيبوثلامس) أو الفص الخلفى أو الوصلة التى بينها بمرض . أدى ذلك إلى وجود نقص فى الهرمون المانع لإدرار البول . فينتج عن ذلك إصابة الشخص بمرض يسمى مرض الإدرار البولى (الديابيطس غير السكرى) وأعراضه شبيهة بأعراض البول السكرى إلّا أنه لا يوجد سكر بالبول . ولذا نجد أن الذين يتعاطون الكحول أو البيرة أو الخمور ، تزداد كمية تبولهم ، لأن الخمور تعمل على تثبيط مفعول الهرمون المانع لإدرار البول . ولهذا يظن البعض أن البيرة تعمل على إدرار البول ولذا فإنهم يتناولونها لهذا السبب . ولكن لم يجعل الله الشفاء فيما حرمه .

﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ [١]

---

(١) المائدة ٩٠ .

وكما أن الفص الأمامى للغدة النخامية والفص الخلفى لها ، كل منهما له هرمونات خاصة ، فإن الجزء المتوسط بينهما يفرز هرموناً ليقوم بتنبيه خلايا الجلد التى تحتوى على حبيبات الملانين المسئولة عن لون الجلد .

وغدة البنكرياس تقوم بإفراز هرمون الجلوكاجون والأنسولين . ولما كان الجلوكوز هو الوقود المفضل لجميع أنسجة الجسم ، بل الوقود الوحيد للمخ . ومع هذا فإن نسبة السكر فى الشخص السليم تبقى ثابتة .

فإذا مازادت نسبة السكر فى الدم قام الأنسولين بحرق كمية السكر الزائدة عن حاجة الجسم .

أما إذا قلت نسبة السكر فى الدم فإن هرمون الكورتيزون الذى تفرزه الغدة فوق الكلية يقوم بتنشيط الكبد ليصب فى الدم مقادير زائدة من السكر ، لمنع نقص نسبة السكر فى الدم .

فسبحان الله العظيم أن هرمون الأنسولين يعمل على حرق السكر الزائد عن حاجة الجسم ، وهرمون الكورتيزون يعمل على زيادة إفراز السكر ، ومع هذا ليس هناك تعارض فى عملهما ، ولن يطغى أحدهما على الآخر ، ولكنهما يعملان فى تعاون وتناسق تام بينهما ، ودون تحكم أو إدراك من أحد . فإذا كنا ليست لنا السلطة على أعضائنا الداخلية ، وعلى هذه الهرمونات التى تنظمها ، فلا بد أن نعى ونعلم جيداً أن الخالق عزّ وجلّ هو الذى جعل كل خلية وكل ذرة فى أجسامنا تجرى بقدر معلوم وفى الخط المرسوم لها بحسب مشيئته وقدرته .

فتبارك الله أحسن الخالقين .

أسماء الهرمونات والغدد التى تفرزها

رقم	الغدة	الهرمون	التركيب الكيميائى
١	الدرقية	الثيروكسين	مادة فينولية
٢	فوق الدرقية	الباراثورمون	مادة بروتينية
٣	البنكرياس خلايا أ من جزر لانجرهانز	الجلوكاجون	مادة بروتينية
	البنكرياس خلايا ب من جزر لانجرهانز	الأنسولين	مادة بروتينية
٤	النخامية : الفص الأمامى	هرمون النمو	مادة بروتينية
		هرمون منشط الحويصلات	مادة بروتينية
		هرمون مهىء الرحم	مادة بروتينية
		هرمون إدرار اللبن	مادة بروتينية
		هرمون منشط الدرقية	مادة بروتينية
	النخامية الفص الخلفى	الفاسوبرسين	مادة بوليبتيدية
		الأوكسى توسين	مادة بوليبتيدية
٥	فوق الكلية : اللباب	الأدرينالين	مادة كاليشكولية
		نور الأدرينالين	مادة كاليشكولية
	فوق الكلية : القشرة	الكوريتكوسيترون ومشتقاته	مادة سيترولية
		الكورتيزون ومشتقاته	مادة سيترولية
		الألدوستيرون	مادة سيترولية
		الألدوسيترون	مادة سيترولية
٦	الخصية	تستو سيترون	مادة سيترولية
٧	المبيض	استرادبول	مادة سيترولية
٨	الجسم الأصفر	بروجسيترون	مادة سيترولية

المغيبات الخمسة

يقول الله عزّ وجلّ : **﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا . وما تدرى نفس بأى أرضٍ تموت . إن الله عليم خبير﴾**[1] .

إن المتأمل فى هذه الأمور الخمسة التى إختص الله سبحانه وتعالى بها نفسه دون سائر خلقه أجمعين . يجدها عبارة عن حلقات متصلة بعضها البعض . مكونة سلسلة الوجود والنهاية لكل إنسان . وهى جميعها أمور حسية إختص الخالق عزّ وجلّ بها نفسه دون غيره .

ولقد بدأ سبحانه بتأكيد علمه جلّ جلاله وحده بعلم الساعة . وهو فى حقيقته بيان عام وشامل لموعد قيام الساعة . والعلم كذلك بكل عناصر الآخرة من جنة ونار وملائكة ونعيم وعذاب .

ولو وعينا جيداً قوله تعالى : **﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾**[2] لعلمنا بأن آدم عليه السلام أول ما نشأ أسكنه الله الجنة ، وهى عنصر من عناصر الآخرة ، وبتقدير من الله تعالى عصى آدم ربه ، فأهبط إلى الأرض ، وفى الأرض لا بد وأن يحتاج إلى الغذاء ، ولذا أنزل الله سبحانه وتعالى الغيث مراراً لكى تنبت الأرض . وطبعاً الغيث معروف وهو المطر الغزير **﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾** ومن الغذاء يتكون الدم ، ومن الدم تتكون الحيوانات المنوية عند الرجال والبويضات عند الإناث ، وباندماجهما

---

(١) لقمان ٣٤ . (٢) البقرة ٣٥ .

يتكون الجنين ، ولهذا أعقب ذلك بقوله تعالى : ﴿**ويعلم ما فى الأرحام**﴾ وبعد أن يولد الإنسان ويتربى وينمو ويترعرع يسعى للكسب على قوته حسبما قدره الله سبحانه له ﴿**وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا**﴾ ثم تكون النهاية الحتمية لكل المخلوقات بعد هذه الحياة الدنيوية ﴿**وما تدرى نفس بأى أرض تموت**﴾ ولقد وصل الله سبحانه وتعالى فى عدد من آيات القرآن الكريم الحياة بالموت ، وجعل الموت آخر حلقة حيث يعود الإنسان إلى منبعه الأول وهو الآخرة حيث الجنة التى أسكن الله فيها أول إنسان خلق .

وإذا ما تأملنا قوله تعالى : ﴿**ويعلم ما فى الأرحام**﴾ .

لعلمنا أن كلمة «ما» ليست قاصرة على علم دون علم ، وإنما علمه سبحانه مطلق ، إذ أنه سبحانه يعلم كل ما فى الأرحام .

فهو سبحانه على علم بكل خلية تتكون ، وكل خلية عصبية أو عضلية تنشأ ، وكيف تؤدى كل خلية عملها وتقوم بمهمتها ، وهل ستكون صحيحة وسليمة أم مريضة ، أم سوف يصيبها عطب أو تلف بعد أيام أو سنوات قليلة أو كثيرة تبعاً لقوة احتمال تكوينها .

﴿**ويعلم ما فى الأرحام**﴾ إنه سبحانه يعلم كل شىء عن الجنين ، فيعلم نوعه ذكراً أم أنثى ، ويعلم عمره ، ويعلم أجله ، ويعلم رزقه ، ويعلم كل الأحداث التى سوف تقع عليه وهو جنين ، وهو طفل ، وهو شاب ، وهو رجل ، وهو كهل ، ويعلم عمله ، ويعلم أهو شقى أم سعيد ، وقصير أم طويل ، وأبيض أم أسمر ، وصحيح أم مريض ، وأى ذرية سوف ينجب ، وأى الأمراض التى سيرثها عن أبويه ، وأى الأمراض التى لن يرثها عنهما ، كل هذا لا يعلمه مطلقاً أحد إلّا الله جلّ جلاله . إنه يعلم ذلك منذ الأزل ، وقبل أن يكون

فى صلب أبيه أو رحم أمه .

إننا لكى نعلم حقيقة ذلك ولنعلم حقيقة قوله تعالى ﴿**ويعلم ما فى الأرحام**﴾ نجد أنه سبحانه قد أخبرنا فى القرآن الكريم بأن سيدنا زكريا عليه السلام حينما توجه إلى الله تعالى داعياً بأن يهبه الولد ، رغم كبر سنه ، ورغم أن امرأته كانت عاقراً ، ولكن الله عزّ وجلّ قد بشره بعدة حقائق هى :

١ ـ أن الله عزّ وجلّ وهو القادر على ذلك قد شاء لزوجين عقيمين قد بلغا الكبر أن يرزقا بالولد ، قبل أن توجد النطفة فى رحم الأم أى قبل أن يتم الحمل .

٢ ـ ولذا أخبره الله سبحانه وتعالى باسم الغلام الذى سوف يرزقه به ، فقال سبحانه ﴿**يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا**﴾[١] وإذا ما تأملنا هذه البشرى من الله تعالى لسيدنا زكريا عليه السلام ، نجد أنه سبحانه قد أخبره باسم الغلام الذى سوف يرزقه به ، وأن هذا الإسم لم يكن موجوداً من قبل حيث لم يسم به أحد قبله ، وفى ذلك إعجاز حتى لا يقول أحد أن هذا الإسم قد جاء من واقع الحياة ، ولكنه إسم غريب قد دخل على البشرية لأول مرة وبقدرة الخالق . وهناك ما هو أبدع وأغرب من ذلك حينما أرسل الله سبحانه وتعالى يبشرونه وهو قائم يصلى فى المحراب ﴿**أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصورا ونبيًا من الصالحين**﴾[٢] .

---

(١) مريم ٧ .

(٢) آل عمران ٣٩ .

فقد جاءت هذه البشرى قبل أن يوجد الغلام فى رحم أمه ، وأنه سوف يكون فى حياته نبيا وسيدا ومن الصالحين . أى أنه سبحانه قد أخبر سيدنا زكريا عليه السلام وأطلعه على جزء من الأحداث التى ستقع لإبنه فى حياته المقبلة .

وإنه لمن المدهش حقاً أن أرى بعض السادة الأطباء المسلمين ، وهم يقولون بأنهم قد اكتشفوا أحد هذه المغيبات الخمسة المذكورة فى سورة لقمان الآية رقم ٣٤ وهى :

١ ـ العلم بما فى الأرحام . ٢ ـ التحكم فى جعل الجنين ذكراً أو أنثى وقد كان لى لقاء مثير فى هذا المجال ، حيث قمت بإلقاء محاضرة دينية فى أحد المساجد بمدينة الزقازيق فى مصر عن الحمل والولادة ، وأن الله سبحانه يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، وفى أثناء هذا اللقاء إستأذن أحد المستمعين ، وكان استاذاً جامعياً فى أمراض النساء والولادة ، وقال بأنه يمكنه أن يتحكم فى نوع الجنين ، ويمكنه كذلك على التعرف عما إذا كان الجنين ذكراً أم أنثى . ولن أسرد ما تم فى هذا اللقاء . ولكننى أقول : لن تتصادم مطلقاً حقيقة علمية مع حقيقة قرآنية . لم ولن يحدث هذا . إن تفسير إختصاص الله سبحانه وتعالى نفسه دون سائر مخلوقاته بقوله تعالى : ﴿**ويعلم ما فى الأرحام**﴾ يحتاج إلى مراجع عديدة ومجلدات ضخمة نذكر فيها الخلايا وكيف تنشأ ، وما هو عمل كل خلية ، وما هى الأحداث التى تمر على هذا المخلوق منذ أن يكون نطفة فى رحم الأم إلى لحظة وفاته .

إنه سبحانه ﴿**هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء**﴾ [1]

(١) آل عمران ٦ .

فهل يستطيع العلم معرفة الصورة الجسدية ، وشكل ولون العينين ، وشكل الأذنين والقدمين واليدين .

إننا نعلم يقيناً عندما تحمل الأنثى إما أن يكون الجنين الذى فى رحمها ذكراً أو أنثى ، ولا ثالث لهذا الاحتمال ، وذلك يجعل التنبؤ سهلاً . ولكن أين مسألة معرفة الذكر والأنثى من كلمة «ما» فمعناها يشمل ملايين المعلومات .

فوصول العلم إلى معرفة نوع الجنين لو فرضنا جدلاً أنه تم الوصول إليه إلّا أنه لم يصل إلى واحد من ملايين المعلومات عن هذا الجنين . مع أن محاولة العلم معرفة نوع الجنين بعد تكوينه فى رأيى محاولات ظنية وتخمينية وليست يقينية .

وقد علمنا أنه عند إلتقاء الذكر بالأنثى جنسياً ، لا يتم الحمل فى كل مرة إلّا بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

وعندما يريد الله سبحانه وتعالى ويتم الحمل فإن الخلية المتكونة نتيجة إندماج الحيوان المنوى بالبويضة ليتم الاخصاب ، تنقسم بعد ذلك حتى يكون بها ٢٣ زوجاً من الكروموزومات .

ومنهم ٢٣ من الأب ، و٢٣ من الأم ، ومن بين الـ ٢٣ زوج من الكروموزومات يوجد ٢٢ زوجاً متشابهة ، إحداها من الأب والأم ، إلّا الزوج الأخير وهو رقم ٢٣ فهو المسئول عن تحديد نوع الجنين ، وهو يختلف فى الذكر عن الأنثى .

إذن ف (الواى) الموجود عند الذكر هو الذى يتكون على أساسه الجنين ، فإذا التقى «اكس» الذكر مع اكس الأنثى كان الجنين أنثى ، وإذا التقى «الواى» الموجود عند الذكر مع «الاكس» الموجود عند الأنثى كان الجنين ذكراً .

وإننا نطلق إسم «الأكس» على الدورة الشهرية للأنثى . وهذا الإسم علمى ومنطقى لأن المعروف أن كل خلايا الأنثى من النوع السلبى «اكس» .

وعلى هذا فإن مكونات الحيوان المنوى الذى يخصب البويضة هى المسئولة عن تحديد نوع الجنين وليست بويضة الأم .

وقد كان من بين الحديث بينى وبين الأستاذ الدكتور المختص فى أمراض النساء والولادة فى اللقاء المذكور . بأن سيادته يتحكم فى تحديد نوع الجنين . بأخذ الحيوانات المنوية . وعن طريق الميكروسكوب الالكترونى التى يجلعها مكبرة ألف مرة . ثم يتم فصل الحيوانات المنوية المذكرة عن الحيوانات المنوية المؤنثة . وذلك لاختلاف وزن وحجم الحيوانات عن بعضها . ثم تقذف الحيوانات المنوية المذكرة إذا ما أريد أن يكون الجنين ذكراً . أو المؤنثة إذا ما أريد أن يكون أنثى .

والرد على ذلك أقول هل فى كل مرة يتم فيها اللقاء الجنسى بين الرجل والمرأة يتم الحمل ؟ طبعاً لا . فكيف تضمن لهذه المرأة أن تحمل فى هذه المرة ؟ كما أن من المعروف عندما تمتد يد الأنسان إلى أى نوع من مخلوقات الله تعالى عند بدء تكوينه . فلا بد وأن يحدث خلل فى هذا المخلوق . وربما توقف نموه .

فالأمر يحتاج إلى وسائل طبية معقدة . ولمن يقول بهذا أقول له اتق الله ، فبمجرد الاقتراب من الحيوان المنوى بالوسائل الكيميائية أو مجرد إمساكه بشىء لفصل المذكر عن المؤنث سوف يعرض الجنين لتشوهات خلقية .

وقد أعطانا الله سبحانه وتعالى العلم لكى نفيد به البشرية لا لتشويه البشرية .

ومعرفة نوع الجنين يتم عن طريق ثلاث محاولات :

الأولى : عن طريق تحليل السائل الأميونى فى الأسبوع السادس عشر من بدء الحمل . ويتم ذلك بإدخال حقنة فى الرحم عن طريق البطن ، بعد تحديد مكان الجنين والمشيمة بواسطة الموجات فوق الصوتية ، ثم قياس نسبة هرمون الذكر إلى نسبة هرمون الأنثى فى السائل الأميونى . ولكن قد ينتج عن ذلك مضاعفات مثل الاجهاض أو إصابة الجنين فى بعض الحالات .

الثانية : أخذ عينة من الغشاء الكريونى فى الشهور الأولى من الحمل .

الثالثة : إستخدام الموجات فوق الصوتية فى الفترة الأخيرة من الحمل لتصوير الجهاز التناسلى للجنين .

فهذه الحالات الثلاث تعتمد على التحليل أو التصوير ، وتتم هذه المحاولات بعد تكوين الجنين ، ولا دخل لأحد فى تغيير الوضع القائم . وفوق هذا فإن هذه النتائج ظنية وقد تنجح بنسبة ٥٠ : ٦٠٪ ولو كانت حتى تلك النتائج بنسبة ١٠٠٪ فإنها لا تتعارض مع قوله تعالى ﴿**ويعلم ما فى الأرحام**﴾ .

وإن ما يفعله الطبيب حينئذ عن طريق التصوير بالموجات فوق الصوتية أو عن طريق التحليل ، ليس معرفة بالغيب ، ولكنه كالذى يقوم بإدخال منظار ليرى من خلاله الحصو ، أو ليرى قرحة المعدة . أو كالذى يفتح البطن ليقوم بعمل استكشاف عن مرض معين . وأن هذا الاستكشاف ينحصر فى إحتمالين لا ثالث لهما ، يعنى هل المولود سيكون ذكراً أم أنثى وليس إحتمال ثالث لذلك . كما أن نسبة التوقع تكون بنسبة ٥٠٪ .

فيكون الاستكشاف له أثره لو حدد هذا إحتمال من مائة أو ألف إحتمال . ولكن ما الفائدة وهما إحتمالان لا ثالث لهما ؟

إن معرفة نوع الجنين لو نظرنا إليه كما قلت لوجدناه واحد من ملايين المعلومات عن هذا الجنين .

فهناك التركيب الخلقى من حيث التصوير والأوصاف الخاصة بأعضائه الخارجية والداخلية ، وهناك الأسرار الكامنة فى علم الوراثة . وهناك العديد من الأسرار فى الأوردة والشرايين والجهاز العصبي والغدد ، وهل سيكتب له البقاء أم سيولد ميتاً ، أم يولد مشوهاً ... الخ ذلك من الأمور التى لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ .

إننى أهيب بكل عالم وباحث وأستاذ ومتخصص أن يكون ما يتوصل إليه أو يحاول أن يصل إليه فى هذا الصدد ، ضمن المحددات القرآنية . إذ ينبغى أن يكون أى بحث أو نظرية علمية مأخوذة عن صاحب العلم المطلق جلّ جلاله ، لأننا مهما أوتينا من علم أو معرفة فهو لا يساوى ذرة أمام علم الله تعالى .

وأى نظرية أو بحث علمى خارج المحددات القرآنية لم تكن ثابتة بالضرورة من الناحية العلمية ، لأنه لا يمكن مطلقاً أن تتصادم حقيقة علمية مع حقيقة قرآنية .

ودون أدنى إشارة إلى تعجيز أحد من هؤلاء الباحثين هل يعلم أحد تحديد الصفات التى سيكون عليها هذا الجنين ؟ أى هل يمكن التنبؤ بالمستوى العقلى الذى سوف يكون عليه ومستوى ذكائه بناءً على مستوى ذكاء والديه ، وهل يمكن التنبؤ عن حجمه وطوله ولونه بناء على مواصفات والديه ؟ إن كان ما توصل إليه الطب الحديث هو معرفة السبب الذى على أساسه تنتقل بعض المواصفات

من الأبوين للأبناء .

ولكن هل يمكن وضع حدود فاصلة فى هذا الصدد ؟

طبعاً الذى يحدث أن الخلية كما ذكرنا تتكون من ٢٣ زوجاً من الكروموزومات ، ٢٣ من الأب ، ٢٣ من الأم .

وهذه الكروموزومات هى التى تحمل الصفات الوراثية عنهما ، وهى التى تحدد مواصفات الطفل المستقبلية من حيث الطول والقصر ولون البشرة ، وغير ذلك من الصفات الظاهرة والشكلية التى سوف يكون عليها .

وبالرغم من ذلك نجد أن الأبناء لا يحملون جميع صفات الآباء والأمهات . ولم يستطع أحد التحكم أو معرفة سر هذه الكروموزومات ولا كيف تعمل ؟ إن البشرية مهما تقدمت فى العلم والمعرفة عاجزة .

عاجزة عن فهم كيفية تكوين الصفات الوراثية التى يتم اكتسابها ، عاجزة عن معرفة كيفية تنظيم الخلايا لنفسها فى جماعات لتكون الأجهزة المختلفة والمعقدة فى الجسم ، وعن فسيولوجية هذه الخلايا .

عاجزة عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه واكتشاف امكانياته العضلية والنفسية .

عاجزة عن معرفة أسرار الروح التى نحيا بها .

وإن عجزنا هذا هو أعظم دليل على أنه ﴿**هو الله الخالق البارىء المصور**﴾ وأنه وحده واهب الحياة العليم بأسرارها .

وإننى فى الحقيقة تنتابنى دهشة وحيرة ، لمن يقول بفصل الحيوانات المنوية المذكرة والمؤنثة ، ويقذف ما يشاء منها فى رحم

الأم . فأقول له أين أنت من قول من خلقني وخلقك ﴿**يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**﴾[(١)]

إن معنى ما يقوله هذا أن يكون الحمل بطريق التلقيح الصناعى . ولكن الله عزّ وجلّ خلق الرجل وخلق الأنثى وقضى بينهما بالزواج الشرعى ، ليكون الإنجاب عن طريق شرعى وهو اللقاء الجنسى فيما بينهما . فوجود طرف ثالث فى عملية الانجاب محرم شرعاً ، لأن الشرع هو الاتصال بين الزوجين فقط .

أما إذا كان هناك مرض كضيق البوقين أو غلقهما ، فإن هذه حالة مرضية ، والضرورات تبيح المحظورات .

فيتم حينئذ تعديل الطريقة الطبيعية لالتقاء الحيوان المنوى بالبويضة ليتم الاخصاب خارج الرحم ، ثم ينقل البويضة الملقحة بعد ذلك إلى رحم المرأة صاحبة البويضة ، لاستكمال أطوار النمو .

أما بالنسبة للاخصاب الصناعى ذى العنصر الأجنبى ، أى المنى أو البويضة أجنبى عن الزوجين ، فإنه غير جائز شرعاً ، لتعارضه مع القواعد والأوضاع والشروط التى أرادها الخالق عزّ وجلّ للإنجاب .

فالاخصاب لا بد وأن يكون ذاتياً بين زوجين ، ولذا ينسب إليهما الوليد . أما إذا تدخل عنصر أجنبى فى عملية الاخصاب الصناعى ، فإن الشرع يحرم هذا الأسلوب .

فالمرأة التى يتم تلقيح بويضتها بماء رجل أجنبى عنها ، فإنه يعتبر

(١) الحج ٥ .

هذا الرجل من الناحية البيولوجية هو الأب .

مع أن زوج هذه المرأة من الناحية القانونية هو الوالد لهذا الطفل متى كان الحمل مدة الزواج بينهما .

فالأبوة حينئذ تقوم على مجرد إفتراض مصطنع ، والطفل لا يرتبط بالزوج الحقيقى للأم برابطة الدم .

وهذا هو الزنا بعينه الذى حرمه الله سبحانه وتعالى .

فالزواج قد شرعه الله عزّ وجلّ لإنجاب الأولاد ، كوسيلة لاستمرار الجنس البشرى ، عن طريق الاتصال المباشر بين الرجل والمرأة المتزوجين .

لأن الأسرة ليست مجرد زواج رجل بأنثى ، إنما الرجل والأنثى هما الركيزة الأساسية للأسرة ، بل لا بد وأن يعقب الزواج إنجاب الأطفال ، فإذا لم يتحقق ذلك سارع كل منهما لعرض نفسه على الطبيب المتخصص ، فإذا لم يتحقق ذلك ربما تأثرت العلاقة الزوجية بعدم قدرة أحدهما على الانجاب .

خاتمة

الحمد لله الذى له الحمد فى أوله وفى آخره ، وله الشكر والفضل والمنة على ما أولانى به من عظيم فضله والهامه وعونه ومدده ، إذ لولا فضل الله تعالى ما استطعت أن أكتب حرفاً واحداً . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الذى جاءنا بالهدى من عند الله عزّ وجلّ ، ونبهنا إلى جواهر القرآن الكريم ومفاتيح علومه . وبعد :

فلقد وجه القرآن الكريم الدعوة لكل إنسان لكى يتعلم ويبحث ، وكان هذا التوجيه الإلهى منذ أنزلت أول آياته على سيدنا محمد ﷺ ، حيث بدأت آياته بقوله تعالى :

﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾(١) فهذه الآيات التى أنزلها الله عزّ وجلّ فى أول بيان لعلوم القرآن الكريم ، هى فى حقيقتها وجوهرها دعوة إلهية صريحة ومفتوحة ، موجهة منه سبحانه إلى عباده ليعلموا بها .

فحينما صدر الأمر الإلهى بالتعلم والبحث ، فقد كانت أول كلمة نزلت وحياً يوحى على صفوة الرسل وخاتم الأنبياء هى قوله تعالى : «إقرأ» فقد وجهنا فى أول آية من آيات القرآن الكريم بأن يكون بحثنا وتعلمنا باسم الله الذى خلق كل الكائنات ، وخلق هذا الإنسان من علق .

---

(١) العلق ١ : ٥ .

فليس لنا أن نبتكر أو نخترع أو نقول بشيء يخالف نص القرآن الكريم ، لأنه الذى يتحدث ويوضح لنا المخلوقات من حيث نشأتها وتطويرها وتكوينها .

ولما كان العلم هو أول ما أنعم الله سبحانه وتعالى به على هذا الإنسان ، الذى خلقه الله سبحانه وتعالى من تراب ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء كلها . وبهذا العلم قد ميزه الله سبحانه وتعالى عن الملائكة وسائر مخلوقاته ، فوهبه قلب واع ، وعقل مفكر ، ولسان ناطق ، وأذن تسمع . قال الله تعالى : ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علمتنا ، إنك أنت العزيز الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾(١) .

فلقد تميزت الرسالة المحمدية بأن جعلت العلم هو الطريق الصحيح والقويم إلى الدين الصحيح والقويم .

فلكى يؤتى البحث العلمى ثماره فإن له مبادىء يجب أن تتوفر فيه وهذه المبادىء أرى أنها تتمثل فى الباحث نفسه وفى بحثه ، فيجب أن يكون الباحث لديه ملكة البحث العلمى ، حتى ينطلق بما وهبه الله من ملكات إلى رحاب العلم .

وقد أعطانا الله سبحانه وتعالى حرية التفكير وحرية البحث ، كما أعطانا العقل الذى تنتشر أدواته فيما خلق الله تعالى للإنسان من المخ

---

(١) البقرة ٣١ : ٣٣ .

والأعصاب والعضلات المنتشرة والمتصلة به . ومن حكمته سبحانه أن جعل هذا التكوين الإنسانى متحرراً من أى قيود تحد من حرية الإنسان فى التفكير والبحث . إلّا حدا واحداً يجب أن نعيه جيداً ، وهو واضح فى قوله تعالى : ﴿**إقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾

ولذا نجده سبحانه قد وضع الضوابط التى تؤثر على الإنسان فى طريقة بحثه وتفكيره ، وهى بمثابة قوانين إلهية .

فإذا ما تأثر الإنسان والتزم بهذه القوانين والتزم بها ، تولدت عنها مفاهيم وقيم ذات أثر فعال على موضوعات فكره ومنطق تفكيره وبحثه .

فقد إقتضت الحكمة الإلهية تحرير الإنسان من أى مؤثر خارجى يؤثر عليه فى طريقة بحثه وتفكيره ، فدعاه فى كثير من آيات القرآن الكريم إلى الفهم الصحيح وتدبر آياته ، فقال سبحانه :

﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾

﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾

﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾

كما دعاه الله سبحانه وتعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم إلى التفكير العلمى فيما أبدع الله جلّ جلاله فى هذا الكون من كائنات حية ، وسماوات وأرض ومخلوقات ، فقال تعالى :

﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت .**

فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمصيطر[1]
﴿قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض﴾[2]
﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير﴾[3].

وما ذلك إلّا لأن الله عزّ وجلّ يريد أن يخاطب العقل بالبرهان . ثم يعطيه الحرية فى التفكير والتأمل . ليهتدى إلى الصراط المستقيم .

لأن الفكر والتأمل فى الأنفس والآفاق إنما يولد فى النفس وفى الأعماق مفاهيماً وقيماً ذات تأثير فعال . تجعله يهتدى بها إلى صراط الله المستقيم . قال الله تعالى :

﴿إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾[4].

ولم يتوقف العطاء الربانى إلى هذا الحد . بل وجه الأنظار إلى أن يوجه الإنسان تفكيره واهتمامه إلى كل ما خلق الله وكفى . ولكنه سبحانه فصّل له خصائص الظواهر الكونية لتكون معيناً له ومرجعاً لاكتشافها والاستفادة منها . فقال سبحانه :

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى

---

(١) الغاشية ١٧ : ٢٢ .
(٢) يونس ١٠١ .
(٣) العنكبوت ٢٠ .
(٤) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾[1] .

ثم يوضح لنا بعد ذلك خصائص المخلوقات الأخرى غير الإنسان فيقول سبحانه : **﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض . وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . وإن لكم فى الأنعام لعبرة . نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون﴾**[2]

ثم حذرنا الله سبحانه وتعالى عن الخوض فى شيء ليس لنا به علم . وهذا مبدأ أساسى فى البحث العلمى . حتى لا يقوم البحث على الرأى أو الظن أو التخمين . دون أن يستند إلى دليل أو برهان ، قال تعالى :

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[3] .

وهكذا فقد أوضح لنا الله سبحانه وتعالى مناهج العلم والبحث والتفكير ، وأعطانا أدواته ووسائله كى نعرف الحق ونكتشف

---

(١) المؤمنون ١٢ : ١٦ .
(٢) المؤمنون ١٧ : ٢٢ .
(٣) الاسراء ٣٦ .

الحقيقة . فما العلم إلّا وسيلة للهداية ، والقرآن الكريم جامعة علمية ، ولا بد وأن نكون أمناء على تلك الجامعة الإسلامية . يقول رسول الله ﷺ : **(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتى)** .

فالذى يرنو ببصره إلى كتاب الله عزّ وجلّ يجد من خلاله الطريق لتربية النفس والضمير ، فيراقب ربه عزّ وجلّ فى سره وعلانيته ، وفى فكره وبحثه ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين .

وليعلم كل باحث منصف بأنه إذا آمن بالله تعالى ، فلا بد وأن يؤمن بما جاء بكتابه الكريم ، ليأخذ مما فيه من جواهر العلم والمعرفة .

فإذا ما تلمس فى آياته ، والتجأ إلى صفحاته ، وتوجه إليه بعقله وقلبه ليأخذ منها عن إيمان وصدق ، فتح الله له الطريق إلى العلم ، وأطلعه على بعض ما لله تعالى من علم وقدرة وحكمة ، فتقوى حينئذ صلته بربه عزّ وجلّ ، ويقوم عليه من جلال الله وخشيته سلطان يقيمه على طاعة الله عزّ وجلّ وسلوك منهجه القويم .

وعلينا أن نهتف من أعماقنا قائلين فى إيقاع رتيب ، مزينين قلوبنا وأبحاثنا ومؤلفاتنا ، واضعين فوق رءوسنا قوله تعالى :

﴿هو الله الذى لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلّا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1] فهى وسام الفخار الذى نحمله ،

---

(١) الحشر ٢٢ - ٢٤ .

وهى الوفاء والولاء لله عزّ وجلّ ، وهى كل القيم الحضارية والمفاهيم التى يجب أن نأخذ منها عطاءنا المتجدد بفضل الله .

فاللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، علانيته وسره ، فأهلا أنت أن تحمد ، إنك على كل شيء قدير .

اللهم علمنى ما ينفعنى ، وانفعنى بما علمتنى ، وزدنى علماً . اللهم إنى أبرأ من حولى وقوتى فى كل ما سطرت وقدمت ، فلا حول ولا قوة لى إلّا بك سبحانك . فكن لى مؤيداً وناصراً . وإن كنت أحسنت فهو توفيق الله والهامه . وإن أخطأت فمن نفسى والشيطان .

مباحث الكتاب

صدر من هذه السلسلة

١ ــ تأملات في سورة الفاتحة	الدكتور حسن باجودة
٢ ــ الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣ ــ الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين	الأستاذ نذير حمدان
٤ ــ الاسلام الفاتح	الدكتور حسين مؤنس
٥ ــ وسائل مقاومة الغزو الفكري	الدكتور حسان محمد مرزوق
٦ ــ السيرة النبوية في القرآن	الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧ ــ التخطيط للدعوة الاسلامية	الدكتور محمد علي جريشة
٨ ــ صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية	الدكتور أحمد السيد دراج
٩ ــ التوعية الشاملة في الحج	الأستاذ عبد الله بوقس
١٠ــ الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره	الدكتور عباس حسن محمد
١١ــ لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢ــ السنة في مواجهة الأباطيل	الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣ــ مولود على الفطرة	الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤ــ دور المسجد في الاسلام	الأستاذ محمد علي مختار
١٥ــ تاريخ القرآن الكريم	الدكتور محمد سالم محيسن
١٦ــ البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام	الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧ــ حقوق المرأة في الاسلام	الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨ــ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١]	الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩ــ القراءات أحكامها ومصادرها	الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠ــ المعاملات في الشريعة الاسلامية	الدكتور عبد الستار السعيد
٢١ــ الزكاة فلسفتها وأحكامها	الدكتور علي محمد العماري
٢٢ــ حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم	الدكتور أبو اليزيد العجمي
٢٣ــ الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤ــ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥ــ الاسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة

٥٦ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٥٧ــ كيف تكون خطيباً	الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨ــ الزواج بغير المسلمين	الشيخ حسن خالد
٥٩ــ نظرات في قصص القرآن	محمد قطب عبد العال
٦٠ــ اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات	الدكتور السيد رزق الطويل
٦١ــ بين علم آدم والعلم الحديث	الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢ــ المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٦٣ــ من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	الدكتور رفعت العوضي
٦٤ــ تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥ــ لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦ــ أصلح الأديان عقيدة وشريعة	الأستاذ عبد الغفور عطار
٦٧ــ العدل والتسامح الاسلامي	الأستاذ أحمد المخزنجي
٦٨ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٦٩ــ الحريات والحقوق الاسلامية	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠ــ الانسان الروح والعقل والنفس	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١ــ كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	الدكتور شوقي بشير
٧٢ــ الاسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣ــ تأملات قرآنية	الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤ــ الماسونية سرطان الأمم	الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥ــ المرأة بين الجاهلية والاسلام	الأستاذ سعد صادق محمد
٧٦ــ استخلاف آدم عليه السلام	الدكتور علي محمد نصر
٧٧ــ نظرات في قصص القرآن [٢]	محمد قطب عبد العال
٧٨ــ لماذ وكيف أسلمت [٢]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩ــ كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	الأستاذ سراج محمد وزان
٨٠ــ الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ أبو الحسن الندوي